

الأدب الجاهلي

الدكتور

أشرف أمين جاد أبو زيد
أستاذ الأدب والنقد المساعد
كلية الآداب – جامعة جنوب الوادي

الأستاذ الدكتور

غريب محمد على
أستاذ الأدب والنقد المتفرغ
كلية الآداب – جامعة جنوب
الوادي

العنوان الرئيس : الأدب العربي

العنوان الفرعي : الأدب الجاهلي

أستاذ المقرر : أ.م. د. / أشرف أمين

كلية : التربية بقنا

قسم : اللغة العربية والدراسات الإسلامية

العام الجامعي : 2023 / 2024 م

بيانات الكتاب

الكلية : التربية بقنا

الفرقة : الأولى

**التخصص : برنامج إعداد معلم التعليم الإعدادي والثانوي اللغة العربية
وآدابها**

العام الجامعي : 2023 / 2024 م

عدد الصفحات :

المؤلفون : أ. د. غريب محمد علي

أ.م. د. / أشرف أمين جاد

أما قبل:

مثل "عسل منحدر من كلّ زهرة بريّة تتجمع حوله هجمة المتذوقين للشعر الجاهلي، هكذا كانت هذه القصائد المشهورة بالمعلقات، هي قصائد متميزة، لا يشك أحد في هذه الحقيقة". ولا يشك أحد أيضاً في أنها تفرد بالحسن.

وكانت هذه المناز عات أيضاً-ولا تزال- محوراً أساسياً في الجدل والاجتهادات التي دارت حول عموم الشعر الجاهلي، وكانت محوراً أساسياً في الثقافة العربية؛ فليست ثمة حقبة من حقب تاريخ الشعر العربي حظيت بالاهتمام، وأثارت الجدل الحاد والقضايا الشائكة مثل الشعر الجاهلي، فبعد أن كان "مستودع حكمة العرب" كما قال عمر بن الخطاب، جاء الإسلام فانصرف الناس عنه، "بل هجروه اكتفاءً وانشغالاً بالقرآن الكريم". ثم عادت إليه احتياجات الرواية اللغوية والحضارية والثقافية، لترفع من شأنه باعتباره مصدراً للمعرفة اللغوية والحضارية والثقافية التي تخدم ثقافة الإسلام الناهضة؛ فُرُفِعَ إلى قمة سامية أزرت وقللت من شأن شعر المحدثين، وتربع على هذه القمة زماناً طويلاً، يتحمّل إليه الدارسون شرحاً وتفصيلاً وتعليقًا واستشهاداً، كل عصر يلقي عليه نظرته مجتهداً حيثاً ومتابعاً في أحيان كثيرة.

و جاء العصر الحديث يحمل معه أدواته فراح يضرب هنا وهناك، فسعى أهل النظر التعليمي إلى إحياء النظر إليه مطمنين إلى حكمة التراثيين واجتهادهم ، ثم جاء مقابل البحث التاريخي لينفذ مرة أخرى إلى التدقيق والتوثيق، وتشتد النظرة وتغوص حفرًا وتنقيباً، فتقجر قضية التشكيك، وتغلوّ غلوّاً كبيراً إلى حد التشكيك في صحته، بل تصل إلى حد إلغائه جزئياً أو كلياً. يقول طه حسين كلمة جامعة مانعة تلخص الموقف: "وإذا لم يكن بد من أن نختم هذا السفر بجملة تلخص رأينا، فنحن ننطر إلى الأدب الجاهلي كما ينظر المؤرخ إلى ما قبل التاريخ، ويتخذ لدرسه الوسائل التي تتخذ لدراسة ما قبل التاريخ، فاما تاريخ الأدب حقاً، التاريخ الذي يمكن أن يدرس في تقىة واطمئنان، وعلى أرض ثابتة لا تضطرب ولا تنزلول، فإنما يبتدئ بالقرآن".

ومن العجب أن يكون هذا الرأي السلبي أكثر الآراء المفيدة للشعر الجاهلي. فقد توجهت الأنظار إلى هذا الرأي الصادم.

فجاءت ردود متدافعـة تحقيقاً وبحثاً ودراسةً، حتى عاد الشعر الجاهلي إلى الواجهة بقوة.



مهد نظري وإضاءات:
أولاً: إشكالية مصطلح الجاهلية
ثانياً: صورة موهومة عن العصر

أولاً إشكالية مصطلح الجاهلية :

ونحب أن نصح بعض المفاهيم الخاطئة عن هذا العصر ، فقد درج أكثر القدماء والمحدين على تفسير معنى الجاهلية بالأمية⁽¹⁾، أي عدم معرفة القراءة والكتابة، وُوصم العصر الجاهلي بالخلف الحضاري، وأبناء العصر بالخلف الثقافي⁽²⁾. ولكن النظرة الموضوعية أسمحت في إزالة الغبار الذي علق بهذا المصطلح، وقد رأى فيليب حتى أن الحقيقة خلاف ذلك. فالجاهلية في المعنى الصحيح هي ذلك العصر ، الذي لم يكن لبلاد العرب فيه ناموس وازع، ولا نبٌٰ ملهم، ولا كتاب منزل . فمن الخطأ أن نصف بالجهل والهمجية هيئة اجتماعية امتازت بما يمتاز به عرب الجنوب من ثقافة ، وحضارة قطعت في ميدان التجارة والأشغال شوطاً بعيداً قبل الإسلام بقرن متراوحة ".⁽³⁾

وهكذا ينتهي المؤلف إلى تفسير فكرة الجاهلية على أساس ديني محض، فالعرب لم يكونوا أميين، وو صنفهم بالجاهلية إنما هو تعبير عن أميّتهم الدينية. وشبيه بذلك ما ذهب إليه الدكتور ناصر الدين الأسد، حيث يقول نافياً تجھيل الجاهلية : " إن حياة العرب في الجاهلية – فيما بدا لنا - بعيدة كل البعد عما يتورّه بعض الواهمين ، أو يقع فيه بعض المتسرّعين الذين لا يتوقفون ، ولا يتثبتون ، فيذهبون إلى أن عرب الجاهلية لم يكونوا سوى قوم بدائيين ، يحيون حياة بدائية في معزل عن غيرهم من أمم الأرض ... ونذهب إلى أن عرب الجاهلية الأخيرة كانوا من الحضارة بمنزلة لا سيل إلى تجاوزها ، ولا مزيد عليها لمسترید...".⁽⁴⁾

ومن الباحثين من ذهب إلى أن كلمة الجاهلية أطلقـت على هذا العصر ، ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقضـه⁽⁵⁾، وإنما هي مشتقة من الجهل بمعنى السفه والغضب ، والتـزقـ ، فالكلمة إذن تتصـرف إلى معنى الجهل الذي هو مقابل الحلم، ومن هذا قول الشنفرى الأزدي في لامية:

وَلَا تَرْدِهِي الْأَجْهَالُ حَلْمِي وَلَا أَرِي سَوْلًا بِأَعْقَابِ الْأَقْوَيْلِ أَنْمَل

والى هذا المعنى يذهب عمرو بن كلثوم في معلقته إلى القول:

أَلَا يَجْهَلُنْ أَحَدٌ عَلَيْنَا فَجَهَلَ فَوْقَ جَهَلِ الْجَاهِلِينَا
بُغَاةَ ظَالِمِينَ وَمَا ظَلَمْنَا وَلَكَنْ سَاسَنْبَدَا ظَالِمِينَا

و واضح من هذه الأقوال أن الجهل هنا يقصد به الحمق والسفه ، وعدم ضبط النفس، وقد ان سطـرة العقل ، وعدم السلوك الحكيم.

1- د. إبراهيم عبد الرحمن : *الشعر الجاهلي فضایاه الفنية والموضوعية* ، ص22.

2- دائرة المعارف الإسلامية ، مادة "جاهلية".

3- د. فيليب حتى : *تاريخ العرب مطول* ، 117/1.

4- د. ناصر الدين الأسد : *مصادر الشعر الجاهلي* ، ص18.

5- د. شوقي ضيف : *العصر الجاهلي* ، ص39.

ولكن ينبغي أن ننبه إلى أن هذا لم يكن حال القوم في مجموعهم، ولم يكن كل من عاش في ذلك العصر متصفًا بهذه الصفات التي تتنافى مع العقل والحكمة، والاتزان، والروية . فقد كان هناك أفراد اشتهروا بالعقل السديد ، والرأي الصائب، وبُعد النظر ، كزهير بن أبي سلمى ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص ، والحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، وقيس بن عاصم ، والحارث بن عباد ، وعامر بن الطراب العدواني ، والرابع بن زياد العبسي . وكانت سماتهم الظاهرة الحكمة ، حتى أن العرب اتخذوا من أولئك العقلاة حكاماً ، يستشرونهم في شؤونهم ، ويحكمونهم في دمائهم ومواريثهم ، اذكر منهم : اكثم بن صيفي ، وضمرة بن ضمرة النهشلي ، وربيعة بن مخاشن ، وحاجب بن زراة .⁽¹⁾

وال الأولى أن تكون كلمة الجاهلية قد أطلقـت - حين أطلقت - لتدل على شیوع عبادة الأولـان بينـهم ، فلا شك أنـ من بينـ العرب منـ كان يركـع لـصنـم ، أو يـنحر لـنصـب ، أو يـتمسـح بـوثـن ، تـقـرـباً للـله وـزـلـفـي⁽²⁾ . فالـجـاهـلـيـة مـصـطـلـح إـسـلامـي يـشير إـلـى أـنـ الـعـرب قـبـلـ الـإـسـلـام لمـ تـكـنـ نـاعـمـة بـزـمـنـ الـإـسـلـام ، وإـشـرـاقـ تـعـالـيمـه⁽³⁾ ، ولـيـسـ ثـمـةـ مـا يـسـوـغـ اـنـصـرافـ مـصـطـلـحـ الـجـاهـلـيـة إـلـى تـوـحـشـ الـعـرب ، وجـهـلـهـمـ بـعـلـومـ زـمانـهـ⁽⁴⁾ . ويمكن ردـ التـطـرـفـ ضـدـ الـعـرب قـبـلـ الـإـسـلـام ، وـنـعـتـهـمـ بـالـتـوـحـش ، وـالـجـهـلـ المـطـبـقـ إـلـىـ ثـلـاثـةـ أـسـبـابـ :

الأول : ديني ، ويـتـضـحـ منـ خـلـلـ الـحـرـصـ عـلـىـ تـبـيـانـ أـثـرـ الـإـسـلـامـ فـيـ الـمـجـتمـعـ العربيـ ، وـكـلـ الـإـسـلـامـ قـدـ خـلـقـ هـؤـلـاءـ الـذـينـ آمـنـواـ خـلـقاـ جـديـداـ ، لمـ يـكـونـواـ قـبـلـهـ شـيـئـاـ يـذـكـرـ⁽⁵⁾ .

الثـانـيـ: شـعـوبـيـ ، وـمـنـ الـمـعـلـومـ أـنـ الشـعـوبـيـةـ تـنـوـءـ بـكـرـاهـيـةـ الـعـربـ ، فـلـمـ تـتـرـكـ عـادـةـ قـبـيـحةـ ، إـلـاـ وـأـلـصـقـتـهـ بـالـعـربـ ، إـذـ لـمـ يـرـقـ لـهـمـ كـوـنـ الـعـربـ أـمـةـ تـسـعـيـ لـلـمـعـرـفـةـ وـالـخـيـرـ⁽⁶⁾ . والـخـيـرـ⁽⁶⁾ .

الـثـالـثـ: الـمـسـتـشـرـقـونـ ، وـإـذـ كـانـ بـعـضـهـمـ – مـمـنـ اـتـسـمـ سـلـوكـهـ بـالـمـوـضـوـعـيـةـ وـالـأـمـانـةـ الـعـلـمـيـةـ – قـدـ أـفـادـ مـكـتـبـةـ الـعـصـرـ الـجـاهـلـيـ الـأـدـبـيـةـ ، سـوـاءـ أـكـانـ ذـلـكـ بـالـأـبـحـاثـ ، أـوـ تـحـقـيقـ بـعـضـ دـوـاـيـنـ الـشـعـراءـ ، فـإـنـ درـاسـاتـ بـعـضـهـمـ مـنـ أـمـثـالـ مـرـجـولـيـوـثـ ، وـرـيـنـانـ

1- ابن حبيب : المحرر ص 156.

2- د. يحيى الجبورى: خصائص شعر المخضرمين ، ص 19.

3- محمود شكري الألوسي: بلوغ الأربع 1/15

وبروكمان: تاريخ الأدب العربي 1/43

وجورجي زيدان: تاريخ ادب اللغة العربية 1/29.

4- غوستاف لوبيون: حضارة العرب ، ص 109 وفيليب حتى: تاريخ العرب مطول ، 1/117

5- انظر : د. علي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص 5

6- وهناك اتجاه يذهب إلى القول بتفوق العرب قبل الإسلام في الحضارة والمعرفة، بما ترك تأثيراً متميزاً على الشعوب الأخرى.

جوستاف لوبيون : حضارة العرب ، 109

بلادشير : تاريخ الأدب العربي ، 61

جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية ، 1/31.

وأوليسي ، " قد أساوا إلى العرب وأدبهم وحضارتهم وعقليتهم (1) " إساءة متعمرة
فقد صدرت - فيما كتبوا - عن روح عنصرية بيرأ منها العلم.

4- د . عفيف عبد الرحمن : الأدب الجاهلي في آثار الدارسين ، ص 45 .

ثانياً: صورة موهومة شائعة عن حياة العرب قبل الإسلام

شرّ ما ثُصّب به الشّعوب ، أن يتحرّى القائمون على ثقافتها مرضاه العوام، بكل ما يسخط الحق ، ويمسخ التاريخ.

يكتب الكاتبون كتبًاً ومقالات ، ويتحدث الواعظون في مجالس وندواتٍ، فلا يكون لهؤلاء ولا لأولئك حديث أحب إليهم ، ولا أرضي لعواطفهم من أن يخلعوا على الأمة العربية في عصر ما قبل الإسلام كلّ ما يضع من أحاسيب العرب، ويغضّ من أقدارهم ، وكأن الإسلام قد خلق الذين أيدوا رسول الله - ﷺ . خلقاً جديداً ، لم يكونوا قبله شيئاً يذكر بفضل أو ينسب إلى كرم.

وحقيقة الأمر " أن الإسلام لا يمكن أن يكون شجرة منبتة الأصل عن البيئة التي وجدت فيها ، لا تمت بصلة إلى عقول العرب ، وهذا يخالف طبيعة الأشياء "(1). ويفكى للدلالة على خلق القوم قبل الإسلام ، وعلى ما كانوا يتصرفون به من مثل عليا - ما قال الرسول - ﷺ . لأبي بكر : " يا أبا بكر ، أية أخلاق في الجاهلية هذه ، ما أشرفها ! بها يدفع الله عزّ وجلّ بأس بعضهم عن بعض ، وبها يتحاجزون فيما بينهم "(2) . وإذا أسبغ الرسول الكريم على العرب في جاهليتهم هذا الشرف ، وأثنى عليهم ، فليس عجيباً أن يروى عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قوله: " إني لأعلم متى تهلك العرب ، إذا جازوا الجاهلية فلم يأخذوا بأخلاقها ، وأدركوا الإسلام فلم يقدّهم الورع ".(3)

فقد غير الناس في وهم عجيب ، وتصور أعجب منه للحياة السابقة للإسلام. فعندهم أن العرب قد جاءهم الإسلام ، وهم يعيشون عيش الجماعات البدائية ، التي تبرا حياتها من النظام ، فهم في فرقة أبداً ، وفي حروب لا تتقطع ، وليس حربهم في سبيل غالية سامية ، وإنما هي غارات قبليّة يشنها قويّهم على ضعيفهم ، وتقوم فيها القبيلة للقبيلة ، والطائفنة للطائفنة في جماعة لا تربط فيها بين الناس إلا تلك الروابط الساذجة من القرابة أو النسب ، التي تقوم بين أعضاء الأسرة ، وأن هذه الروابط هي التي تنتهي عندها كل العلاقات ، وتتكيف على مقتضاها الفضائل والأخلاق.

وأول ما أحبّ أن أقوله هو أن هذه الصورة ليست صحيحة ، وأن هذا الوهم خاطئ ، فالعرب يوم جاءهم الإسلام لم تكن تنزل من حياتهم تلك المنزلة الجسيمة هذه الدوّاعي التافهة ، والعرب لم يكونوا يومئذ جماعة بدائية ، يعيش أهلها عيش السائمة ، لا تحكمهم فيما بينهم إلا تلك العلاقات ، التي لا تسود الجماعات إلا في الطور الباكرا من تاريخها.

وانك ليسقط عندك هذا الوهم ، إذا أنت نظرت فوجدت أن هذه الأمة التي تصور لنا هذا التصوير ، هي نفسها التي تتحدث لغة تستطيع ، وأنك مطمئن تمام الاطمئنان ، أن تضعها في مقدمة اللغات القديمة والحديثة كلها ، سلامـة ، واكتـمالـاً ، وجـمالـاً ، ووفـاء ، وحيـوية.

1- د.نجيب محمد البهبيتي : تاريخ الشعر العربي حتى القرن الثالث ، ص57.

2- البيهقي : دلائل النبوة ، 243/2 .

3- نفسه .

فهذه اللغة موزونة ، يعتمد اللفظ من ألفاظها على بنية موسيقية سليمة ... وما ذلك تكون لغات الأمم، إذا كانت عند بداية تكونها الاجتماعي، وعلى عتبة التتبه العقلي والفكري. وإنما تكون عند هذه المرتبة لغة قوم بعد أن تدور في آفاق واسعة من التعبير عن الحاجات والمشاعر ، وتمتد إلى أعماق بعيدة من التحضر لا يمكن أن تنهيأ لأمة من الأمم، إذا كانت عند مطلع التكوين الاجتماعي والقومي. فاللغة العربية لا يمكن أن تكون لغة قوم كانت تلك حالهم قبل الإسلام مباشرة.

وهذه الأمة نفسها هي الأمة التي نشأ فيها الإسلام. والإسلام بوصفه نظاماً تشعرياً يراد به إلى تنظيم الجماعة، تجري أحكامه على حال لا يمكن معها أن يقال عنه : إنّه نزل لتنظيم جماعة بدائية، حياتها على تلك الصورة التي أطّل المؤرخون والقصاصون الحديث عنها، فالجماعة البشرية لا يمكن أن تنتقل طفرة من حالة الفوضى ، وعدم الاستقرار والتفرق الذي يمتد إلى شريعة الغاب إلى حالة من النظام المثالي الذي لا يكاد يتصل به مثال . وقد تصور هذه النقلة وصيحة أبي بكر (رضي الله عنه) لجند أسامة بن زيد في خروجهم إلى الشام ، بعد موت رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإنها تصور قوانين حربهم، وقوانين عهدهم ، ومقدار ما انتهوا إليه من سُمُّون في إنسانية معاملتهم، ومن فهم للخلق العام. يقول أبو بكر : " لا تخونوا ولا تغدروا ، ولا تغلوا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا طفلاً ، ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة ، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة " .⁽¹⁾

وقد فعلوا ما أمرهم به أبو بكر ، لم يخرج منهم عن ذلك خارج ، على الرغم من ضخامة العدد، هذا القدر من الحضارة النفسية لا يمكن إلا أن يكون في القوم عريقاً، وليس يمكن أن تنتقل إليه أمة بمجرد تغييرها دينها، فالحضارة عباء يتتناسب دائمًا مع قدرة الأمة الناهضة به ، ومع عددها ، والقدرة والعدد في هذا متلازمان لا يفترقان. فالأمة قد يزيد عددها، وتتأخر قدراتها، فلا تستطيع النهوض بعبء وحضارة من الحضارات ، وقد تزيد قدرتها ويقل عددها ، فيتأثر بذلك قدر سيرها بنوع من أنواع الحضارات.

والإسلام أول تشريع جعل المساواة الكاملة بين الناس في الحقوق نظاماً، وفرض هذا النظام واجباً على الدولة وعلى الأمة .

والإسلام أول نظام جعل من حق المحكوم اختيار الحكم، وقيّد الحكم، وأطلق يد الجماعة في التصرف بحكامها، باعتراف الحكم نفسه، وخطبة أبي بكر بعد البيعة مشهورة⁽²⁾: أيها الناس قد ولّيت عليكم ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينوني ، وإن أساءت فقوموني ... الضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ الحق له ، والقوى فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه... أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيتك فلا طاعة لي عليكم".

والإسلام أول تشريع انتهى إلى جعل سلامة الفرد من أي لون ، ومن أي جنس – ما دام قد اعتنق الدين- أساس تكوين الجماعة. وإقامته الفرد من غيره مقام المساواة

1- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 2/335 .

2 - المرجع السابق : 2/332

المطردة، ووضعه موضع اللبننة المتميزة في بناء الجماعة، أمران يكشفان عن إحساس فد بالكرامة الإنسانية، لا اعرف له نظيرًا في تاريخ الأمة.
ثم أن الإسلام ، مع هذا الإدراك الواضح لقيمة الفرد ، لم يغفل حق الجماعة ولم ينس كيان الأمة.

والأمة في الإسلام وحْدة حضارية تطوي كل جماعة ، تعنتق الإسلام، فهي في امتداد أبدا ، ما امتد الدين . وهذا الدين لم ينزل لجنس بعينه، ولم يبعث به نبيه – صلى الله عليه وسلم- إلى بيئه محدودة ، وإنما انزل للناس كافة ، وجعل الجهاد فيه فريضة على كل من اعتقه، ومعنى ذلك أنه يرمي إلى تكوين وحدة إنسانية عامة، تتحقق فيها تلك المُثُل الحضارية التي رسمها لبنيه جميعاً . وهو إحساس جديد بجماعة إنسانية تهمض الأجناس والألوان ، لم يسبق إليه قبل الإسلام دين ، ولم تبلغ مداه حضارة، وهوأمانة يفرضها الدين على معتقليه، يؤدونها للإنسانية بثمن يدفعونه من دمائهم وحياتهم. وقد تدعوا النَّحْلَةُ، أو الْهُوَى، أو الرأي إلى الاختلاف في تقويم الوسائل التي اصطنعت لتحقيق هذه المثل عملياً في الحياة، ولكن الاختلاف في تقويم الغاية هنا عسف وجور . والاختلاف حول التطبيق لا يمكن أن يمتد إلى غير القول إنّ بلوغ الإنسانية إلى هذه المرحلة نمو في تكوينها الجماعي والعقلاني، وان الأمة التي طمحت إليه أمّة قد اتسعت آفاق تفكيرها اتساعاً ينبي عن غير هذا المفهوم الضيق لحياتها في فترة سبقت هذا العهد من تاريخها.

ومن سوء الحظ أن هذه النظرة لم تجر على تاريخ العرب الجاهليين وحدهم، وعلى كل ما يمكن أن يمتد إلى حضارتهم بسبب ، ولكنها جاوزت ذلك كله إلى الجرور على تشخيص طبيعة الجنس السامي كله، إذ العربي هو الممثل الأول لهذا الجنس. فيقول رينان(1): فالسامي لا يعرف من الواجبات إلا واجباته نحو نفسه. فطلبه الثأر ، وسعيه إلى كل ما يمكن أن يعده حقا لنفسه ، يقع في عينيه موقع الالتزام. أما أن تطلب إليه الوفاء بوعده، والعدل في أمر لا يعنيه أو يخصه ، فانك تطلب بذلك إليه المستحيل".

ولو رجع رينان إلى نفسه ، والى بعض ما قرأ عن العرب في جاهليتهم، لوجد فيما قرأ عن نوادر البطولة الخلقية في الجاهلية ما لا يدع مجالاً لتصور هذا العربي الأناني مثلاً لكل عربي ، ثم لكل سامي.

قصة كعب بن مامِة اليايدي الذي أثر بنصيبه من الماء رفيقه النمري، فمات عطشاً ، فضرب به المثل في الوفاء(2).

وقصص الوفاء التي لا تعد في الجاهلية ، وما أثر عن الجود في العرب، وحق الضيف، وحق الجوار، وغير هذا كثير (3) يشهد بان رينان لم يكن ينظر إلى الواقع قدر ما كان يستجيب لعصبية خاصة، بيراً منها العلم.

1- نقلًا عن احمد امين : فجر الإسلام، ص 27

2- أنظر : ابن حبيب: المحرر، ص 348 وما بعدها
مجمع الأمثال للميداني ج 4 باب أوفى.

3- أنظر هذا الكتاب 223-226.

ولعل تلك النظرة الجريئة على الجاهلية، التي خيل لقوم أنّهم سيرفعون بها قدر الإسلام فأساواه، كانت سبباً من الأسباب التي أغرت رينان بترك الأخبار المتناقلة عن العرب قبل الإسلام، والاعتماد على تصوير خاطئ لها، لم ينلها عن وقائعها المباشرة. ولقد أثر عن العرب ، أنّهم كانوا قوماً يعيشون على الرعي، وينتقلون انتجاعاً للكلأ ، فهم رعاة قبل كل شيء. وترك هذا المفهوم لقوام الحياة العربية قبل الإسلام ظللاً على تقسير كل شيء يمثّل إلى الحياة العربية بسبب.

وهو زعم خاطئ ، إذ أن الرعي لم يكن العمل الأساسي، ولا المورد الأول لحياة سكان الجزيرة قبل الإسلام، وإنما كان عملاً جانبياً ضئيلاً جداً بالقياس إلى مصدر الثروة العربية، التي قامت عليها الحياة الجاهلية كلها ، وحضارة العرب التي سبقت الإسلام في الأزمنة السحيقة والقريبة، وذلك المورد هو التجارة .
ونظمت طرق القوافل التجارية ، ووضعت لها الأنظمة الصارمة لحراستها، وحمايتها، وضمان سلامتها بلوغها إلى غايتها ، وفرضت العقوبات الرادعة لكل من نجراً على تهديد أمن هذه الوسيلة الحيوية لأهل الجزيرة.
وتبلّرت عن هذا النشاط الاقتصادي قيمٌ علياً ، ومُثلّ سامية منها: حقّ الجوار، وإكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، والوفاء ، وغير ذلك.
وانتهى الأمر بالتجارة إلى رواج ، وتقدّست الثروات ، وتضخمـت، بين أيدي كثيـر من القبائل.



الفصل الأول:
الحياة العامة

الحياة الاجتماعية

القبيلة وحّدة الحياة في المجتمع الجاهلي :

يمكن عزوًّا الأسباب التي دعت إلى تكوين القبيلة، وإلى أن تكون الوحدة الاجتماعية في ذلك العصر إلى اضطراب الحياة ، وعدم استقرارها ، وإلى عدم قيام حكومة تحفظ للناس أرواحهم(1)، وإلى قسوة الحياة في تلك الصحراء المترامية الأطراف. فقد كان النظام القبلي في شبه الجزيرة العربية ضرورة اجتماعية، فرضتها ظروف البيئة بما فيها من جفاف، وجدب، وشظف عيش، وصراع دائم حول موارد الكلاً والماء ، من أجل حفظ الحياة والبقاء. فلا مقام لفرد مستقلًا، ولا غنى للقبيلة عن أي فرد من أفرادها، إنهم جميعاً متضامنون، متكافلون، يذوب الواحد في الجماعة، وتتوحد الجماعة في الفرد. وكانت القبيلة أشبه بدولة مصغرة(2)، هي دولة الأعرابي ، وموئله في تلك الصحراء.

تشكيل القبيلة :

كان على أبناء القبيلة أن يخضعوا لواحد منهم، يرشحونه للرياسة عليهم، تكون مهمته الأصلية الإبقاء على وحدتهم، ويُعرفُ بـ " سيد"(3) أو " رئيس"(4)، أو "شيخ" (5)، أو "أمير" (6). وكان الرئيس يتميز من باقي أفراد القبيلة بعمامته ذات لون أصفر(7)، أصفر(7)، وكانت خيمته حمراء، لتعرف بسهولة، كما يشعّل حولها ناراً، أو توضع في أعلى مكان ليراهَا من يريدها، أو تربط بجوارها الكلاب مخافة أن يأتيه ضيف فلا يعرف مكانه(8).

وله منطقة خاصة ترعى فيها إلهٌ يُسمى "الحمى" (9) . وله أنصبة خاصة في توزيع الغنائم والأسلاب، ذكرها أحد الشعراء مخاطباً بسطاماً بن قيس، زعيم بنى شيبان(10) : لك المرياغ منها والصفايا وحُكمك ونشيطة وفضولوك

وكان للقبيلة بجانب الرئيس مجلس يُسمى مجلس القبيلة، يعاون الرئيس في إدارة شؤونها، ويختار أعضاؤه من الرجال الذين عرفوا برجاحة العقل، وإلى هذا المجلس تعود مناقشة جميع القضايا التي تهم القبيلة (11)، وليس صلاحياته مطلقة ، بل أن

1- أحمد الشايب : النقائض ، 37.

2- فيليب حتّي : تاريخ العرب مطول 28/1

3- انظر : اذا سيد منا خلا قام سيد " النوري: نهاية الارب 202/3

4- ابن هشام : السيرة النبوية 117/1

5- ابن خلدون : المقدمة ، 101

6- ابن الأثير : الكامل في التاريخ 221/2. وديوان قيس بن الخطم ، ص 94 ، 102 .

7- ابن الأثير : الكامل في التاريخ 121/1

8- د. عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية 49/1

9- الطبرى : تاريخ الطبرى 92/3

10- الاصمعيات : ق 8، ص 37.

11- بلاشير: تاريخ الأدب العربي ، ص 35.

أوامره تستمد قوتها من مداولات المجلس⁽¹⁾، ويتحاشى هذا الرئيس أن يقيم نفوذه على على القهر ، وكل نزعة إلى الحكم الاستبدادي تلقي مصير كُلِّيٍّ الذي صرّعه بنو بكر .

شروط السيادة :

ويجب أن يتحلى رئيس القبيلة بصفات تؤهله لقيادة القبيلة في سلمها وحربها، ومن هذه الصفات (2): الحُلْمُ ، والشجاعة ، والمقدرةُ الحربيةُ ، والكرمُ ، ورجاحةُ العقل ، والتواضعُ ، والصبرُ... وقد سُئلَ قيسُ بنُ عاصِمَ (3) : كَيْفَ وَصَلَتْ إِلَى حُكْمِ قَبْيلَتِكَ؟ فأجاب: بِإِذَا عَذَّةِ الْمَعْرُوفِ ، وَإِغَاثَةِ الْمَلْهُوفِ ، وَفَضَّلَ الْمَنَازِعَاتِ ، ثُمَّ أَضَافَ قَائِلًا: وَيَبْلُغُ الرَّجُلُ الْمَكَانَ الْمَرْمُوقَ بِالذِّكَاءِ ، وَالْعَفْفَةِ ، وَالْأَدْبِ ، وَالْمَعْرِفَةِ.

وقد حدّد عامر بن الطفيلي بعض شروط السيادة ، فقال: (4)

أَنِي إِنْ كُنْتُ ابْنَ سَيِّدِ عَامِرٍ وَفِي السَّرِّ مِنْهَا وَالصَّرِّيجِ
أَبْنَى اللَّهُ أَنْ أَسْمُو بِأَمْ وَلَا أَبِ
أَذَاهَا وَأَرْمَى مِنْ رَمَاهَا بِمَنْكِبِ
فما سُوَدَّتِي عَامِرٌ عَنْ وِرَاثَةِ
وَلَكَنَّنِي أَحْمَى حَمَاهَا وَأَتَقِي

ولا شك أن انتقال السيادة بطريق الوراثة كان من المبادئ المعترف بها في المجتمع القبلي ، ومصداق ذلك قولُ بشامةَ بن الغدير:
يُطَاعُ وَيُؤْتَى أَمْرُهُ وَهُوَ
مُحْتَبِّ
وَلَكُنْ أَتَتْنِي طَائِعًا غَيْرَ مَتَعِبٍ
وَجَدْتُ أَبِي فِيهِمْ وَجَدَّي
كُلِّهِمْ
فَلَمْ أَتَعْمَلْ لِلسيَادَةِ فِيهِمْ

واجبات سيد القبيلة :

وكانت على سيد القبيلة واجبات كثيرة ، تتمثل في قيادته لها في الحروب ، واستقبال وفود القبائل ، وعقد الصلح ، وعقد المحالفات ، ونجدة المستغيث ، وحفظ الجوار ، وتحمل أكبر قسط من جرائر القبيلة ودياتها .

وقد ذكر معاوية بن مالك هذه الواجبات ، حين قال (5):
فِيهَا وَنَفَرَ زَبَهَا وَنَسَوْدَ
وَإِذَا تَحْمَلْنَا الْعَشِيرَةَ ثَقَهَا
عطَى العَشِيرَةَ حَقَّهَا وَحَقِيقَهَا
قَمْنَا بِهِ وَإِذَا تَعَوَّذْ نَعَوْذُ

1- انظر : إحسان النص: العصبية القبلية ، ص 71-75

2- الألوسي: بلوغ الأربع، 187/2

3- الأغاني : 76/14

4 - ديوانه : ص 28 .

5- المفضليات : مفضليه رقم 104، ص 355

وصور لقيط بن يعمر الايادي اهم هذه الواجبات ، فقال (1):
وقلدوا أمركم الله دركم رب الذراع بأمر الحرب مضطلاعا

طبقات القبيلة :

والناظر في تكوين القبيلة الاجتماعي يستطيع أن يميز ثلات طبقات اجتماعية (2)، هي : الصرحاء ، والعبيد ، والموالي.

أما الصرحاء فهو أبناءها، ذوو الدم النقي الذي لا تشوبه شائبة، الذين ينتمون جميعاً إلى أب واحد ، والذين تتمثل فيهم العصبية القبلية بأقوى معانيها ، ومنهم تتكون الطبقة الأرستقراطية في القبيلة، ومنهم رياستها، وبيوتات الشرف فيها.

وأما طبقة العبيد فقد كانت تتألف من عنصرين : عنصر عربي، وهم أولئك الأسرى الذين كانوا يقعون في أيدي القبيلة في حروبهما مع القبائل الأخرى، وعنصر غير عربي ، وهم أولئك الرقيق الذين كانوا يجلبون من البلاد المجاورة للجزيرة العربية.

وأما الطبقة الثالثة في المجتمع القبلي ، وهي طبقة الموالي ، فقد كانت تتألف من العتقاء، ومن العرب الأحرار، الذين لجأوا إلى القبيلة من قبائل أخرى، وعاشوا في حمايتها.

العصبية القبلية :

ويعرفها فيليب حتى بأنها "روح العشيرة" ومن شروطها على الفرد الوفاء الذي لا حد له لإخوانه من أبناء العشيرة بشكل يقابل ما نعهده من النزعة الوطنية المتطرفة في النظام السياسي الحديث" (3).

وعرّفها د. شوفي ضيف بأنها"الرباط الذي يوثق الصلة بين أفراد القبيلة"(4). وتقتضي العصبية القبلية أن يكون أفراد القبيلة جميعاً متضامنين فيما يجنيه أحدهم، أو كما يقول المثل العربي "في الجريمة تشتراك العشيرة"(5)، وكان شعارهم الفرد في سبيل القبيلة، والقبيلة في سبيل الفرد، وقد عبر عن هذه العلاقة قريط بن أنيف، شاعر الحماسة ، فقال: (6)

لا يسألون أخاهم حين ينذبهم في النائبات على ما قال برهانا
وقال ودّاك بن ثمّيل المازني:(7)
إذا استجدوا لم يسألوا من دعاهم

لأيّة حربٍ أم بأيّ مكانٍ

الخلع :

1- مختارات ابن الشجري ص

2- د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك ص 103 وما بعدها .

3- فيليب حتى : تاريخ العرب مطول 1/35

4- شوفي ضيف : العصر الجاهلي 57

5- الميداني: مجمع الامثال 2/17

6- ابو تمام : الحماسة ، 1/9

7- المصدر نفسه 1/64

وكان شائعاً أن تخلع القبائل بعض أفرادها، وذلك إذا وجدت أنهم غير جديرين بالانتساب إليها ... ولا تسلك هذا السلوك إلا إذا اضطررت إليه اضطراراً، ورأت إنها لم تعد قادرة على تحمل المسؤولية تجاه الفرد الخليع، وخاصة إذا كانت جرائمة كبيرة، وتخشى أن تخوض بسببيها معارك مع قبائل أخرى، لا طاقة لها بها.

وكانت صورة الخلع تتم بأن تعلن القبيلة ذلك على رؤوس الأشهاد، وتنادي بخلعه في المواسم، وقد يكتبون كتاباً يحفظونه عندهم، أو يعلقونه في مكان عام، ليقف عليه الناس. أمّا ما يقال عند الخلع فقد ورد انهم كانوا يقولون: "إنا خلعن فلاناً فلا نأخذ أحداً بجنائية تجني عليه ، ولا نؤاخذ بجنائياته التي يجنيها".⁽¹⁾

وقد عرض د. يوسف خليف للأسباب التي كانت تدفع القبائل العربية ، عصريّة ، لخلع بعض ابنائها ، وهي:⁽²⁾

أن يقتل أحد أفراد القبيلة فرداً منها، وهنا تجد القبيلة نفسها في موقف حرج، فالقاتل والمقتول من ابنائها، وكل منها حق الحماية والنصرة، وكان سادة القبيلة يقومون بدور الوسيط بين الفريقين، حتى لا يؤدي الأمر إلى انقسام القبيلة على نفسها، فتجمعت جماعة من الرؤساء إلى أولياء أمر المقتول، ويسألونهم العفو، وقبول الديمة، فان أصرروا على الثأر فكانت المشكلة تحل على أحد وجهين : أما أن يقتل القائل بأيدي قومه، وأما أن تخلعه قبيلته.

وقد يحدث أن تتعدد جرائم أحد أفراد القبيلة ، حتى تجد نفسها عاجزة عن نصرته فتضطر إلى التخلص من هذا الفرد، مفضلاً أن تضحي بفرد واحد على أن تضحي بجماعة من أفرادها، مُقْيِّدةً عليه تبعات جرائمه، يتحملها هو وحده.

وقد يحدث أن يسوء سلوك أحد أفراد القبيلة من الناحية الخلقية ، حتى يصبح وجوده بها وصمة في جنبيها، فترى أنها أمام عضو فاسد لا يرجى إصلاحه، فتتبرأ من نسبته إليها، حرضاً على سمعتها، وتخلعه.

الإجارة :

وقد يسعى الخليع أحياناً للالتجاء إلى قبيلة أخرى طلباً لحماتها ، أو العيش في جوارها ، وكان بعض العرب يجرون هؤلاء الخليعاء، ويُفخر بإجارته لهم، لأن ذلك دليل على شرفه ونبله ، فضلاً عن شجاعته وقوته، لما تتطلبه تلك الإجارة من حصانة وحماية تجاه أقوام ، قد يكونون ذوي قوة وعدد ، يطالبون بالخليع لجرائمهم ، وجنائياته عليهم، وبلغ بعض الأشراف الأمر أن يجعل منزلًا خاصاً ، ينزل به أولئك الخليعاء ، فيحضرون في جواره وحمايته، كما كان شأن الزبير بن عبد المطلب ، الذي كان له بمكة مكانٌ خاصٌ ينزل فيه الخليعاء.⁽³⁾

وقد ظهر من الخليعاء شعراء عبروا عن صدق مشاعرهم وعظم امتنانهم تجاه منْ أجاروهم، بعد طرد قبائلهم لهم. وكان من ابرز هؤلاء قيس بن الحذادية الذي تبرأ منه

1- انظر : لسان العرب ونَاجَ الْعَرَوْسَ ، مادة خلع.

2- د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك، ص 91-92

3- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، تحقيق احمد محمد شاكر، 1/388

قُومُهُ بَنُو خَزَاعَةُ، وَأَشْهَرُوا خَلْعَهُ بِسُوقِ عَكَاظٍ ، فَلَجَأَ إِلَى جَوَارِ بْنِ عَدِيِّ بْنِ عُمَرَ ، فَأَوْوَهُ ، وَأَحْسَنُوا إِلَيْهِ ، وَقَالَ يَمْدُحُهُمْ ، وَاصْفَاً مَرْوِعَتَهُمْ ، وَشَجَاعَتَهُمْ ، وَمَقَامَهُمْ لَدِيهِ ، مَقَامُ الْأَهْلِ وَالْأَقْرَبَاءِ (1) :

رَجَالًا حَمْوَهَ آلَ عَمْرُو بْنَ خَالِدٍ
وَهُمْتَهُ فِي الغَزْوَهُ كَسْبُ الْمَزاَوِدِ
وَأَبْنَاهُهَا فِي كُلِّ أَرْوَعِ مَاجَدِ
عَظَامِ مَقْيِلِ الْهَامِ شِعْرُ السَّوَادِ
وَثَرَوْتَهُمْ وَالنَّصْرُ غَيْرُ الْمَحَارِدِ

جَزِيَ اللَّهُ خَيْرًا عَنْ خَلِيلِ مَطْرَدِ
فَلَيْسَ كَمَنْ يَغْزُو الصَّدِيقَ بَنُوكِهِ
وَقَدْ حَدَبَتْ عَمْرُو عَلَيْهِ
مَصَالِيَّثُ يَوْمِ الرَّوْعِ كَسْبُهُمُ الْعَلَا
أُولَئِكَ إِخْرَانِي وَجَلَ عَشِيرَتِي

أَمَا إِذَا اسْتَمَرَ الْخَلِيلُ بِإِرْتَكَابِ الْجَنَاحَاتِ فِي جَوَارِ الْقَوْمِ الَّذِينَ التَّجَأُ إِلَيْهِمْ ، فَانْهُمْ عَذَّذُ
يَخْلُعُونَهُ هُمْ أَيْضًا ، وَيَرْفَعُونَعَنْهُ حَمَائِتَهُمْ . وَيَعْلَمُونَ ذَلِكَ عَلَى الْمَلَأِ ، وَمَصْدَاقُ ذَلِكَ
الْبَرَاضِ بْنُ رَافِعَ الْكَنَانِيِّ ، كَانَ قَدْ خَلَعَهُ قَوْمَهُ وَنَبَذَهُ ، فَالتَّجَأَ إِلَى جَوَارِ بْنِ سَهْمٍ ، "فَعَدَا
عَلَى رَجُلٍ مِنْ هَذِيلٍ فَقَتَلَهُ . فَجَاءَ بْنُ هَذِيلٍ إِلَى بْنِ سَهْمٍ يَطْلُبُونَهُ بَدْ صَاحِبِهِمْ ، فَقَالَ بْنُ سَهْمٍ
سَهْمٌ : قَدْ خَلَعْنَا وَتَبَرَّأْنَا مِنْ جَرَائِهِ . فَقَالَتْ هَذِيلٌ : مَنْ يَعْرِفُ هَذَا ؟ قَالَ الْعَاصِ بْنُ وَائِلَ
: أَنَا خَلَعْتُهُ كَمَا يَخْلُعُ الْكَلْبُ ، فَسَكَتَ الْهَذَلِيُّونَ (2) .

أَمَا مَوْقِفُ الشَّاعِرِ مِنْ قَبِيلَتِهِ بَعْدَ خَلْعَهَا لَهُ ، فَانْهُ كَانَ مَوْقِفُ النَّاقِمِ الَّذِي يَتَحِينُ فَرْصَةً
يُنْقَضُّ فِيهَا لِلثَّارِ مِنْهَا ، وَالانتِقامُ لِمَا لَحِقَهُ مِنْ ضَيْمٍ وَإِهْانَةٍ .
وَقُلْ أَنْ نَجَدَ مِنَ الشَّعْرَاءِ الْخَلِعَاءَ مَنْ كَانَ يَبْقَى مُحِبًاً لِقَوْمِهِ ، مِيَالًا إِلَيْهِمْ ، عَلَى الرَّغْمِ مِنْ
طَرَدِهِمْ لَهُ ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ لِدِي السَّلِيكِ بْنِ السَّلِكَةِ ، الَّذِي كَانَ يَتَجَنَّبُ الإِغْارَةَ عَلَى قَبِيلَتِهِ ،
بَلْ كَانَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ ، يَحْذِرُهَا مِنْ إِغْارَةِ الْأَعْدَاءِ عَلَيْهَا (3) .

1- ابو الفرج الاصفهاني : الاغاني ، 14/135.

2- ابن حبيب : المحرر ، 195

3 - البغدادي : خزانة الأدب 3/346

مكانة المرأة :

نهضت المرأة العربية بدور هام في الحياة الاجتماعية في العصر الجاهلي ، في السلم وال الحرب، وحظيت بمكانة مرموقة في المجتمع العربي ، عصرئذ، بحيث لم يجد بعض الملوك بأيّاً من الانتساب إلى أمهاتهم، مثل : المنذر بن ماء السماء ، ملك الحيرة(512-554م) وماء السماء لقب أمه، مارية بنت عوف، لقبت به لجمالها⁽¹⁾. وعمرو بن المنذر المعروف بعمرو بن هند ، نسبة إلى أمه هند بنت عمرو بن حجر⁽²⁾. ونسب ولد الياس بن مضر إلى أمهم خنده⁽³⁾، ونسب بنو عمرو بن أدد بن طابخة إلى أمهم مزينة بنت كلب بن وبرة⁽⁴⁾ .

وليس أدل على منزلة المرأة كأم من افتخار أبنائها بنسبهم إليها، وزهوة بحريتها، فهذا القتال الكلابي يفخر بأمه الحرة، فيقول(5) :

لقد ولدتني حرّة ربّعية
ووالشّنفري يعتز بأمه الحرّة، فيقول (6) :

أنا ابن خيار الحجر بيّتاً ومنصباً
وأمّي ابنة الأحرار لو تعرفيّنها

ومن الدلائل على قدرها في النفوس أنها كانت تغير الهارب وتحميءه. فقد روي أن خماعة بنت عوف بن مسلم الشيباني أجارت مروان بن زنباع العبسي، وكذلك فكيهة بنت قتادة بن مشنوه، أحد بنى قيس بن ثعلبة، أجارت السليمي بن السلامة⁽⁷⁾، وروي عن عن ابن مسعود بن مالك الثقفي انه جعل خباء زوجته سبعة بنت عبد شمس حرماً في حرب الفجار، بحيث أمن فيه مَنْ دخله من أعدائه من قريش وأصبح سالماً⁽⁸⁾.

وقد نبغ أكثر من واحدة منها في الحرب، والسياسة ، والأدب، والشعر، والتجارة ، كجليلة، أخت جساس ، التي يلفت النظر شعرها الرائع المؤثر ، وكأم جندب، التي احتمم إليها أمير الشعر في عهدها : امرؤ القيس ، وعلقة الفحل ، وكالخنساء، التي امتازت بالرثاء فأبدعت ومنهن من اشتهرن بالحكمة، وحدة الذكاء ، وقوة العقل ، وسداد الرأي ، ومنهن ابنة الحسن الایاديّة (٩)، وخصلية بنت عامر بن الظرب العدواني، والحرماء بنت ضمرة النهشلي، وحذام بنت الريان ، التي قيل فيها (١٠):

**إذا قالت حذام فصـٰدقـٰوها
دورها في الحرب :**

- 1- تاريخ الطبرى ، ج 1، قسم 2، ص 900
 - 2- انظر ابن حبيب : من نسب إلى امه من الشعراء
 - 3- المبرد: نسب عدنان وقططان، ص 1، وابن خلدون: المقدمة، 128/2
 - 4- العقد الفريد: 338/3. وابن خلدون : المقدمة ، 135/2
 - 5- الاغانى : 38/20
 - 6- نفسه: 205/21
 - 7- الاغانى : 137/18 (ساسي)
 - 8- المرجع السابق : 74/22
 - 9- جورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية 31/1
 - 10- تاريخ اليعقوبي: 1/258

ولم تكن المرأة العربية في العصر الجاهلي بمنأى عن أحداث مجتمعها، ولم تكن أقل حماساً من الرجل ، إذا دقت طبول الحرب في القبيلة معلنة بدء غارة لها على قوم، أو شنت عليها الغارة، فقد كانت المرأة تشارك الرجل في الحرب ، فتمضي مع المقاتلين في المؤخرة، تتشد الأهازيج وتضرب بالدفوف، ويبثن في القوم الأناشيد الحماسية (1)

(1) قال عمرو بن كلثوم (2)

نَحَذِّرُ أَنْ تُفَارِقَ أَوْ تَهُونَا
خَلَطْنَ بِمِسْمَ حَسَبًا وَدِينَا
إِذَا لَاقُوا فَوَارَسَ مُعْلِمِنَا
لَشِيءٍ بَعْدَهُنَّ فَلَا بَقِينَا
وَإِذَا قُتِلَ فَارِسٌ نَدِيْنَهُ نَدِيْنَ حَارًا ، وَحَضَضَنَ عَلَى الْأَخْذِ بِثَارِهِ، مِنْ خَلَالِ أَنَاشِيدِ الانتقام
التي يسمعها المرء في شعر الخنساء (3) ، وكبشة أخت عمرو بن معد يكرب (4)،
وكرمة بنت ضلع، وهند بنت حذيفة الفزارية، وأم قرفه زوجة حذيفة بن بدر.

ونسمع صوتاً خفياً ، تبته بعض النساء ، في إحلال السلام بين المتحاربين وخاصة إذا كانوا ذوي رحم ، فقد أسهمت بيهسة بنت أوس في إطفاء الحرب التي نشببت بين عبس وذبيان ، وكان أبوها قد زوجها من الحارث بن عوف المري ، وأراد أن يدخل عليها ، فقالت : أتفرغ لنكاح النساء ، والعرب تقتل بعضها؟ قلت : والخطاب لزوجها) فيكون ماذا ؟ قالت : أخرج إلى هؤلاء القوم ، فأصلح بينهم، ثم ارجع إلى أهل بيتك فلن يفوتوك... قال: فخرجنا حتى أتينا القوم ، فمشينا فيما بينهم بالصلح ، فاصطلحوا....

حقوقها :

وقد كان من حقها أن تراقب أفعال الرجل ، وتسأله عن أعماله ، وتناقش تصرفاته وتدعوه إلى الاستقامة ، فالزوجة مثلًا كانت ترى أن زوجها ، وما ملك ، إنما يعود خيره وشره عليها، فهي لذلك تحرص على ماله(5)، وترى من حقها أن تلومه إن أسرف فتدعوه إلى الاعتدال ، وقد تقسو ، أو تعنف في لومها، كما صور ذلك نبيه بـ الحاج ، بقوله : (6)

تَلَكَ عَرْسَايِ تَنْطَقَةِ ابْهَرِ وَتَقْوَلَانَ قَوْلَ زُورِ وَهَثَرِ

فقد كانت ترى من حقها أن تلح على زوجها في التدبير والقصد عند الإنفاق(7).

كما كانت ترى من حقها ، أيضاً، أن تراقب سلامته(1)، وتحذر مغبة المخاطر(2).

1- شوقي ضيف : العصر الجاهلي 73

2- المعلقات : معلقة عمرو بن كلثوم ، الأبيات 89-83

3- ديوان الخنساء : القصائد ذات الارقام 1,2,3,4,5,8,9

4- أنظر : نوري حموري القيسي : الفروسية في الشعر الجاهلي 67 وما بعدها .

5- أحمد الحوفي: المرأة في الشعر الجاهلي، 326 وما بعدها

6- الغندجاني: فرحة الاديب ، ص133- وقصائد جاهلية نادرة ص169.

7- المفضليات : المفضلة رقم 20،ال أبيات 21-20

حاتم الطائي : ديوانه ، ص 74

ضمرة بن ضمرة الهشلي : 136.

وكان للمرأة حق التملّك ، فجليلة بنت المهلل كان لها إبل يرعاها زيد الخيل(3)، وكانت خديجة بنت خويلد تاجرة ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم (4)، وهند زوجة أبي سفيان كانت ترسل بتجارتها إلى قبيلة كلب في الشام (5).

الأسرة :

لقد تمنت المرأة باحترام الرجل في العصر الجاهلي، فلم تكن تزوج إلا بعد أخذ موافقها، وكان لها الحق في رفض من لا تريده من الرجال، كما حصل للخنساء حين رفضت دريد بن الصمة (6)، وكما وقع لهند بنت عتبة، فقد جاءها أبوها يشاورها في رجلين من قومها، رغبا في الزواج منها، فقالت : صفهمما لي... فوق ا اختيارها على واحد منها ، فتزوجته(7).

ولم يكن العربي في الجاهلية يكتفي بزوجة واحدة (8)، إما بقصد إعالتهم ، أو لغرض سياسي، إذا كان رئيساً بين قومه، بأن يُصْنَهُ إلى عدد من القبائل، حتى يرتبط معها برابطة المصاورة ، بقصد إنجاب عدد كبير من المقاتلة لجماعته التي ينتمي إليها(9)، وكان الزواج أنواعاً :

زواج الصداق : ويتم بأن يخطب الرجل من الرجل ابنته، فيقدم لها مهرأ(10) من الإبل أو المال "أي ما يملك"(11)

زواج المتعة : وهو تزويج المرأة إلى أجل ، فإذا انقضى افترقت عنه، وفي هذا الزواج يقدم الزوج صداقاً معيناً، ويكون لأولاده حق الانتساب إليه، وحق الإرث. وقد نهى الرسول - ﷺ - عن زواج المتعة (12).

زواج السبي : ويقضي بأن يتزوج الرجل المحارب من إحدى النساء اللاتي وقعن سبياً، ولا يشترط في هذا الزواج أن يدفع الزوج صداقاً.

زواج الإمام : من حق العربي أن يتزوج من أمته، فإذا أُنجب منها أبناء فلا يحق لهم أن يلحقوا بنسبه، بل يظلو عبيداً له. وقد يعتقهم إذا رغب في ذلك.

زواج المفت : وهو أن يتزوج ابن امرأة أبيه ، وهو أشنع ما كانوا يفعلون، وكان الرجل إذا مات قام أكبر ولده ، فألقى ثوبه على امرأة أبيه، فورث نكاحها وقد فرق

1- الاصمعيات : الاصمعية ، رقم 25.

2- قيس بن الخطيم : ديوانه ، ق.8.

3- الاغاني (طبعة ساسي) 50/16

4- السيرة النبوية: 203/1

5- دائرة المعارف الإسلامية في مادة مكة.

6- الفالي : الامالي ، 161/2

7- نفسه : 104/2

8- د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، 53/1

9- الجاحظ : الحيوان ، 108/1

10- النويري : نهاية الارب 120/3

11- صحيح بخاري 21/7 وجواب علي : المفصل 254/5

12- د. أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي : ص 168

الإسلام بين رجال ونساء آبائهم، منهم تميم بن مقبل، وكان تحته امرأة أبيه دهماء(1)، وظل يتغزل بها بعد ذلك (2).

زواج الاستبضاع : وقد دفع حبّ الولد ببعض الرجال أن يلقي الواحد منهم بزوجته بين ذراعيٍّ غيره ، لتنازل منه الولد(3) .

زواج الشّغار : وهو أن يتزوج شخص أخت صديق له على أن يزوجه أخته (4) .

1- ابن حبيب : المحرر ، ص 325-326

2- ديوان ابن مقبل ، ص 194 ، القصيدة رقم 35

3- ابن منظور : لسان العرب ، مادة بضع

4- د . شوقي صيف : العصر الجاهلي، ص 75، وعلي المهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، 162 .

الطلاق :

وكان العرب في الجاهلية يطلقون نساءهم ثلاثة على التفرقة (1)، أو على الخلع، أي تخلع منه بمال، فإذا طلقت المرأة، أو مات زوجها كان عليها أن تقضي عدة حول لا تتزوج خالله، حتى يتضح إذا ما كانت قد حملت من زوجها ، أو لم تحمل ،حفاظاً على الأنساب. وقد أبطل الإسلام ذلك، فجعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً (2).

أسبابه :

1- الفقر :

فأبو قردة الطائي ضاقت زوجه بفقرة ، وسألته الطلاق والفرقان، وطلبته إليه أن يشد الرحال إلى أبي قابوس الملك، لعله يصيب عنده غنى وثروة، ثم أخذت تعرض مفاتنها ليزداد بها تعلاقاً، وليسجّب لمطلبها، فقال مصورة ذلك (3) :

كَبِيشَةٌ عِرْسِيٌ تَمَنَّى الطَّلاقَا
وَتَسْأَلَتِي بَعْدَ هَدَءِ فِرَاقَا
كَشْحَانِيَّاً وَفِخْذَانِيَّاً وَسَاقَا
وَقَامَتْ تُرِيكَ غَدَاءَ الرَّحِيلِ
ثُوْسِعَهُ زَنْبِقَأَأَوْ خَلَاقَا
وَمَنْسَدِلَا كَمْثَانِيَ الْجِبَالِ
جَادَ عَلَيْهِ الرَّبِيعُ الْبِرَاقَا
وَعَذْبَ المَدَافِقَةِ كَالْأَقْحَوَانِ
وكان تحت زيد بن عمرو بن نفيل امرأتان ، فقد سألهما الطلاق لفقره، فقال مصورة فقره ، وطالباً من امرأتهما أن تتأنيا لعله يكثر ماله (4) :

مَ عَلَى عَمِّ قول زورٍ وَهُجْرٍ
أَنْ عَرْسِي تَنْطَقَانْ لِي اللُّؤْ
قَلْ مَالِي قَدْ جَثَمَانِي بِنَكْ
سَأْلَتَانِي الطَّلاقَ إِذْ رَأَتَانِي
وَيَخْلُى مِنْ الْمَغَارِمِ ظَهَرِي
فَلَعْلِي أَنْ يَكْثُرَ الْمَالُ عَنِّي
وَمَنْاصِيفَ مِنْ وَلَائِدِ عَشْرٍ
وَبِرِّي أَعْبُدُ لَنَا وَإِمَاءَ

2- الفقر وكبر السن :

فهذا عبيد بن الأبرص يعتذر زوجه، بسبب جفائها ، ويطلب إليها أن تكون أكثر حياءً ووفاءً لزوجها ، وأن تترك لوم العاذلين، يقول (5) :

أَلَبِينِ تَرِيدُ أَمْ لَدَلَالٍ
تَلَكْ عَرْسِي تَرُومَ قِدْمَا زِيَالِي
مَعَنَا بِالرَّجَاءِ وَالتَّأْمَالِ
فَاتَّرْكِي مَطْ حَاجِنِيَّ وَعِيشِي
بَيْنَ أَنْ تَعْطُفِي صُدُورَ الْجَمَالِ
أَوْ يَكُنْ طِبْكَ الزِّيَالَ فَانَ الـ

1- د. احمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي ص 258

2- نفسه ، وعلي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، ص 130

3- د. بحيي الجوري : قصائد جاهلية نادرة ص 169

الكشح : ما بين الخاصرة والضلوع . مسدك: شعرأ مرخى .

الزنبق : زهرة . الخلوق والخلق : ضرب من الطيب .

طلتي : زوجتي . قابوس : أبو قابوس الملك

1- الغندجاني : فرحة الاديب، ص 133

5- ديوانه : ص 113-114

قل مالي وضن عني الموالي
لا يؤاتي أمثالها أمثالي

زعمت أني كبرت وأني
وصحا باطلي وأصبحت كهلاً

3- تطاول الزوجة على أقارب زوجها :
فقد طلق دريد بن الصمة زوجة ، لأنها لامته على جزعه على أخيه عبد الله ، وصغرت
شأنه وشتمته فقال (1) :

تقديم بعض لحمي قبل لحمي
فليس فؤاد شانه بحمض
وأن يملكون إبرامي ونقضي

أعبد الله إن سبتك عرسني
إذا عرس امرئ شتمت أخيه
معاذ الله أن يشتمن رهطي

4- الزواج البائس :
وفي أبيات لعباء بن أرقم نرى صورة لحياة زوجية لم تكن سعيدة إذ يقول(2) :
الآن تلّكما عرسني تصدّ بوجهها
في يوماً توافقنا بوجه مقسم
ويوماً ترید مالنا مع مالها
نبيل كأننا في خصوم عراة
فقلت لها إن لا تناهي فإذني .
وتزعم في جاراتها أن من ظلم
كأن ظبية تعطوا إلى ناصر السلم
فإن لم نتلّها لم تُنمنا ولم تتم
وتسمع جاراتي التالية والقسم
أخو النكر حتى تقرعي السن من ثدم .

فزووجه متقلبة في معاملتها له ، في يوماً تقبل عليه بوجه باسم وجبين مشرق ، ويوماً تأتي
عابسة الوجه ، مشتبطة في طلباتها المالية ، فان لم يعطها ما تطلب انقلبت إلى ثورة
وهياج وصراخ وعراك ، فتُطير النوم عنه وعنها ، ويملا ضجيجها بيوت الجارات ،
فحذرها في صرامة بأنها إن لم تنته عما هي فيه فسوف تندم ندامة لا تفارقها .
أما جران العود فقد كان تحته ضرтан ، فلنستمع إلى ما لقيه منها (3) :

وعما ألاقي منها متزحزح
مُخدش ما بين التراقي مجرح
بدا كاهل منها ورأس صممح
وعيني من نحو الهراءة تلمح
إلى الماء مغشيا على أرتح
وبينا بذم فالتعزب أروح
وما كنت ألقى من رزينة أبرح
وتغدو غدو الذنب والبوم يضبع

لقد كان لي عن ضررتين عدمتنى
هي الغول والسعللة حلقي منها
إذا ما انتصينا فانتزعت خمارها
تداورني في البيت حتى تكبي
وقد علمتني الوقذ ثم تجرنى
خذنا نصف مالي واتركا لي نصفه
ألاقي الخنا والبزح من أم حازم
تصبر عينيها وتعصب رأسها

1- الأغاني : 5/9

2- الأصميات : ص 157-158

وجه مقسم : جميل ، تعطو : تتناول . السلم : شجر ، واحدته سلمة ، العرامنة : الشراسة .

3- ديوانه : ص 39 وما بعدها .

شعاليٍ لم يمشط ولا هو يُسْرَح
 تشوّل بآذنابِ قصار وترمحُ
 أزحُّ كطنبوب النعامة ترشحُ
 سبابُ وقدفُ بالحجارة مطرحُ
 حجارتها حقاً ولا أتمزحُ
 فكان ابن رُوقٍ بين ثوبيةٍ يسلحُ
 كصوت علاة القين صلب صميدحُ

تريٌ رأسها في كلّ مبديٍ ومحضر
 وان سرتـه كان مثل عقاربٍ
 لها مثل أظفار العقاب ومنسـمٍ
 ولما التقينا غدوة طال بيننا
 أجيـليـإليـهاـ منـبعـيـدـ وأـنـقـيـ
 أـتـانـاـ ابنـ رـوـقـ يـبـتـغـيـ اللهـ عـنـدـناـ
 وـانـقـذـنـيـ منهاـ ابنـ رـوـقـ وـصـوـثـهاـ

فهو يصف في هذه القصيدة ما كان يلقاه في زواجه من متابـ، وبخاصة إذ تزوج امرأة ثانية، بعد أن أغـرم بـجمالـهاـ، ودفع لأـهـلـهاـ مـهـراـ كـبـيرـاـ، وتـبيـنـ لهـ أنهـ قدـ خـدـعـ فيـ أمرـهاـ، بعدـ أنـ ظـهـرـتـ عـلـىـ حـقـيقـتـهاـ دونـ تـبـرـجـ. ثمـ يـشـرحـ أحـاسـيـسـهـ معـ زـوـجـتـهـ ، وـماـ قـاسـاهـ منـ الضـربـ حتـىـ الإـغـماءـ، وـمـنـ الشـائـمـ تـلـقـىـ عـلـيـهـ كـلـ صـبـاحـ، حتـىـ انهـ فـضـلـ أنـ يـطـلـقـهـماـ ، وـلـوـ أـخـذـاـ نـصـفـ مـالـهـ ، فـالـبـقـاءـ دونـ زـوـاجـ أـرـوـخـ عـلـىـ النـفـسـ.

* الواد :

وقد اختلف الباحثون في توضيح أسباب الواد، ونلخص هذه الأسباب فيما يلي:

1- أرجع بعضهم سبب الواد إلى شعور العربي في الجاهلية بالغيرة، والخوف من العار الذي تجلبه بناته إذا كبرـنـ وـتـعـرـضـنـ للـسـبـيـ.

وقد وـصـمـتـ بعضـ المصـادـرـ قـبـيلـةـ تمـيمـ بهـذـهـ العـادـةـ القـبـيـحةـ ، وـذـهـبـ المـبـرـدـ إـلـىـ أنـ الوـادـ "إنـماـ كانـ فـيـ بـنـيـ تمـيمـ" (1) وـأـنـ أـولـ منـ سـنـ هـذـهـ السـلـتـةـ السـيـئـةـ قـيسـ بنـ عـاصـمـ (2) وـقـدـ تـرـدـتـ فـيـ الـأـخـذـ بـهـذـهـ الـأـقوـالـ ، وـبـرـأـتـ قـيـساـ مـاـ الصـقـ (3) بـهـ وـأـنـ لـمـ يـكـنـ أـنـ يـكـونـ أـولـ وـائـدـ لـبـنـاتـهـ ، لـأـنـهـ أـدـرـكـ إـلـاسـلـمـ وـأـسـلـمـ ، فـلـيـسـ مـنـ الـمـنـطـقـيـ أـنـ يـنـشـأـ الوـادـ قـبـيلـ إـلـاسـلـمـ بـسـنـوـاتـ وـيـشـيعـ فـيـ بـعـضـ الـبـطـوـنـ بـهـذـهـ السـرـعـةـ الزـمـنـيـةـ (4). وـذـهـبـ آخـرـونـ إـلـىـ أنـ الوـادـ قدـ نـشـأـ ، أـولـ مـاـ نـشـأـ ، فـيـ رـبـيعـةـ ثـمـ شـاعـ ، فـيـماـ بـعـدـ ، بـيـنـ الـعـرـبـ (5).

2- ورد في القرآن الكريم أن بعضهم كان يـئـدـ بـنـاتـهـ خـشـيـةـ الفـقـرـ وـالـإـمـلـاقـ، فـيـقـولـ سـبـحانـهـ وـتـعـالـىـ: {وـلـاـ تـقـتـلـواـ أـلـاـدـكـمـ خـشـيـةـ إـمـلـاقـ نـحـنـ نـرـزـقـهـمـ وـإـيـاـكـمـ} ، إـنـ قـتـلـمـ كـانـ خـطـئـاـ كـبـيرـاـ (6) وـقـالـ تـعـالـىـ: {وـلـاـ تـقـتـلـواـ أـلـاـدـكـمـ مـنـ إـمـلـاقـ نـحـنـ نـرـزـقـهـمـ وـإـيـاـهـمـ} (7) وـتـقـدـيمـ

* وـأـدـ بـنـتـهـ يـئـدـهـاـ وـأـدـاـ: دـفـنـهـاـ فـيـ الـقـبـرـ وـهـيـ حـيـةـ
لـسـانـ الـعـرـبـ : مـادـةـ "وـأـدـ"

1- المـبـرـدـ: الـكـامـلـ فـيـ الـلـغـةـ وـالـأـدـبـ ، 278/1

2- نفسـهـ: 279/1

3- رسـالـتـيـ: "حـرـكـةـ الشـعـرـ فـيـ بـنـيـ نـهـشـلـ مـنـ تـمـيمـ فـيـ الـعـصـرـ الـجـاهـلـيـ" صـ 16 وـمـاـ بـعـدـهاـ

4- أـحـمـدـ الـحـوـفـيـ: الـمـرـأـةـ فـيـ الشـعـرـ الـجـاهـلـيـ ، صـ 235

5- الـأـلـوـسـيـ: بـلـوغـ الـأـرـبـ ، 43/3

6- سـوـرـةـ الـإـسـرـاءـ: الـآـيـةـ 31ـ .

7- سـوـرـةـ الـأـنـعـامـ: الـآـيـةـ 151ـ .

8- ابنـ كـثـيرـ: تـقـسـيـرـ الـقـرـآنـ الـكـرـيمـ ، 188/2

رزق الآباء على الأبناء في هذه الآية ، يتضمن توقع الفقر ، والخوف منه ، والمقصود بهؤلاء الآباء الأغنياء منهم . أما تقديم رزق الأبناء على الآباء في الآية السابقة ، فيشير إلى حدوث فقر ، والمقصود بأولئك الآباء الفقراء منهم بالفعل (8) .

فالخوف من توقع الفقر عند الأغنياء ، أو الرغبة في التخفيف من الفقر عند الفقراء ، كان دافعاً إلى الوأد ، لأن الظرف البيئي كان يتنسم بالشح وكثيراً ما قاسى ذلك المجتمع مرارة الجوع للجفاف والجدب .

3- أرجع بعضهم سبب الوأد إلى صفات في الموعدة ، لأن يتشاءم منها أهلها ، فكان بعضهم يئد من البنات من كانت زرقاء ، أو شيماء ، أو كسحاء (1) .

4- وأرجع بعضهم الوأد لأسباب دينية ، كإظهار الشكر لله على نعمة من النعم ، ويدركون أن ذلك كان أثراً من آثار تقاليد ، وشعائر دينية ، كانت معروفة تقرباً إلى الآلهة ، كما كان يفعل الفراعنة مثلاً، فيختارون في كل عام فتاة جميلة يرمونها في النيل تقرباً للإله "جيبي" . وكانت هذه العادة موجودة عند اليونان . والرومانيون ، وشعوب أخرى (2) .

5- وأرجع بعض الباحثين الوأد إلى عوامل اجتماعية ، منها ما له علاقة بصفة الطفل ، إذا ولد ضعيفاً ، أو مشوهاً ، أو إذا أصيب بمرض لا يرجى منه الشفاء ، بحيث يصبح عالة على أهله ، ومنها ما له علاقة بكثرة عدد البنات (3) .

ومما لا ريب فيه أن العامل الاقتصادي هو أقوى هذه العوامل جميماً، وقد أشار القرآن الكريم إلى أثر الفقر ، أو أثر توقع حدوثه ، في إقبال بعض الناس على وأد بناتهم . وقد نهى الله - سبحانه وتعالى - عن ذلك ، لأن الله يرزق الأبناء ، والأباء كما يرزق الآباء والأبناء .

ومما لا شك فيه أيضاً أن هذه الجريمة الأخلاقية ، لم تكن تُقدم على ارتكابها كل القبائل والبطون ، والأفخاذ ، ولو كان ذلك كذلك - ولا أظنه كذلك - لأنفرض الجنس العربي على مدى جيل ، أو جيلين ، أو ثلاثة أجيال على أبعد تقدير . يبدو أن هذه الآفة الاجتماعية كانت تُقدم عليها بعض الأسر الضعيفة والفقيرة .

ومع ذلك ، فقد كان هناك عقلاً ، يسعون إلى منع وقوع هذه الجريمة ، منهم زيد بن عمرو بن نفيل القرشي ، ويقال : إنه أحيا ستاً وتسعين موعدة (4) . وصعصعة بن ناجية ، جد الفرزدق أنقذ ثمانين ومائتي موعدة . اشتري كل واحدة بناقتين عشرتين (5) وجمل مما دفع الفرزدق إلى الفخر بجده ، وسمّاه محبي الوليـد ومما قاله (6) :

وَجَدِيُّ الَّذِي مَنَعَ الْوَائِدَاتِ

وَأَحْيَا الْوَلَيْدَ فَلَمْ يَوَدِ

1- الألوسي : بلوغ الأربع ، 43/3 .

2- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، 302/5 ، وعلي الهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، 227 .

3- أحمد الحوفي : المرأة في الشعر الجاهلي 161 والهاشمي : المرأة في الشعر الجاهلي ، 228 .

4- الألوسي : بلوغ الأربع ، 45/3 .

5- التویری : نهاية الأربع / 127/3 .

2- ابن حبيب : المحرر ص 141 .

العلاقات القبلية

أولاً - العلاقات الحربية :

دوافع الحرب في العصر الجاهلي :

هناك عوامل كثيرة جعلت الحرب ظاهرة شبه مستمرة طوال العصر الجاهلي منها:

1- طبيعة الظرف الصحراوي الشحيم، فإن ضيق أسباب الحياة في الجزيرة العربية أوجد حركة مستمرة نحو الماء والمراعي. فقد كان التسابق نحوهما سبباً في قيام حروب بين المتسابقين، أو بين الواقفين والنازلين بهذه الموضع من قبلهم.

والحروب التي دارت بين بكر وتميم ، وبلغت نحو خمسين يوماً، كان سببها الصراع على أسباب الحياة ، فقد كانت هاتان القبيلتان متجلورتين في منازلهما ومياههما، وكانت أرض تميم أكثر خصباً ، فكانت بكر تنتفع أرض تميم، وترعى بها إذا أجدبوا، فإذا أرادوا الرجوع، لم يجدوا عورة بصيونها، ولا شيئاً يظفرون به إلا اكتسحوه"(1). وكان للفرس دور كبير في تأجيج الصراع بينهما.(2)

2- الرغبة في السيطرة والسيادة ، وبعض القبائل كانت ترى الحرب أمراً طبيعياً لتسود، وتسيطر، وتستأثر بالرئاسة والسؤدد، كالحرب التي دارت في يثرب بين الأوس والخزرج ، وكالحرب التي دارت بينبني يربوع من تميم والمناذرة ، بسبب رغبة المناذرة في تحويل الردافة عنهم، وعرف هذا اليوم يوم طخفة.

3- الرغبة في التخلص من حكم أجنبي ، كالحرب التي قامت بين ربيعة واليمن، وكانت ربيعة تهدف إلى التحرر من طاعة اليمن. ففي يوم خراز" توحدت كلمة الشماليين ، وكانت مظهراً من مظاهر الاتجاه الشعوري في أمة حاجتها الأحداث إلى طلب وحدة كبرى لمقاومة شرّ أحاط بها . واستجابة لوازع فطري إلى رد خطر ماحق ، ومقاومة عدوّ بطش بهم، وفرقهم، وأدّلهم.... وكان انتصار هذا الفريق من عرب الشمال باعثاً لهم على العمل للاحتفاظ بثمراته، فزادهم تكتلاً حول كلّيـب . ورأى كلّيـب أن ينتهز هذه الفرصة ، فيخلق من هذه القبائل أمة واحدة. فأخذت هذه الوحدة تحت قيادته مظهراً استقلالياً قوياً.(3)

وفي هذا اليوم ، قال عمرو بن كلثوم (4) :

ونحن غادة أوفد في خرازٍ
رفدنا فوق رفد الرّافدينَا

4- البنية الاجتماعية القائمة على آصرة الدّم، ولها السبب قضى سكان الجزيرة العربية حياتهم، يحارب بعضهم بعضاً، منشقين على أنفسهم.

5- الاستجابة لما تتطلبه التبعية للروم أو الفرس، مثل يوم عين أباع، ويوم حليمة.

1- ابن الأثير : الكامل في التاريخ، 694/1

2- دائرة المعارف الإسلامية : مادة تميم.

3- د. نجيب البهبيتي : تاريخ الشعر العربي ، ص 29

4- معلقه : البيت 60

6- أسبابٌ نفسيةٌ نابعةٌ من الرغبة في الدفاع عن الكرم والشرف ، أو بسبب اعتداء على ضيف أو حليف ، أو بسبب إهانة (1) .

7- عدم وجود سلطة مركبة عامة يخضع لها العرب جميعاً ، فعدم وجود حكومة عليا تتولى شؤون البلاد كلّها ، وتشييع العدل بين الناس على السواء ، وتنتصف للمظلوم من الظالم ، وتأخذ على يد المجرم والمسيء ، هو العامل الأساسي في حدوث المنازعات ، وانتشار الفوضى ، وقيام الحروب (2) .

8- ويشير البهبيتي بأصابع الاتهام إلى ملوك الحيرة ، " الذين كانوا وراء كلّ خلاف يقع بين الناس في تلك الفترة ، لا يفلت من ذلك يوم واحد من أيام العرب قبل الإسلام . فالقبائل تلتقي وتتفرق في هذا السبيل ، والدماء تجري ، والموت يتتابع الناس ابتلاءً . كلّ ذلك تدفع إليه سياسة التفرقة التي كان يركبها إذ ذاك هؤلاء الملوك (3)" .

9- وقوع الجزيرة في مركز طرق التجارة بين ثلاث إمبراطوريات ، يطمح كلّ منها في السيطرة على هذه الأرض من خلال إذكاء عوامل الفرقة ، والتشتت بين قبائلها ، بصورة تشغلهن عن المواجهة الموحدة في أكثر الأحيان (4) .

ولقد اعتاد العرب والمؤرخون أن يسمّوا الحروب التي وقعت بين العرب " أيام العرب " . قال ابن السكيت : " والعرب تقول الأيام بمعنى الواقع ... وإنما خصّوا الأيام دون ذكر الليلي ، لأن حروبهم كانت نهاراً (5) .

ونقصد أيام العرب تلك الواقع والحروب التي وقعت بين العرب أنفسهم ، وبينهم وبين الأمم الأخرى ، والتي كانت مظهراً من مظاهر الكراهة والخلق العربي لما ظهر خلالها من تقاليدٍ ومُثُلٍ كانت صفةً لازمةً للعربي على مر العصور ، من وفاة بالعهد ، وانتصار للمظلوم ، وحماية للجار ، ودفاع عن المحرمات ، وإجارة للمستجير ...

وكان اليوم يسمى غالباً باسم المكان الذي حدث فيه الموقعة، كيوم طخة، ويوم أوارة ، وإنما باسم ماء قريب من مكان الموقعة كيوم الكلاب، وإنما باسم شخص ظاهر، أو لم أثر عظيم كيوم حجر الذي سميت به الموقعة التي كانت بين حجر ملك كندة وقبيلة أسد ، وفيها قتل حجر وكيوم حليمة الذي كان بين المناذرة والغضاسنة ، وقد سميت الموقعة بهذا الاسم ، لأن حليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغساني كانت تضع عطراً على كل جندي من جيش أبيها ، وقد وعد أبوها أن يزوجها من الجندي الذي يقتل ملك المناذرة . وإذا حدثت عدة مواقع لسبب واحد ، فإن هذه المواقع كانت كلّها في العادة تسمى باسم السبب الأصلي لهذه الأحداث ، كحرب البسوس ، وحرب داحس والغبراء . وأحياناً يسمى اليوم بأكثر من اسم ، كيوم ذي قار ويوم قرارق ، وقد يسمى اليوم باسم مكانيين حدث فيما القتال في ذلك اليوم كيوم النباج وثيثل (1) .

1- د. شوفي ضيف : العصر الجاهلي ، ص 63.

2- د. علي الجندي : شعر الحرب في العصر الجاهلي ، ص 20.

3- د. نجيب البهبيتي : تاريخ الشعر العربي ، ص 31.

4- د. جواد علي : المفصل في تاريخ العرب 626/2

5- ابن منظور : لسان العرب ، مادة : " يوم " .

جناية الباحثين :

بالغ كثیر من الباحثین عرباً ومستشرقین ، فی رسم صورة للعلاقات القبلية، متخذین من تعمیم الأحكام أساساً للحكم على العصر بفتی الحياة في ذلك العصر من خلال تصویرهم، سلسلة حروب متصلة (2)، حمراء مصبوغة بالدم (3)، حامية دامية ، لا تهدأ نارها ، ولا تخمد اوارها (4)، هم دائمًا قاتلون مقتولون لا يفرغون من دم إلا إلى دم (5). فالحرب شريعة مقدسة (6)، أثيره عندهم ، يثيرونها لأوهى سبب ، ويشنونها لأندی حدث ، حتى صارت عادةً مألوفة ، وسنة معروفة(7)، لا يمرّ يوم دون غارة شناء ، أو قتال رهيب (8)، استولى على نفوس أهل البوادي حتى أصبح حالة عقلية مزمنة ، وأصبح شن الغارات نموذجا للأعمال التي يليق بذوي الرجالات الحقّة ان ينصرفوا إليها (9). وصارت حياة الناس رخيصة تذهب بسبب كلمة ، أو هفوة، أو بلا سبب، سوى السفاهة والعبث (10)، لا يصح أن تجري الدماء من أجلها أنهاراً (11) ، والموت يبتلع الناس ابتلاعا(12) ، والعرب بطبيعتهم سريعاً الانفعال ، تثيرهم الكلمة العارضة (13) ، وتثور مراجل غضبهم لأن الواحد منهم "وحش في قفص" (14) ، ويتوجه إلى المعركة بنداء عاطفي ، أو قصيدة من الشعر الحماسي (15)، فإن لم يجدوا عدواً من غيرهم قاتلوا أنفسهم (16).

يعتاد البدوي منذ صغره مشاهدة الحياة الملائى بالأخطار ، فيعوده أبوه ذلك عندما يحين دوره ، مما يدفعه إلى ازدراء كلّ ما يبعد عن العنف (17)، ولا يفتح العربي عينيه إلا على تألق الأسنة ، ولا يسمع إلا صهيل الخيل ، والتصایح بالحرب، ولم يكن لهم حمى يلجمون إليه إلا صهوات جيادهم ، لذا ملأت الحروب أفاقهم ، وأصبح الحديث عنها شغفهم الشاغل (18) .

1- د. علي الجندي : شعر الحرب في العصر الجاهلي ، ص 26-28.

2- يحيى الجبوري : الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه ، ص 47.

3- أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ، ص 39.

4- عفيف عبد الرحمن : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص 72.

5- شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص 62.

6- عفت الشرقاوي : دروس ونصوص في قضايا الأدب الجاهلي ، ص 42.

7- عبد الله عبد الجبار ومحمد خفاجي : قصة الأدب في الحجاز ، ص 401.

8- أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ، ص 39.

9- فليب حتى : تاريخ العرب مطول ، 31/I.

10- أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ، ص 31/1.

11- عبد الحميد الجندي : زهير بن أبي سلمى شاعر السلم ، ص 55.

12- نجيب البهبيتي : تاريخ الشعر العربي ، 29.

13- أحسان النص : العصبية القبلية . ص 74.

14- هذا رأي لأحد المستشرقين ، نقلأً عن احمد أمين فجر الاسلام ص 20.

15- د.عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدولة العربية ، ص 50.

16- احمد امين : فجر الإسلام ، ص 9.

17- بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ص 12.

18- عبد الحميد الجندي : زهير بن أبي سلمى شاعر السلم ، ص 11

وكلّ من يجترئ على التقدّم إلى منطقة غريبة ، إنما يعرّض نفسه للقتل ، أو السلب ، على يد أولئك الأعراش الذين لا يعودون أن يكونوا أعداءه (1).

أما علاقـة الـبـدوـي بالـحـضـرـي فـلم يـكـن يـرـى الـبـدوـي فـيه إـلا فـريـسـة شـرـعـية فيـ سـبـيلـ الـحـيـاـة ، والـحـضـرـي يـنـزـل الـبـدوـي مـنـزـلـة الـوـحـشـ غيرـ المـقـدـورـ عـلـيـه (2) بلـ أنه لمـ يـسـتـطـعـ بـعـلـاقـاتـهـ الـاجـتمـاعـيـ أـنـ يـسـمـوـ إـلـىـ مـرـتـبـةـ الـحـيـوـانـ الـاجـتمـاعـيـ (3).

وحاـولـ بـعـضـ الـبـاحـثـيـنـ أـنـ يـقـصـرـوـاـ رـزـقـ الـأـعـرـابـ عـلـىـ الغـزوـ دونـ سـوـاهـ ، فـتـصـوـرـوـاـ أـنـهـ كـانـواـ يـأـفـونـ أـنـ يـرـتـزـقـوـاـ مـنـ عـلـمـ غـيرـ السـيفـ ، أوـ يـكـسـبـوـاـ إـلاـ مـنـ أـسـنـةـ الرـماـحـ (4). فـقـدـ كـانـ الغـزوـ الـمـسـلـحـ مـصـدـرـاـ لـلـغـنـىـ يـقـومـ بـهـ شـرـذـمـةـ عـلـىـ مـجـمـوعـةـ مـنـ النـاسـ ، أوـ أـوـ قـافـلـةـ مـنـزـلـةـ ، أوـ حـمـلـةـ وـاسـعـةـ يـقـومـ بـهـ عـدـدـ أـلـوـفـ مـنـ الـمـحـارـبـيـنـ لـلـحـصـولـ عـلـىـ الغـنـائـمـ (5).

ثانيًا - العلاقات السلمية :

منـ الـخـطـأـ، إـنـ لـمـ يـكـنـ مـنـ السـذـاجـةـ ، أـنـ يـظـنـ ظـانـ بـأنـ حـيـاـةـ النـاسـ عـصـرـذـ كـانـتـ كـلـهاـ فـيـ الـحـرـوبـ، لـاـ تـسـمـعـ آـذـانـهـ إـلاـ صـلـيلـ السـيـوـفـ، وـلـاـ تـطـربـ إـلاـ لـفـرـعـ طـبـولـ الـحـرـبـ . فـقـدـ كـانـ عـلـىـ الـفـرـدـ أـنـ "يـبـحـثـ عـنـ رـزـقـ لـهـ وـلـأـسـرـتـهـ ، وـمـرـعـىـ لـحـيـوـانـتـهـ، وـلـاـ شـكـ أـنـهـ كـانـتـ لـهـ سـاعـاتـ مـنـ الـفـرـاغـ ، يـجـدـ فـيـهـاـ وـقـتاـ مـلـتـعـةـ وـالـسـرـورـ، مـعـ الـمـوـسـيـقـىـ وـالـغـنـاءـ وـالـرـقـصـ، وـإـنـشـادـ الـشـعـرـ" (6).

وـالـحـرـبـ لـيـسـ مـقـصـورـةـ عـلـىـ الـعـصـرـ الـجـاهـلـيـ دونـ سـوـاهـ، بلـ هـيـ نـزـعـةـ تـعـبـرـ عـنـ شـرـورـ الـإـنـسـانـ ، وـتـصـادـمـ مـصـالـحـهـ مـعـ مـصـالـحـ الـآـخـرـيـنـ ، مـتـخـذـةـ مـنـ الـقـوـةـ وـسـيـلـةـ لـلـسـيـطـرـةـ وـفـرـضـ الـأـمـرـ الـوـاقـعـ.

وـقـدـ خـاصـ الـعـالـمـ فـيـ هـذـاـ الـقـرـنـ حـرـوبـاـ مـدـمـرـةـ ، أـزـهـقـتـ مـلـيـينـ الـأـرـوـاحـ، وـأـهـلـكتـ الـحـرـثـ وـالـنـسـلـ، فـحـارـبـ الـأـشـقـاءـ أـشـقـاءـهـ، وـمـكـرـ الـأـخـ بـأـخـيـهـ ، وـانـقـمـ الصـدـيقـ مـنـ صـدـيقـهـ، وـدـمـرـ الـحـلـيفـ حـلـيفـهـ، بـأـشـدـ الـأـسـلـحـةـ فـتـكـاـ، وـأـقـوـاـهـاـ تـدـمـيرـاـ. لـكـ نـوـامـيسـ الـحـيـاـةـ لـمـ تـتـوـقـفـ.

وـلـمـ يـكـنـ خـطـبـ الـنـاسـ- عـصـرـذـ- مـخـتـلـفـاـ عـنـ خـطـبـنـاـ، وـإـذـاـ كـانـتـ الـحـرـبـ- يـوـمـئـذـ- تـحـصـدـ الـأـرـوـاحـ- وـهـيـ لـيـسـ شـيـئـاـ يـذـكـرـ بـالـقـيـاسـ إـلـىـ حـرـوبـ هـذـاـ الـعـصـرـ- فـانـ دـعـوـاتـ الـسـلـامـ كـانـتـ تـنـشـطـ، وـكـانـ الـشـعـراءـ السـفـراءـ يـقـومـونـ بـجـهـودـ خـيـرـةـ لـحـقـنـ الـدـمـاءـ ، وـتـبـادـلـ الـأـسـرـىـ، وـسـائـرـ الـنـاسـ يـمـارـسـونـ حـيـاتـهـمـ بـصـورـةـ طـبـيعـيـةـ.

وـقـدـ تـمـثـلـتـ حـيـاتـهـمـ السـلـمـيـةـ بـمـظـاهـرـ مـخـتـلـفـةـ نـوـجـزـهـاـ فـيـمـاـ يـلـيـ :

1- سـفـاراتـ الـشـعـراءـ :

1- بـرـوـ كـلـمانـ : تـارـيـخـ الشـعـوبـ الـاسـلـامـيـةـ ، صـ 17.

2- نـقـلـاـ عنـ : عـبـدـ الـمـنـعـ مـاجـدـ : التـارـيـخـ السـيـاسـيـ الـدـوـلـةـ الـعـرـبـيـةـ ، صـ 46.

3- هـذـاـ زـعـمـ لـأـحـدـ الـمـسـتـشـرـقـيـنـ ، نـقـلـاـ عنـ الـعـصـبـيـةـ الـقـبـلـيـةـ ، صـ 116.

4- اـبـنـ خـلـدونـ : الـمـقـدـمةـ ، صـ 214.

5- بـلـاشـيرـ : تـارـيـخـ الـأـدـبـ الـعـرـبـيـ ، صـ 34.

6- دـ.ـ عـلـيـ الـجـنـديـ : شـعـرـ الـحـرـبـ فـيـ الـعـصـرـ الـجـاهـلـيـ ، صـ 22

طالعنا المظاٹ التاریخیة والأدبية على حقيقة الأوضاع السياسية التي كانت سائدة في حیاة العرب - قبل الإسلام - المجسدة بغلبة النظام القبلي ، وانتشار القبائل العربية على الجزیرة العربية، يتّقل کثیر منها، وفقاً لطبيعة الظرف البيئي القاسی(1) . بيد أنّ واقع الحال السياسي لم يقتصر على وجود تلك القبائل فحسب، بل شهدت الأرض العربية ظهور إمارات عربية مستقرة في بقاع معينة منها، ونعني بذلك الإمارات : العساسنة والمناذرة ، وكُنْدَة ، اللواتي اتخذن من بلاد الشام ، والحيرة ، وشمالى نجد موقعاً لها (2) . ويبدو أنّ تلك العلاقات السياسية بين القبائل والإمارات العربية غدت متأثرة بفعل إمبراطوريات ثلث : الساسانية ، والبيزنطية ، والحسية ، إذ كان لها اثر في کثیر من الحروب، التي شهدتها العرب فضلاً عن إسهامها في إبقاء حالة التشتت الذي كانوا عليه (3) .

إلا أن ما يهمنا الوصول إليه من هذا العرض الموجز للواقع السياسي ، هو أن معظم القبائل العربية رغبة منها بالسلام والاستقرار ، سعت جاهدة إلى تبذ الخلافات فيما بينها من جهة ، والعمل على التقارب والإخاء بينها وبين تلك الإمارات من جهة أخرى ، كما أنها سعت إلى إحلال مبدأ الحوار ، وتحسين العلاقات مع الإمبراطوريات في الوقت نفسه ، هادفة من وراء ذلك كله رعاية مصالحها ، وحماية تجارتها....

ولم يكن يتّأتى كلّ ما تطمح إليه دون وسيلة تعمل عملها في هذا الاتجاه ، ومن هنا شعرت القبائل العربية بضرورة اختيار (سفراء) لها تدبّهم لهذا الغرض ، ويبدو أنها لم تجد أفضل من شعرائهم ل القيام بهذه المهمّات ، وتحقيق تلك الغایات ، واضعة نصب أعينها أن الشعر كان - عصريًّا - سلاحاً من أمضى الأسلحة ، وان الشعراء غدوا ابرز شخصية مؤثرة في مجرى الأحداث.

وإذ نطمئن إلى معطيات هذا الواقع ، فلا عجب أن نجد أن الشعراء يقطعون بلاد العرب طولاً وعرضًا ، ينتجعون قصور الأماء ، ويحضرون مجالس القبائل ، ويشهدون المواسم الأدبية ، أولئك الذين يصح أن نطلق عليهم الشعراء السفراء ، بوصفها (السفارة) من أخطر وظائف الزعامة والقيادة " وهو وضع قد قضت به ظروف البيئة ، ودفعت إليه حاجة القبيلة إلى قيادة معنوية" (4)

وعندما نبدأ بما هو متواتر في الأخبار عن العصر الجاهلي ، وبخاصة ما نحن بشأنه، تطالعنا أخبار امرئ القيس ، لا سيما محاولته في استرداد سلطان مملكة كنْدَة المنهار ، تلك المملكة العربية التي احتضنت بين ظهرانيها مجتمع من القبائل الشمالية والجنوبية، مشكلة بؤرة تجمع عربي أسمهم في لم الشمل ، وإحلال السلام ، والاستقرار تحت لوائها، ولا أدل على ذلك من نجاح مساعي أحد ملوكيها وهو ، "الحارث بن عمرو بن حجر" في إبرام الصلح بين بكر وتغلب ، بعد لجوء هاتين القبيلتين إليه لهذا الغرض(5).

1- البكري : معجم ما استجم 5/1 . والهمذاني : صفة جزیرة العرب ص 58

2- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ن 3/155

3- نفسه : 262/2 وما بعدها .

4- عائشة بنت الشاطئ : قيم جديدة للأدب العربي ، ص 32 .

5- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 1/231 .

ويبدو أن صنيع ملوك كندة في جمع أشتات القبائل العربية لم يلق ارتياحاً في نفس ملك الفرس كسرى أنو شروان" الذي عمد إلى تأليب "المنذر بن ماء السماء" ملك الحيرة على أمراء كندة من أبناء الحارث، لإيقاع الشرور بينهم، وتفتيت وحدتهم ... ثم بمقتل حجر أبي امرئ القيس الشاعر ، كانت بداية النهاية لزوال مملكة كندة عن مسرح الأحداث ، وهو زوال لم يستسلم له امرؤ القيس إذ اتخذ من أسفاره التي قام بها إلى عدد من القبائل العربية الجنوبية منها والشمالية، وسيلة إلى توحيد ما بقي من اتباع كندة تحت قيادته (1) .

أما سفارته إلى قيصر الروم ، وما رافقها من أحداث فأشهر من أن تعاد وتعرف.... ولقد صدق نبوءة الشاعر ، حيث مات دون أمنيته، فلم ينجح في استعادة مجد مملكته كندة المنهارة ، بعد سفارات كثيرة، حالفه النجاح في جزء يسير ، والفشل في الجزء الأعظم ، قطع خلالها مسافاتٍ طويلة ، وتحمل أعباء لا ينوه بحملها إلا من كان يسعى لمجد مؤتّل.

وإذا كان الفشل نصيب امرئ القيس ، فيما سعى إليه ، خلال سفاراته ، فإن نقشه كان لعلمة بن عبدة التميمي ، وهو الذي يقال له "علقة الفحل"(2) من سفاراته إلى بلاط الغساسنة ... وباعت تلك السفارة ، وملخص تفصيلاتها هما " لما قتل الحارث بن أبي شمر الغساني المنذر بن ماء السماء ، أسر جماعة من أصحابه ، وكان فيمن اسر شأس بن عبدة في تسعين رجلاً منبني تميم(3) ، فما كان من بني تميم إلا أن يوزعوا لشاعرهم علقة بشد الرحال ، والتوجه في سفارة إلى بلاط الغساسنة، ايمناً منهم بالدور الذي يؤديه الشاعر في الأزمات القبلية والاجتماعية، الأمر الذي يعكس لنا مفهوم التفاعل بين الشاعر وقبيلته وهو مفهوم قائم على القيم الأصلية التي ترمز إلى الشخصية الواحدة المتماسكة المؤمنة بأهدافها في الحياة . كما كان علقة ، وغيره من شعراء ذلك العصر يؤمنون : أن من حق القبيلة على الشاعر أن يقف عليها موهبه الشعرية، ويؤدي مهمته كاملة متى مادعا إلى ذلك الطرف البيئي.

ونهض علقة بواجب قبيلته، وسفر إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ، وأناخ ناقته على باب قصره، ودخل ، وألقى على مسامعه قصيده الرائعة التي مطلعها (4) :

طحا بك قلبُ في الحسان طروبُ بُعْدَ الشَّابِ عَصْرَ حَانَ مُشِيبُ
وهذه القصيدة مع قصيدين آخرين هن اللواتي عدّهن ابن سلام "ثلاث روابع لا يفوقهنّ شعر"(5).

فَحَقَ لشَأسٍ مِنْ نَدَاكَ ذُنُوبُ

فَلَمَّا بَلَغَ قَوْلَهُ :

وَفِي كُلِّ حَيٍّ قَدْ خَبَطَتْ بِنَعْمَةٍ

فَقَالَ الْحَارِثُ: نَعَمْ وَأَذْنَبَهُ(1) ، وَلَمَّا خَتَمْ مَطْوَلَتَه بِقَوْلِهِ :

1- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام 360/3 وما بعدها .

2- ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، 329/1

3- نفسه

4- المفضليات : ق 119، ص 391

5- ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، 139/1

فلا تحرمني نائلاً عن جنایة
فأئي امرؤ وسط القباب غريب
أمر الملك الغساني بإطلاق سراح شاس أخيه، وجماعة أسرىبني تميم فقد "أثارتْ
قصيدة علامة نخوة الملك وأطربته، وبذلك استطاع الفُ إلا يسجل تأثيره الحاسم في
قضايا السياسة" (2).

ويبدو لنا أن نجاح علامة في سفارته لم يقتصر على هذه النتيجة فحسب ، ونحن لا
ننجد الصواب إذا قلنا : إن علامة نجح أيضاً في توطيد العلاقة بين قبيلته تميم وبلاط
الغساسنة ، محولاً الخصومة إلى ودّ ، والنزاع إلى وئام .
ويدخل المتقدب العبدى مع عمرو بن هند في حوار أو عتاب ، يتميز بالقسوة ، يريد من
خلاله أن يقف على حقيقة الصداقة والعداوة ، وكأنه يصر على تبيان حقيقة موقف الملك
من قومه العبديين .
في خطابه قائلاً (3) :

أخي النَّجَادَاتِ وَالْحَلْمِ الرَّصِينِ
فأعْرَفُ مِنْكَ غَثِّيْ أَوْ سَمِينِي
عَدُوا أَنْقِيكَ وَاتَّخَذْنِي
إِلَى عَمْرُو وَمِنْ عَمْرُو اتَّنْتِي
فَلَمَا أَنْ تَكُونَ أَخِي بِحَقِّ
وَالْفَاطِرُ حَنِيْ وَاتَّخَذْنِي

أما سفارة طرفة بن العبد ، وحاله المتلمس الضبعي فتأتي لتأكيد حقيقة مكانة
الشعراء في تغيير مجرى الأحداث التي تشهدها القبائل ويبدو باعثها شعور قبيلة
هذين الشاعرين التي كانت تدين بالولاء لمملوك الحيرة بتحول ولاء ملك المناذرة
"عمرو بن هند" عنها إلى التغلبيين... لذلك أوعزت إلى هذين الشاعرين بالقيام بسفارة
إلى بلاط المناذرة ، كي ينقلوا وجهة نظرهما ، ويكسبا ولد الملك ... ويليهما الشاعران
رغبة قبيلتيهما وينهضان بسفارتهم إلى بلاط المنذر.. ويفشلان في مهمتهما ، فيهرب
المتلمس إلى الشام ، ويتجه طرفة إلى البحرين .. ويقتله العامل التغلبي . وتجيئ سفارة
النابغة النبباني إلى بلاطي المناذرة والغساسنة مشابهة لسفارة طرفة والمتملس في
نواح معينة

2- الأحلاف :

شاعت في المجتمع الجاهلي أنواع متعددة من الأحلاف القبلية : منها الحلف بين قبيلتين
متجاورتين أحدهما أقوى من الأخرى ، كالتحالف الذي كان بين الأوس واليهود ضد
الخررج عندما تغلب الخرج على الأوس في يوم بعاث (4). ومنها حلف يعقد بين
قبيلتين متساويتين في الحقوق والواجبات ، كحلف عبس وضبة ، الذي عقد بينهما ،
عندما كانت ضبة تريد نصيرا لها في حربها ضد تميم (5). ومنها أحلاف دائمة كحلف
المطبيين من قريش ، فقد دفعت الضرورة القبائل الحجازية العربية إلى تكوين أحلاف

1- المبرد: الكامل في اللغة والأدب 195/1

2- مطاع صфи وailia الحاوي : موسوعة الشعر العربي 2/103

3- المفضليات ، ص 292

4- ابن الأثي: الكامل في التاريخ 1/678

5- نفسه : 581/1

للمحافظة على الأمان والدفاع عن مصالحها المشتركة⁽¹⁾. ومنها أحلاف بين بطون القبيلة الواحدة ، كالاحلاف التي كانت بين كثير من بطون تميم⁽²⁾، ومنها حلف بني نهشل وبني يربوع⁽³⁾، ويidel هذا الحلف على مدى الوعي القومي الذي وصل إليه هذان البطنان التميميان ، وامتدحه علقة الفحل⁽⁴⁾ .

ومنها أحلاف دينية ، كحلف "الخمس"⁽⁵⁾ الذي عقد بين كنانة، وقريش ، وخزاعة ، وطوائف من بنى عامر بن صعصعة .

ومنها أحلاف كانت الغاية منها دفع الظلم والشر ، وخير ما يمثل هذا النوع من الأحلاف " حلف الفضول"⁽⁶⁾ فقد وجدت قريش أن قوة القانون وحدتها لا تكفي لتحقيق هذا الغرض ، بل لا بد من حصانة خلقيةٍ تسود المجتمع لحماية الأفراد من العدوان . ولا بدّ أن يستشعر القرشيون أن عليهم واجباً أخلاقياً ، يُلْحَضُ في دفع الظلم ، والأخذ بيد الضعيف والمظلوم .

وفي دار عبد الله بن جُدعان اجتمع طوائف من قريش ، تنتظم بنى هاشم وأسد ، وزهرة ، ونَبِيْم ، وتعاقدوا على لا يظلم بمكة غريب ، ولا قريب ، ولا حرّ ولا عبد ، إلا كانوا معه ، حتى يأخذوا له بحقه ، وبؤدوا إليه مظلمته من أنفسهم ، ومن غيرهم . وقد حضر رسول الله ﷺ هذا الحلف وقال "لقد شهدت مع عمومتي حلفاً في دار ابن جُدعان ، ما أحب أن لي به حُمَر النَّعْمَ ، ولو دُعِيتُ به في الإسلام ، لأجبت" .

وكان الدافع لإنشاء هذا الحلف أن رجلاً من بنى زبيد قد معتمرأً في الجاهلية ، ومعه تجارة له ، فاشتراها منه رجل من بنى سهم ، ثم ماطله في الدفع ، فجاء إلى بنى سهم يستعيدهم عليه ، فأغلظوا عليه فعرف أن لا سبيل إلى ماله ، فطُوّف في قبائل قريش يستعين بهم ، فتخاذلت القبائل عنه ، فلما رأى ذلك اشرف على أبي قبيس (جبل) حين أخذت قريش مجالسها في المسجد ، ثم قال⁽⁷⁾ :

يا آل فهر لمظلوم بضاعته
ببطن مكة نائي الدار والنفر

وفيها بعد ظهرت آثار هذا الحلف الإيجابية ، فقد جاء رجل من قبيلة خثعم إلى مكة ، وبصحبته ابنة جميلة ، يقال لها القتول ، فعلقها رجل يقال له: نَبِيْه بن الحاج ، وغلب أباها منها ، فأتى أبوها حلف الفضول ، فمنعوها منه ، وصانوا عرضه ، فقال نَبِيْه⁽⁸⁾:

والخوف من عدوها
لولا الفضول وحلفها

1- ابن حبيب : المُحَبَّر : 166

2- عبد الحميد المعيني : التميميون أخبارهم وأشعارهم في العصر الجاهلي .

3- ابو عبيدة : النَّقائض ، 699/2 .

4- ديوان ، ص 126.

5- ابن حبيب : المُحَبَّر 178.

6- ابن هشام : السيرة النبوية 1/145، وابن حبيب : المُحَبَّر ، 167.

7- ابن هشام : السيرة النبوية 1/145.

8- ابو هلال العسكري : الأوائل 71/1

لدنوتُ من أبياتها
وشربُت فضلة ريقها

وفي هذا الحلف العظيم، الذي يعده قوة لها خطرها في سبيل إشاعة الأمان
الداخلي، يقول الزبير بن عبد المطلب⁽¹⁾:

ولطفُ حول خبائِها ولنمُّت في أحشائِها	لدنوتُ من أبياتها وشربُت فضلة ريقها
وإن كنَّا جميعاً أهْل دار يعزُّ به الغرِيبُ لدِي الْجوار	حلفُ لَنْعَدْنَ حلفاً عَلَيْهِم نسمِيهِ الفَصْوَلَ إِذَا عَدَنَا
أبْأَةُ الضَّيْمِ نَهَجَ كُلَّ عَارٍ	وَيَعْلَمُ مَنْ حَوَالَى الْبَيْتِ أَنَا

وكانت قبائل العرب إذ أرادوا عقد حلف أو قدوا ناراً، وتحالفوا عندها⁽²⁾ . وربما طرحا في النار الملح ، أو الطيب ، أو غير ذلك . وكانت لهم عبارات مألوفة يرددونها عند التحالف ، كقولهم : الدَّم ، الدَّم ، الْهَدَم ، الْهَدَم ، لا يزيده طلوع الشمس إلا شدأ ، وطول الليالي إلا مَدَا⁽³⁾ ...

3- الردّافة :

وهي مظهر من مظاهر العلاقات الإسلامية التي سادت بين تميم والمناذرة، وهي صورة من صور المصانعة والامتيازات ، فقد كان بنو يربوع يترشون بعرب الحيرة ، فصالحهم ملوك الحيرة على أن يجعلوا لهم أمر الردّافة ، وأن يكفوا عن الغارة على أهل العراق⁽⁴⁾. وكان الردف " يجلس عن يمين الملك، فإذا شرب الملك شرب الردف قبل الناس ، وإذا غزا الملك قعد الردف موضعه، وكان خليفته على الناس حتى ينصرف ، وإذا عادت كتيبة الملك أخذ الردف المربع⁽⁵⁾ ".

4- التقاء القبائل في الأشهر الحرم والأسواق والمواسم :

وكانت الأشهر الحرم هذنة مقدسة ، وهذه الأشهر ، هي : ذو العقدة ، وذو الحجة ، والمحرم، ورجب ، فلم يكن فيها قتال ، وسميت الحروب التي انتهكت حرمتها بالفجار . فإذا كان الشهر الحرام وضع الناس سلاحهم ، وقصدوا مكة لأداء شعائر الحج ، والطواف بالکعبَة ، واختلفوا إلى أسواق الحجاز التي تقام إبان هذه الأشهر ، ليتماروا ، وبيتاعوا ، فلتلتقي جموعهم في هذه المواسم وأأسواق . وقد كان اللقاء الكبير في سوق عكاظ ، وذى المجاز ، والمجنة صورة من صور النزوح نحو التوحد ، وتعد هذه

1- عبد الله عبد الجبار ومحمد خفاجي : قصة الأدب في الحجاز ص 438.

2- الجاحظ : الحيوان ، 4/47.

3- نفسه.

4- أبو عبيدة : معمر بن المثنى : النقائض ، 2/298.

5- ابن منظور : لسان العرب ، مادة " ردف "

الأسواق رموزاً خالدة لهذا اللقاء الاقتصادي ، والسياسي ، واللغوي ، والثقافي الأصيل . ووصف أحد شعراء بنى أسد موسمًا لعكاظ حضره من قريش وأحلافها تسعون ألفاً
فقال (1):

تسعون ألفاً كلهم ملأم
يا قوم قد وافي عكاظ الموسم
يصور لنا أبو ذؤيب الهمذاني هذه الألوف ، وما تبني من القباب ، وكيف يتواجد الناس ،
فيلتقون (2) :

وقام البيَّعُ واجْتَمَعَ الْأَلْوَفُ ولم تَلْعَمْ إِذَا أَنِي خَلِيفٌ أَخَانَ الْعَهْدَ أَمْ أَثْمَ الْحَلِيفُ	إِذَا بُنِيَ الْقِبَابُ عَلَى عُكَاظٍ تَوَاعَدْنَا عَكَاظًا لِنَزَلَنَاهُ فَسُوفَ تَقُولُ إِنْ هِيَ لَمْ تَجْدَنِي
--	--

وقد أبرز الشعر الجاهلي أهمية هذه الأسواق ، وبكفي أن نذكر أن أكبر حربين أهليتين ،
هما: البسوس ، وداحس والغبراء جرى صلحها في المواسم . فقد اصطلاح بكر وشيبان
في سوق ذي المجاز ، وأخذوا على أنفسهم العهود والمواثيق ، فقال الحارث بن حلزة
(3) :

قَدِمَ فِيهِ الْعَهْوُدُ وَالْكَفَلَاءُ يَنْقُضُ مَا فِي الْمَهَارَقِ الْأَهْوَاءِ	وَادْكُرُوا حَلْفَ ذِي الْمَجَازِ وَمَا حَذَرَ الْجُورُ وَالتَّعْدِي وَهَلْ
---	--

واصلاح العبيسيون والذبيانيون في سوق عكاظ، فهدأت حرب داحس والغبراء ،
قال زهير بن أبي سلمى (4):

وَذَبِيَانَ هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلَّ مَقْسِمٍ لِيَخْفِي وَمَهْمَا يَكْتُمَ اللَّهُ يُعْلَمُ	فَمِنْ مَبْلَغِ الْأَحَالَفِ عَنِ الرِّسَالَةِ فَلَا تَكْتُمُ اللَّهُ مَا فِي نُفُوسِكُمْ
---	--

- وهناك شبكة من العلاقات الاجتماعية والإنسانية ، ربطت القبائل بعضها
بعض ، منها :

1- المصاهرة بين القبائل ، ولا سيما المجاورة ، مما أدى إلى ارتباط قبائل كثيرة
برابطة القرابة . فقد حظيت تميم بمكانة مرموقة في أوساط المجتمع المكي ، وتوجت
هذه العلاقة بحالات واسعة من المصاهرة ، وكان لبني نهشل ، وهم بطن من تميم ،
نصيبٌ وافرٌ . وقد قدّم لنا " كستر " قائمة طويلة بأسماء نساء تميميات تزوجن رجالاً
من أسرٍ قرشية شريفة (5) .

1- نقلًا عن : نوري حموي القبسي : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ص 213.

2- ديوان الهمذانيين : القسم الأول ، 98.

3- انظر : المعلقة ، البيت 42 و 41.

4- انظر : المعلقة .

5- كستر : مكة وتميم ، حولية كلية اللسان ، جامعة قطر ، 1979، ص 113-115.

2- قرى المسافر :

فقد كان التنقل في الصحراء يعرض المرء للهلاك، إذا ما نفذ زاده ، فقد واجهوا جذب الصحراء بالسخاء والبذل ، وعذّوها مما واجها أخلاقياً وعدوا الأخلال بهما جريمة أخلاقية (1)، وقد أصبح قرى الضييف من أعظم المآثر والمفاخر القبلية. ومن العجب أن هذا البدوي الذي كان ينتهز كل سانحة للغزو والسلب مُعَرِّضاً حياته للقتل في سبيل ذلك ، كان إذا نزل به ضيف انقلب رجلاً مسالماً مضيافاً ويدوأ ، يرعى حقّ ضيفه ، ولا يفكر في الاعتداء عليه ، ولا في مدّ يد الأذى إليه، قال الطفيلي الغنوبي (2) :

فراش الضييف والبيت بيته
أحدهما إنّ الحديث من القرى

وقال عمرو بن الأهتم (3) :

أضاحك ضيفي قبل إنزاله رحليه
وما الخصب للأضياف أن تكثر القرى

ولم يلهني عنه غزال مقنع
وتكلّا عيني عينه حين يهجع

ويخصب عندي والرمان جديب
ولكثما وجّه الكريم خصيب

وليس الجود عند الإنسان الجاهلي محصوراً في تقديم الطعام ، ومملوء المعبد الفارغة ، بل اتّخذ الجود بعدها نفسياً عند إنسان ذلك العصر ، وذلك بتخفيف معاناة الغربة عنه ، بعد أن نأى به الديار ، وابتعد عن الأهل والعشيرة ، فلا بدّ من مصاحبته ، وإشعاره بأنه واحد من أبناء تلك الأسرة التي استضافته.

وقد اقتضى هذا الجانب الأخلاقي ، أن يستقبل الجاهليون ضيوفهم بالبٍشر والسرور ، وفي هذا يقول ضمرة بن ضمرة النهشلي (4) :

إذا قلت في الحي الجميع الروافد
وقلت له : أهلاً وسهلاً ومرحباً

وإن لم يكن هناك طارق ليل بحثوا عنه ، فقيس بن عاصم يزهو بأنه لا يأكل الزاد وحده ، ويطلب إلى زوجه أن تلتمس له أكيلاً ، ويفخر بأنه عَدُّ لضيفه ، فيقول (5) :

إذا ما صنعت الرزاد فاللتمنسي له
أخًا طارقاً أو جار بيتِ فإبني
أكيلاً فإني لست أكله وحدى
أخاف ملامات الأحاديث من بعدي
وما بي إلا تلك من شيمية العبد

3- الإجارة :

مسوغات وجودها :

أشرنا فيما مضى (6) إلى أنّ العلاقة بين الفرد وقبيلته ، قد تسير في خطين متعاكسيْن ، فتضطر القبيلة إلى إسقاط الجنسية القبلية عنه(7) ، فيصبح بحاجة إلى من يسبغ عليه الحماية ويفرد عليه جناحية.

1- د. محمد زكي العثماني : النابغة الذبياني ، 129.

2- ديوانه : ص 103 ، وتنسب ، أيضاً ، لعروة بن الورد : ديوانه ، 83.

3- شعر الزبير قان بن بدر وعمرو بن الأهتم : 8.

4- المفضليات : 326.

5- الأغاني : 72-71/14.

6- إحالة ، انظر هذا الكتاب 34-35 .

7- د. يوسف خليف : الشعراء الصعاليك ، ص 95.

أهميةها :

تشكل الإجارة بهذا المعنى نظاماً من أكثر النظم شيوعاً في المجتمع العربي في عصر ما قبل الإسلام، ومن أبلغها تأثيراً في حياته اليومية. ونحن لا نكاد نقرأ شيئاً من الشعر الجاهلي، أو نطالع شيئاً من أيام العرب في الجاهلية إلا ونجد حديثاً عن الجوار ، أو إشارة إليه.

وترجع أهمية هذا النظام إلى افتقاد العرب قبل الإسلام لسلطة مركزية تقرّ الأمان، وتفرض النظم، وتكتف القويّ عن البطش بالضعف، وتأخذ للمظلوم بحقه من الظالم. فالجوار كان نظاماً أوجنته ضرورات الحياة العربية في ذلك العصر بديلاً للسلطة المركزية . وقد استطاع هذا النظام أن يوفر للناس قدرًا من الأمن والطمأنينة، وأن يدفع عنهم بعضاً من الظلم والاضطهاد.

ونظراً لما كان لهذا النظام من أهمية بالغة في حياة العرب نجدهم يجعلون من احترام مقتضياته واجباً يكاد يكون مقدساً (1)، فهم يفخرون به ، ويوصي ساداتهم وآشرافهم أبناءهم بضرورة مراعاته، ويكتب الشعرا الثناء والمدح لمن يحترم جواره، ولعل هذا ما دفع المستشرق نيكلسون إلى القول : " وليس الصدق بطبع العربي - وثانياً كان أم مسلماً من الشهامة ، والتضحية بذاته تضحية لا يرجو من ورائها شيئاً في سبيل أصدقائه ، والشعر القديم خاصة يضع بين أيدينا الدليل على أنهم كانوا يجزعون أشد الجزء إذا رأوا جاراً ينكث بعهد جاره " (2) .

ولكي نتبين أهمية الجوار نستعرض بعضاً مما قاله ساداتهم، وزعماؤهم، وبعضاً من أشعار شعرائهم (3) :

أوصى يعرب بن قحطان بنيه ، فقال : "... والجار الدّخيل على أنفسكم ، فلن يسوء حاله ، ولئن يسوء حال أحدكم خير له من أن يسوء حال جاره (4) .

وقال عامر بن صعصعة يوصي بنيه : " يابني ، جودوا ولا تسألوا الناس ، واعلموا أن الشح يغدر من الظالم ، وأطعموا الطعام ، ولا يستذلن لكم جار (5) " .

وقال يزيد السكوني يمدحبني شيبان (6) :

ومن تكرّمهم في المحل أنهم حتى يكون عزيزاً من نفوسهم	لا يعلم الجار فيهم أنه الجار كانه صَرَح في رأس شاهقة
أو أن يبین جميعاً وهو مختار من دونه لعنق الطير أو كار	

1- وقعت حروب في الجزيرة العربية بسبب الاعتداء على جار .

انظر : عفيف عبد الرحمن : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، 77

2- نقاً عن د. نجيب البهيتى : تاريخ الشعر العربي ، ص 83

3- راجع هذا الكتاب : 192-194 و 227-230 .

4- الأصمعي : تاريخ العرب قبل الإسلام ، ص 9 .

5- الميداني : مجمع الأمثال ، ص 163 .

6- الحماسة : 114/1 .



الفصل الثاني:
الممالك العربية وأثرها في الحركة الأدبية

الممالك العربية وأثرها في الحركة الأدبية

في تاريخ الدول العربية التي قامت قبل الاسلام، دولتان حاجزتان : هما دولة الغساسنة ، ودولة المناذرة. وقد اتخد الروم دولة الغساسنة مجنّا يقيهم شرّ هجمات البدو عليهم، كما يقيهم شر هجمات الفرس وحلفائهم من العرب، كما اتخد الفرس دولة المناذرة في الحيرة للغرض نفسه.(1) وهكذا وقفت هاتان الدولتان العربيتان على حدود الدولتين الكبيرتين : بيزنطة ، وفارس، وارتبطتا معها بالأحلاف والمعاهدات . وبين هاتين الدولتين مملكة كندة في شمال نجد، وكانت، فيما يبدو، تدين بالولاء لملوك اليمن الحميريين.

مملكة الغساسنة :

أصلهم وسبب تسميتهم :

الغساسنة فرع من أزد اليمن، نزحوا قبل حادثة سيل العرم(2)، أو بعدها تحت قيادة زعيمهم عمرو بن عامر مزيقياء- من جنوب الجزيرة العربية إلى بلاد الشام. ويسمى الغساسنة أيضاً آل جفنة ، أو بأولاد جفنة (3)، لأن أول ملوكهم جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ، ويفسر الاخباريون تسمية عمرو بمزيقياء تفسيرين مختلفين، يذكرهما حمزة الأصفهاني ، أحدهما : أن الأزد تزعم أن عمراً إنما سمي مزيقياء ، لأنه يمزّق كلّ يوم من سني ملكه حلتين، لثلا يليسهما غيره ، فسمي هو مزيقياء، وسمى ولده "المزيقية" . وقيل : إنما سمي مزيقياء لأن الأزد تمزقت على عهده كلّ ممزق ، عند هروبهم من سيل العرم(4) . واضح أن التفسير الأول خرافي ، لعل المقصود منه اظهار ثرائه.

وتاريخ دولة الغساسنة غامض، لقلة المصادر، وضياع معظم آثاربني غسان وربما لأن الروم لم يعنوا بتدوين تاريخ جيرانهم عنابة الفرس بذلك(5). وان المؤرخين العرب يختلفون في عدد الملوك وأسمائهم ، وسني حكمهم(6). ولعل السبب في هذا الاختلاف ، إنما هو اختلاط أخبار آل غسان بالقبائل العربية التي سبقتهم إلى سوريا، ودانت بالنصرانية ، وخضعت لحكم الرومان(7). أضف إلى ذلك هذا التشابه في الأسماء بين حارث، ومنذر، ونعمان ، واختلاط ذلك بالتقارب والتشابه مع أسماء ملوك المناذرة.

1- محمد مبارك نافع : تاريخ العرب : عصر ما قبل الاسلام، ص 110
فيليب حتى: تاريخ العرب مطول ، 103/1

2- جواد علي : المفصل 580/2 وما بعدها ، وجورجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية 155/1

3- انظر قول حسان بن ثابت :
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
قبر ابن مارية الكريمة المفضل
ديوانه : ، ص 123

4- نقاً عن السيد عبد العزيز سالم : تاريخ العرب قبل الاسلام ، 196/1.

5- د. محمد عبد القادر أحمد : دراسات في ادب ونحو ص العصر الجاهلي ، ص 92

6- انظر : جوادعلي: المفصل 3/443-447.

7- د. محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، ص 563

أضف إلى ذلك أن هذا الاختلاط أو الخلاف بين مؤرخي العرب على عدد من ملوك آل غسان ، إنما هو دليل على ما يحيط بأسرة "آل جفنة" من غموض ، في الواقع ان تاريخ الأسرة بكماله غامض . حتى أصل الأسرة نفسها ، فالمؤرخون العرب يرون أن الغساسنة -وكذا المناذرة- إنما هم من عرب الجنوب، الا ان من المحدثين من يتشكك في هذا ، ويرجح أنهم من عرب الشمال ، لأسباب تم رصدها(1).

أما العاصمة السياسية لآل جفنة ، فيبدو أنها كانت في البدء مخيماً متنقلًا ، ثم استقرت بعد ذلك في "الجابية" في منطقة الجولانغربي دمشق ، كما كانت في بعض الوقت في "جلق" في جنوب حوران (2).

وأما ديارهم فكانت -وفقاً لبعض الروايات- في اليرموك ، والجولان ، وغيرهما ، من غوطة دمشق ، وأعمالها ، وان منهم من نزل الأردن من أرض الشام (3). ومهمماً يكن من خلاف فقد امتدت دولتهم ، حتى شملت الجولان ، وحوران ، والبلقاء ، وأحياناً فينيقيا ، فضلاً عن أعراب سوريا وفلسطين (4).

وكان الغساسنة كالبيزنطيين يدينون بال المسيحية ، وإن كانوا على المذهب اليعقوبى المخالف لمذهب بيزنطة ، الذي انتشر في الشام ومصر (5) . ولذا عرفوا أيضاً باسم "العرب المتتصرة" (6) . وانفرد اليعقوبى بالإشارة إلى انتشار اليهودية بينهم(7) ، ل المجاورتهم يهود فلسطين ، إلا أننا لا نجد من الأدلة ما ينهض لتأكيد هذا .

ويتميز تاريخ الغساسنة بقوة ملوكهم المسميين "بني جفنة" ، وعرفوا للعرب باسم "ملوك الشام" (8) . وكانت هذه الدولة مخلصةً لخلفائها البيزنطيين ، بحيث أن "جستنيان" (527-565) منح الحارث بن جبلة "لقب ملك" (9) وتعد أيام الحارث بن بن جبلة أزهى أيام الغساسنة . وقد بقيت مملكة الغساسنة إلى وقت انسياح العرب مع حركة الفتوح في الشام ، فكان آخر ملوكهم جبلة بن الأبيهم الذي اشتراك مع الروم في قتال جيوش العرب بقيادة خالد بن الوليد(10) ، ولكنه هزم ، ثم انضم للعرب ، وأسلم ، ثم تنصر بعد ذلك ، وهرب إلى القسطنطينية .

حضارة الغساسنة :

كانت حضارة الغساسنة متاثرة إلى بعد الحدود بالحضارتين : الساسانية والبيزنطية . وقد عنوا بالزراعة لصلاح موقع بلادهم لهذا النوع من العمل ، واستغلوا مياه حوران

1- عبد اللطيف الطيباوي : محاضرات في تاريخ العرب قبل الاسلام 12/2 بيروت ، 1966.

2- محمد مبروك نافع : تاريخ العرب في عصر ما قبل الاسلام ص 96 والهمذاني : صفة جزيرة العرب 10/179.

3- محمد بيومي مهران : دراسات في تاريخ العرب القديم ، 564

4- عبد اللطيف الطيباوي : مرجع سابق ، ص 11

5- د. عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي للدول العربية ، 1/89.

6- ابن الأثير : الكامل في التاريخ 2/192

7- اليعقوبى : تاريخ اليعقوبى ، 2/192

8- نفسه 1/298

9- ابن اسحق : فتوح مصر ، ص 43

10- نقلأً عن عبد المنعم ماجد : التاريخ السياسي ، 1/89

(1) في الزراعة ، فعمرت القرى والضياع . وكان اهتمام أمراء غسان بالبيان عظيماً، فعلى الرغم من إقامتهم في البوادي ، فإنهم أقاموا كثيراً من الأبنية من قصور وقنطر ، وأبراج وغيرها ، وينسب حمزة الأصفهاني إلى ثلاثة عشر أميراً تشييد القصور والأبنية العامة .

وقد أفادتنا أشعار حسان بن ثابت ، والنابغة الذبياني في وصف حياة الغساسنة في السلم والحرب، وهو وصف يلقي ضوءاً على حضارتهم ، ومن ذلك قول حسان(2) :
أَسْأَلْتُ رَسَمَ الدَّارِ أَمْ لَمْ تَسْأَلْ
بَيْنَ الْجَوَابِيِّ فَالْبَضِيعِ فَحَوْمِلِ
إِلَى أَنْ يَقُولُ :

يُوماً بِجَلْقٍ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ
مَشَنِيَ الْجَمَالَ إِلَى الْجَمَالِ الْبَرْزَلِ
ضَرْبًا يَطِيعُ لَهُ بَنَانُ الْمَفْصِلِ
وَالْمَنْعَمُونَ عَلَى الْضَّعِيفِ الْمَرْمَلِ

لِلَّهِ دُرُّ عَصَابَةِ نَامِتَهُمْ
يَمْشُونَ فِي الْحُلَلِ الْمَضَاعِفِ نَسْجُهَا
الضَّارِبُونَ الْكَبِشَنَ يَبِرْقُ بِيَضْهُ
وَالْخَالِطُونَ فَقِيرَهُمْ بَغْنِيهِمْ

عَصَابَتُ طِيرَ تَهْتَدِي بِعَصَابَتِ
بَهْنَ فَلُولُ مِنْ قِرَاعِ الْكَتَائِبِ
مِنْ الْجُودِ وَالْأَحَلَامِ غَيْرِ عَوَازِبِ
فَمَا يَرْجُونَ غَيْرَ الْعَوَاقِبِ
يَحِيَّنَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ
وَأَكْسِيَّةِ الْأَضْرِيجِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ
بِخَالِصَةِ الْأَرْدَانِ خُضْرِ الْمَنَاكِبِ

وَمَا قَالَهُ النَّابِغَةُ فِيهِمْ (3) :
إِذَا مَا غَرَّوْا بِالْجَيْشِ حَلْقَ فَوْقَهُمْ
وَلَا عَيْبَ فِيهِمْ غَيْرَ أَنْ سَيِّوفَهُمْ
لَهُمْ شِيمَةٌ لَمْ يَعْطِهَا اللَّهُ غَيْرُهُمْ
مَحْلَتُهُمْ ذَاتُ الْإِلَهِ وَدِينُهُمْ قَوِيمٌ
رَاقِقُ النَّعَالِ طَيِّبُ حَجَرُهُمْ
تَحِيَّهُمْ بِيَضْنُ الْوَلَادِ بَيْنَهُمْ
يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمُهَا

1- ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة حوران 317/2

2- ديوانه : 122 تحقيق سيد حنفي حسنين

3- ديوانه ، تحقيق محمد ابو الفضل ، ابراهيم ، ص42 وما بعدها

ملكة المناذرة

قامت هذه المملكة في بادية العراق ، بتشجيع الفرس ، لتكون درعاً تحميهم من غارات البدو ، وجنوداً تقف في صفوفهم في أثناء حربهم ضد الرومان والغساسنة (1). وكانت هذه المملكة تتالف من القبائل العربية التي هاجرت من اليمن في عهد مبكر ، على أثر تصدع سد مأرب ، وكان ذلك في القرن الثالث الميلادي (2) ، واتخذت لها عاصمة على سيف صحراء العرب ، عرفت " بالحيرة" (3) ومعناها المخيم (4).

ويلاحظ أن تاريخ هذه المملكة يرتبط إلى حد كبير بتاريخ زعماء قبيلة " الخم" (5) الذين ظهر أنهم من نسل ملوك التابعية، فبنوا فيها القصور المشهورة على نسق قصور اليمن ، مثل القصررين المشهورين " الخورنق والسدير" (6).

وتاريخ ملوك هذه المملكة أوضح في مجموعه من تاريخ الغساسنة ، ولعل ذلك يرجع إلى أن ملوك الفرس دونوا تاريخهم، فأخذوه عنهم العرب (7) ، وان المناذرة أنفسهم كانوا يدونون أخبارهم، ويودعونها في البيع والاديرة ، التي كانت منتشرة في منطقهم (8).

وأشهر ملوكهم المنذر بن النعمان الملقب بابن ماء السماء (9) (554-505) وهو الذي الذي سار في مئة الف من أتباعه ، ليحارب البيزنطيين وحلفاءهم الغساسنة ، حيث حدثت المعركة المشهورة عند العرب بيوم حليمة .

ولعمرو بن هند شهرة واسعة ، وقد أصبحت الحيرة في عهده مركزاً مهمأً للآداب ، وقد وف عليه عدد من الشعراء من مختلف أرجاء الجزيرة العربية ينشدونه الشعر ، وبينالون جوائزه ، منهم طرفة بن العبد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة... ويقال : " ان عمراً هذا هو الذي توسط بين بكر وتغلب ، وأصلح بينهما بعد حرب البسوس (10) وقد كان الرجل ظالماً شديداً الزهو ، والكرياء ، وقصته مع عمرو بن كلثوم معروفة ، فقد انتقم منه ، وانتصر لكرامة المرأة العربية في شخص أمه .

ولقب بالمحرق ، لأنه أقسم ليحرق مئة من بنى تميم ، وبرّ بيمنه ، في يوم أوراة الثاني ، وقصته مع الحمراء بنت ضمرة النهشلي ، التي أتم بها العدد مئة مشهورة (11).

وجاء بعد عمرو بن هند آخره " قابوس بن المنذر ، ثم المنذر الرابع ، ولم يحكم طويلاً ، ثم آل الحكم إلى النعمان الثالث ، ابن المنذر الرابع ، المكنى " بأبي قابوس" (508-602) وهو آخر ملوك الحيرة اللخميين ، وأكثرهم شهرة في كتب الآداب . ووفد على

1- د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص 40

2- محمد مبروك نافع : مرجع سابق ، ص 93

3- ياقوت الحموي : معجم البلدان مادة " الحيرة .

4- ابن الأثير : الكامل في التاريخ / 1 204/1

5- ابن قتيبة : الاخبار الطوال ، ص 55

6- التویری : نهاية الارب / 1 385/1

7- شوقي ضيف: مرجع سابق / ص 44.

8- محمد مبروك نافع : مرجع سابق ص 97

9- ابن حبيب : المحبير ، ص 359

10- الاغاني : 42/11 دار الكتب.

11- انظر : رسالتي : حرکة الشعر فيبني نهشل من تميم في العصر الجاهلي ص 41

بلاطه كثير من الشعراء مثل : أوس بن حجر ، والمنخل اليشكري ، والمثقب العبدى ،
 وحُجْر بن خالد الذي مدحه قائلًا(1) :
 كمثل أبي قابوس حزماً ونائلا
 سمعت بفعل الفاعلين فلم أجد

وللنابغة الذهبياني فيه مدح كثير، الا أن جفاء بينهما قد حصل لوفود النابغة على
 الغساسنة ، واعتذر إليه ، مفتتحاً بذلك باباً جديداً في الشعر ، وقال في إحدى قصائده:
 تبئث أن أبو قابوس أو عدنى ولا قرار على زأر من الأسد
 و تعرض له بعض الشعراء بالهجاء ، منهم يزيد بن الحذاق الشني(2) ، وعبد قيس بن
 خفاف البرجمي(3).

وساعت العلاقة بينه وبين كسرى ، لأسباب اختلف المؤرخون حولها ، وفصلوا فيها
 إلى حد كبير.(4) فمنهم من يدعى أنها بسبب سجن أبي قابوس لعدي بن زيد العبادي ،
 الذي كان سبب وصوله إلى الملك . وكان ملوك الحيرة قد أصبحوا من الضعف بحيث
 أصبح ملوك فارس يضعون على عرش الحيرة من شاؤوا ، وكان عديّ يعمل مترجماً
 في ديوان كسرى ، فساعد أبو قابوس في الوصول إلى الحكم -وقتله إياه ، وقد استغل ذلك
 خصوم النعمان ، وأوغرروا صدر كسرى عليه فقتله ، وبذلك انتهت حكم المناذرة في
 الحيرة . وعين الفرس مكانهم رجلاً من طيء اسمه اياس بن قبيصة.

معركة ذي قار :

تتحدث الروايات انه لما ساعت العلاقة بين كسرى والنعمان ، كتب كسرى إلى النعمان
 يأمره بالقدوم إليه ، فأدرك النعمان سوء المصير ، فحمل سلاحه ، ثم مضى لبني طيء
 لشهر كان له فيهم ، وعرض عليهم أن يمنعوه ولكنهم أبو خوفاً . فأخذ يطوف بقبائل
 العرب ، يطلب النصرة إلى أن نزل بذي قار في بني شيبان سراً . فلقي هانيء بن مسعود
 بن عمر بن ربيعة ، أو هانيء بن قبيصة بن هانيء بن مسعود ، كما يقول أبو عبيدة .
 وكان هذا الرجل سيداً منيعاً ، فاستودعه ماله وسلاحه ، ولما قتل النعمان ، طلب كسرى
 من اياس بن قبيصة أن يجمع ما خلفه النعمان ، وأن يرسله إليه ، ومن ثم فقد بعث اياس
 إلى هانيء بن مسعود أن يرسل ما استودعه النعمان إياه ، فأبى هانيء ذلك ، وغضب
 كسرى ، وأرسل إليهم يخíرهم بين ثلاثة ، أحلاهـن مـر: الاستسلام ، أو الرحيل ، أو
 الحرب .

واجتمعت كلمة بني بكر على الحرب وعدم الاستسلام . واختلف المؤرخون في زمن
 معركة ذي قار هذه (5) ، وفي اسمها أيضاً(6) .

1- الحيوان : 58/3

2- المفضليات : المفضليية رقم 79 ، ص 292-298

3- الحيوان : 379/4

4- الطبرى : 194/2

5- ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، 1/ 482-490. الميداني: مجمع الأمثال ، 2/ 216. محمد احمد جاد المولى : أيام العرب في الجاهلية ص 25-29.

6 - انظر المصادر نفسها .

ومهما يكن الأمر فان هذه هي أول معركة تنتصر فيها القبائل العربية على الجيش الفارسي، فقد أعطاهم هذا النصر ثقة كبيرة بأنفسهم، وتجزأ القبائل العربية على الهجوم المباشر على بلاد الساسانيين .

حضارة الحيرة :

ازدهرت الحياة العلمية في الحيرة ازدهاراً لم تشهده مدينة عربية في العصر الجاهلي، إذ كانت تزخر بمعاهد العلم ومدارسه، فقد تلقى ايليا الحيري ، مؤسس دير مارا إيليا في الموصل دراسته الدينية في مدرسة بالحيرة ، كما تلقى مار عبد الكبير دراسته في إحدى مدارس الحيرة (1).

وفي الحيرة تعلم المرقش الأكبر ، وأخوه حرملة ، الكتابة على أحد النصارى من أهلها (2)، وكان بشر بن عبد الملك الكندي ، صاحب دومة الجندي يأتي الحيرة ، فيقيم بها حين ، فتعلم فيها الخط العربي، وعن طريقه تعلم سفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبو قيس بن عبد مناف بن زهرة الكنائي (3)، وذكر ياقوت أن الصبيان في الحيرة كانوا يتعلمون القراءة والكتابة في كنيسة قرية من قراها اسمها النقيرة (4).

وكان ملوك الحيرة من البيت اللخمي يشجعون الشعراء بالعطايا والصلات، فوفد إليها من شعراء الجاهلية المرقش الأصغر ، وعمرو بن قمية ، والمتنم ، وطرفة بن العبد ، وعبيد بن الأبرص ، والمرقش الأكبر ، والمتنقب العبيدي ، والمنخل اليشكري ، والنابغة الذبياني ، وحسان بن ثابت ، والأسود بن يعفر النهشلي ، وأعشى قيس ، وعمرو بن كلثوم التغلبي ، والحارث بن حلزة اليشكري ، وضمرة بن ضمرة النهشلي .

وقد صور هؤلاء الشعراء الذين زاروا الشام والعراق أو أقاموا فيها -هذه البيئات الجديدة في مختلف نواحي الحياة السياسية والفكرية والاجتماعية ... ورسموا لنا لوحاتٍ شعريةً ، عبروا فيها عما شاهدوه من أمورٍ غريبةٍ مستطرفةٍ ، وعاداتٍ ، وتقاليدٍ كانت سائدة ... وقد تأثرت أغراض الشعر -عند هؤلاء الشعراء بهذه الحياة الجديدة ، وأصبح لها طابعٌ يميزه من غيره من الشعر ، الذي نظم داخل الجزيرة... وظهر -لأول مرة- شعر ذو طابع سياسي ، عبر عن محاولات بعض القبائل الوقوف في وجه المنادرة ، ومحاولات بعض الشعراء استثارة قبائلهم للثورة على الظلم (5) .

1- يوسف رزق غنيمة : الحيرة ، ص 54

2- الاغاني : 375/5

3- البلاذري: فتوح البلدان ، 579/3

4- معجم البلدان : مادة نفيرة ، وراجع أيضاً: مادة دير هند الكبرى.

5- د. عادل ابو عمشه: صلة المنادرة والغساسنة بالشعراء واثرها في الشعر الجاهلي ، رسالة

ماجستير - جامعة الامام محمد بن سعود، 407

مملكة كندة :

يکاد النسابون يجمعون على أن كندة قبيلة قحطانية تسب إلى كندة ، وهو ثور بن عفیر بن عدي بن الحارث ، الذي ينتهي نسبة إلى كهلان بن سبا (1) ورأى آخرون أنهم مهاجرون من البحرين والمشرق(2)، ورأى فريق ثالث أن الكنديين عدنانيون، وأنهم كانوا يقيمون في دهرهم الأول في غمر كندة . أي في موطن العدنانيين (3).

والذي يمكن الاطمئنان اليه أنهم قحطانيون ، اختلاف الباحثون في تحديد زمن هجرتهم (4)، لكن الفوتش المكتشفة تدل على انهم غادروا موطنهم في النصف الاول من القرن الرابع الميلادي(5)، واتجهوا شمالاً واستقرروا في نجد . ونرى الاخباريين يختلفون ايضاً في الاسباب التي أدت إلى هجرتهم (6)، وربما كان أكثر الاسباب وجاهة ان ملك ملک حمير قد اقام حُجراً زعيمًا على عدة قبائل ، كان قد أخضعها في وسط الجزيرة العربية، فقامت بذلك دولة يحمل زعيمها لقب "ملك" تفرض سلطانها على منطقة واسعة ، للسيطرة على الطرق التجارية الشمالية ، التي كانت ترتاده قوافل اليمن التجارية، حتى يأمنوا اعتماد قبائل البدو الشمالية عليها وبهذا فان تولية حُجر تكون سياسة يمنية حكيمة ، فقد كانت أسرة حُجر يمنية وكان هو من أسرة تولت الملك في بلادها الاولى ، ثم ان هذه الاسرة قد استقرت في الشمال منذ فترة عرفت فيها اتجاه العصبيات ، وفهمت العقلية الشمالية (7).

وهكذا يكون ملوك حمير قد حفروا من اقامة دولة كندة ، ما حققه الروم من اقامة دولة الغساسنة ، والفرس من اقامة دولة اللخميين ، وتصبح كندة لتابعه اليمن (8) .

لم تكن مملكة كندة التي بسطت سلطانها على مساحة واسعة من بلاد نجد مملكة على غرار مملكتي المناذرة والغساسنة ، بل كانت أقرب ما تكون اتحاداً قبلياً(9)، تشغله فيه قبيلة كندة مركز الصداره ، وتتولى فيه الحكم أسرة من أسرها ، وهي محاولة جادة لجمع شمال القبائل العربية تحت زعامة واحدة مركبة، يتولاها سيد واحد.

وأشهر ملوكها في القرن الخامس حُجر، الملقب باكل المرار ، وقد استطاع أن يفرض سيادته على القبائل الشمالية في نجد ، وخلفه ابنه عمرو ، وولي الحكم من بعده ابنه الحارث ، وفي عهده بلغت كندة ذروة مجدها، فقد خضعت له قبائل نجد. وتقول الروايات: إن القبائل من نزار تقاسد أمرها، وغلب عليها السفهاء، فلجاً أشرافها إلى الحارث بن عمرو ، وشكوا إليه حالهم، ورجوه أن يملك عليهم أبناءه حقاً للدماء،

1- ابن خلدون : المقدمة ، 267/2 ، و ابن حزم : جمهرة انساب العرب ، 419 والقلقشندی : نهاية الارب ، 409.

2- الهمذاني : صفة جزية العرب ، ص 85-88

3- ياقوت الحموي : معجم البلدن ، 212-4

4- محمد مبروك نافع : تاريخ العرب ، عصر ما قبل الاسلام ، 117

5- فيليب حتى : تاريخ العرب ، 1/114

6- تاريخ اليعقوبي : 216/1. وابن قتيبة : المعرف ، ص 275. وابن حبيب : المحبر ، 368

واللوسي : بلوغ الارب ، 240-2 وابن الاثير : الكامل : 511-1

7- د. عمر فروخ: تاريخ الجاهلية ، ص 83

8- جورجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ، ص 226

9- هذا رأى د. صالح العلي، نقاً عن : عفيف عبد الرحمن : الشعر و ايام العرب ، ص 60

ومخافة أن يفني بعضهم بعضاً، فأجابهم الحارت إلى ذلك . وقد أجمعوا هذه الروايات - على الرغم مما يشوبها من الخلط في تحديد بعض القبائل التي ملك عليها الحارت أبناءه . علماً أن الحارت قد ملك ابنه حُجراً علىبني أسد من خزيمة، وكان حُجراً قد اشترط علىبني أسد أن يدفعوا له الإتاوة في كلّ عام، ولكنبني أسد قد تمردوا على دفع الإتاوة، وثاروا على رسل الملك ، الذين أرسلهم لجبايتها، وضربوهم ضرباً مبرحاً، وكان حُجراً يومذاك بتهمة، فلما سمع بهم، جمع لهم الجند من ربعة وقيس وكنانة، ولم يستطع بنو أسد أن يقفوا في وجه هذا الحشد الكبير، الذي جاء به حُجراً، لا عن ضعف وقلة في العدد، كما قال عزة حسن في مقدمته لديوان بشر بن أبي خازم، وإنما لأن حُجراً كانت له قوة عظمى لا يقدرون عليها . فلقد كان أبوه ملكاً على الحيرة من قبل فارس، وكان اخوته ملوكاً على سائر القبائل النزارية . وتمكن حُجراً من كسر شوكتهم ، واقتاد رؤسائهم وضربهم بالعصا نكأة بهم ، وأباح أموالهم، ونفاهم إلى تهامة وإلى على نفسه ألا يسكنوه في أرض قط ، وحبس جماعة من أشرافهم، واستعطفه عبيد بن الأبرص، الذي كان نديماً له بقصيدة جاء فيها (1) :

أَسْدَ فَهُمْ أَهْلُ الدَّامَةِ
نَعْمَ الْمُؤْبِلُ وَالْمُدَامَةُ
الْأَسْلُ الْمُتَقْفَةُ الْمَاقِمَهُ
لَا إِنْ فِيمَا قُلْتَ آمَهُ

يَا عَيْنُ فَابْكِي مَا بَنَى
أَهْلُ الْقَبَابِ الْحَمَرِ وَالْ
وَذْوَيِ الْجِيَادِ الْجُرْدِ وَالْ
حِلَّاً أَبْيَتُ اللَّعْنَ حِ

إلى أن يقول :

وَمِنْعَتَهُمْ نَجْدًا فَقَدْ
أَمَّا تَرَكَتْ تَرَكَتْ عَفْ
أَنْتَ الْمَلِيكُ عَلَيْهِمْ

وهذه ثورةبني أسد الأولى لم يكن وقتها قد حان ، فقد جاءت مبكرة ، حين كانت أسرة المرار تبسّط نفوذها ، وسطوتها على سائر قبائل نزار ، ويؤيدهم في ذلك ملك الفرس . بيد أن الأمر في جزيرة العرب قد تغير ، بعد أن خلع اتو شروان-الذي آل إليه الحكم بعد أخيه قباد -الحارث بن عمرو عن ملك الحيرة ، وولي مكانه المنذر بن ماء السماء ، وكان في هذا كلّه بداية لزوال سلطة آل أكل المرار عن الحيرة، وظل ابن ماء السماء

(1) ما زائدة.

- أهل القباب الحمر : كناية عن انهم سادات . والقباب الحمر: دليل على السيادة.
- النعم : الابل . المؤبل: المقتى، الكثير. المداممة : كناية عن كرمهم لأن شرب الخمر كان علامه كرم.
- الاسل : الرماح
- الحلـ. ما يكفر به عن اليدين . يريد من الملك ان ينقض ما أمر به في شأنبني اسد.
- الآمة : العيب.

12/8 (2) الاغاني :

يطارد الحارث بن عمرو حتى قتل. وبعد مصرع الحارث، ضعف أمر أبنائه، الذين ملّكهم على القبائل النزارية، ومن ثم أصبحت الفرصة سانحة لبني أسد في إذكاء نار هذه الثورة، التي أدت إلى مقتل حُجر على يد بني أسد ، وانتهاء ملكه عليهم (1) وتقول الروايات أن امراً القيس بن حُجر، الشاعر المعروف، حاول أن يثار لأبيه ، وإن يستعيد هذا الملك. ولكن الظروف كلّها لم تكن لتعينه على ذلك، فقد وقفت بنو أسد وقفه صارمة في وجهه ، وكان المنذر بن ماء السماء يعمل على تقليل نفوذ أسرة آكل المرار، فقادت فتنه يوم الكلاب الأول بين عمي: شرحبيل وسلمة. حيث قتل الثاني الأول. وثارت بقية القبائل الأخرى على أعمامه كلّ هذا لم يكن ليعين امراً القيس على النيل من بني أسد ، وإرجاع ملك أبيه. فاتجه إلى قيصر الروم ، يطلب إعانته على الثأر لأبيه ، وتشير الروايات إلى أن قيصر الروم قد استجاب إليه في بادئ الأمر ، ولكن بني أسد تمكّنوا من ملاحقة في بلاط القيصر وقد تم ذلك على يد الطماح بن قيس، والد الشاعر الجميح الأستدي، وتمكن من الإيقاع به . وأيا ما كان الأمر ، فقد مات امرؤ القيس وانقطع آخر أمل في استعادة (بني آكل المرار) لملكهم في كندة . وهكذا انتهت أول محاولة في داخل بلاد العرب لتوطيد مجموعة من القبائل حول سلطة مركزية واحدة .

1- انظر تفاصيل القصة :
ابن الأثير : الكامل في التاريخ 2518/12 احمد جاد المولى : أيام العرب في الجاهلية 1222 وما بعدها
جواد علي. المفصل 32./36. تاريخ اليعقوبي : 1/22.



الفصل الثالث:
الحياة الدينية

الحياة الدينية

تناولت كتب كثيرة الأديان التي عاشت في بلاد العرب في عصر ما قبل الإسلام ، بالحصر والتعريف ، وأفاضت وأطربت في الحديث ، بحيث يعتقد الدارس انه ما من دين ، أو ملة ، أو عقيدة ظهرت منذ آدم - عليه السلام - إلا وتمثلت فوق أرض العرب.

بيانات حصرها القرآن الكريم :

لا يوجد مصدر أصدق ، أو أوثق من القرآن الكريم ، الذي حصر هذه الديانات في : ملة إبراهيم ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين ، والمجوس ، والمرشكين . ولدينا في الشعر العربي في ذلك العصر ما يشير إلى أن هذه العقائد المختلفة كانت تراود خواطر الشعرا ، وتمثل قسطاً من تقديرهم الديني ، بحظوظ متفاوتة لكل عقيدة .

الوثنية

كان أكثر الجاهليين وثنين ، وكانت عبادة الأصنام منتشرة بينهم انتشاراً واسعاً ، وقد أشار القرآن الكريم إلى بعض آلهتهم ورموزها من أصنامهم وأوثانهم ، فيقول سبحانه وتعالى : {أَفَرَأَيْتُمُ الالَّاتَ وَالْعَزِيزَ وَمِنَةَ الْثَالِثَةِ الْأُخْرَى} (1) ويقول سبحانه وتعالى : {وَلَا تَذَرْنَ وَدًا وَلَا سُواعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعْوَقَ وَنَسْرًا} (2)

وجاء في التفسير أن هذه الأصنام ، إنما كانت أسماء لرجال صالحين من قوم نوح ، فلما هلكوا صنعوا لهم تماثيل ، وعبدوهم ، ثم توفرت عبادتهم حتى انتهت إلى عرب الجاهلية(3).

أشهر أصنامهم :

اللات : وكانت عبادة اللات شائعة بين العرب الجنوبيين ، وفي الحجاز ، وكان معبدها في الطائف ، ويقال : إنه كان صخرة مربعة بيضاء ، بَئْثَتْ عَلَيْهِ تَقِيفٌ بَيْتًا ، وكانت قريش ، وجميع العرب يعظمونه ، ويتردد في أسمائهم ، مثل : وهب اللات(4) .

مناة : وكانت صخرة منصوبة على ساحل البحر بين المدينة ومكة ، وربما كان في اسمها ما يدل على أنها ترمز إلى إله الموت ، فهي إلهة القضاء والقدر(5) ، وكانت معظمة عند هذيل ، والأوس ، والخزرج . وكان حسان بن ثابت يعدها في الجاهلية ربّه ، ويقسم بها (6) :

1- سورة النجم : آية 53

2- سورة نوح : 23

3- تقسير ابن كثير (الحلبي) : 426/4

4- ابن الكلبي : الأصنام : ص 16 ، وابن حبيب : المحرر ، 315

5- شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص 90

6- ديوانه : شرح عبد الرحمن البرقوقي ، ص 201

العزى : وكانت شجرة عليها بناء في ستار بنخلة ، كان القرشيون يعظمونها ، وبعث الرسول - ﷺ - خالد بن الوليد ليقطعها فأعمل فيها فأمسه ، وقال (1) :
أَتَى رأْيْتَ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ
يَا عَزِّ كُفَرَائِكَ لَا سُبْحَانَكَ

هبل : وكان سيد أصنام الكعبة ، وكان من عقيق ، منصوباً في جوف الكعبة ، مكسور اليد اليمنى. وهو الذي هتف أبو سفيان باسمه في معركة أحد ، قائلاً : أَعْلَمُ هبل ، فرد عليه المسلمون الله أعلى وأجل (2) .

سُواع : وهو صنم هذيل وكنانة ، وهو حجر ، كانوا يعبدونه هم وعشائر كثيرة من مصر (3) .

وهناك أصنام كثيرة لا نرى في استقصاء المزيد منها فائدة ، ويقال : إنّه كان في الكعبة عند فتح الرسول (ﷺ) لمكة ثلاثة وستون صنماً (4) .

مفهوم الشرك :

لم يكن الجاهليون يؤمنون بأن هذه الأوثان والأصنام (5) خالقة مدبرة قادرة ، ولم يكن الشرك إشراكاً في وحدانية الله ، فالدلائل تشير - ويكتفي أن يكون القرآن الكريم قد نصّ على ذلك. إلى أن عرب الجاهلية كانوا يؤمنون بالله الواحد القوي، الخالق الذي بيده الأمر ، وكان اتخاذهم للأصنام على أنها وسائل وشفاعات (6)، تقربهم إلى الله سبحانه {ويعبدون من دون الله ما لا يضرّهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله} (7) .

التوحيد

عني المؤرخون بتسجيل ورود الأصنام إلى بلاد العرب ، مما يدل على أنها بدعة مستوردة من بلاد الشام (8)، وأن احترامها كان شيئاً عارضاً بينهم ، فقد ورد أنّ قريشاً كانت على دين إبراهيم يحجون البيت ، ويقيمون المناسك ، " وخرج عمرو بن لحي إلى أرض الشام ، فوجدهم يعبدون الأصنام ، ويتقربون إليها ، فأحب أن يفعل قومه مثل

1- ابن كثير (الحلبي) : 254/4

2- سيرة ابن هشام : 93/2

3- ابن الكلبي : الأصنام ، 57

4- الازرفي : الأزمنة والأمكنة ، 75/1

5- يفرق بين الصنم والوثن في أن الأول يكون على هيئة تمثال، والوثن يكون حبراً وقد يسمى الصنم الصنم بالوثن أيضاً. انظر الأصنام ، ص 3، و 53 في تحديد كل منهما.

6- بلوغ الأربع : 192/2

7- سورة يوئس : 18

8- تاريخ اليعقوبي : ص 56

ذلك، فجاءهم بصنم" وأمرهم بعبادته. والذي يهمنا من هذا القول المجتزأ أن عبادة الأوثان قد انتقلت إلى جزيرة العرب من الأمم المجاورة، " وإنها تطورت لتصل في نهاية العصر الجاهلي إلى صورة أقرب ما تكون إلى التوحيد"⁽¹⁾.

والدلائل تشير إلى أن الوثنية في الجاهلية على العموم ، لم يكن يتمسك في دينه بعقيدة نابعة من شعور ديني عميق، أو عاطفة روحية شديدة ، قائمة على عقل سديد، أو تقدير سليم ، وإنما هي عادة تأصلت في نفوسهم ، تقليداً لغيرهم ، أو تمسكاً بسلوك آبائهم، أو أجدادهم السابقين⁽²⁾.

انهيار الوثنية :

ولا نكاد نقترب من النصف الثاني للقرن السادس للميلاد حتى نجد الوثنية تبدأ بالتحلل والانهيار في نفوس أصحابها ، وقد رصد ما وصل إلينا من شعر جاهلي بعض هذه المظاهر :

1- امرؤ القيس وذو الخلصة :

وأما الحادثة التي تدل على استهانته بالأصنام، وميله إلى رفض احترامها ، فقد ذكرت المصادر أنه كان يجدّ بعد مقتل أبيه في طلب ثأره، واستعان بأحد أقیال حمير، الذي أعطاه جيشاً أكثره من صالحيك العرب وذويهم. فسار بهم نحوبنيأسد ، ومر في طريقه بذى الخلصة. وهو صنم كانت العرب تعظمه. فاستقسم عنده بأذلامة، وهي ثلاثة أقداح : الأمر، والناهي ، والمتربيص. فلما أجالها خرج الناهي ، فأجالها ثانية فخرج الناهي، وكذلك في الثالثة. فغضب امرؤ القيس ، فجمعها، وكسرها، وضرب بها وجه الصنم ، ثم قال⁽³⁾ :

لو كنت ياذلخلص الموتورا
مثلي وكان شيخك المقبورا لم
تئن عن قتل العدة زورا

ثم غزابنيأسد ، فظفر بهم، وكان أول من أهان صنماً.

2- الكلاني والصنم سعد :

ومثل هذه الحادثة ، كانت تتكرر في العرب، ولا سيما الشعرااء ، مما يدل على رفض عبادة الأصنام ، والميل إلى إهانتها، واحتقارها . فهذا رجل من كلانية ، يقدم على صنمها المسمى "سعداً" وهو صخرة طويلة بساحل جهة ، ومعه إبل يريد أن يقفها عليه تبركاً ، فلما أدناها منه نفرت، وذهبث في كل وجه ، وتفرقث ، فأسف وتناول حمراً

1- د. إبراهيم عبد الرحمن : الشعر الجاهلي قضایاه الفنية والموضوعية ، ص37

2- انظر تفصيل هذا القول : بلوغ الأربع 2/227.

3- ابن الكلبي : الأصنام ، ص 35

رمى به الصنم ، وقال : لا بارك الله فيك إلها، أنفرت عليّ إبلي . ثم خرج في طلبها ، فجمعاها وانصرف عنه ، وهو يقول ⁽¹⁾ :

فشتتنا سعد فلانحن من سعد
من الأرض لا يدعى لغي ولا رشد

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا
وهل سعد إلا صخرة بتوفة

وهذا صنم لمزينة اسمه **ئهم** يثور عليه سادنه ، حين يسمع بالإسلام فيحطمها ، ويقول ⁽²⁾ :

عثيرة نسك كالذى كنث أفعى
أهذا الله أبكم ليس يعقلُ
إله السماء الماجد المتفضل

ذهب إلى ئهم لأذبح عنده
فقلت لنفسي حين راجعت عقلها
أبيت فديني اليوم دين محمد

3- وليس ثمة شيء أدل على الاستخفاف بالوثنية من أن يأكل الناس الإله الذي صنعوه بأيديهم ، ذلك أنّ بنى حنيفة اتخذوا صنماً من الحيس (التمر) ، فعبدوه دهراً طويلاً ، ثم أصابتهم مجاعة ، فأكلوه ، فقال قائل ⁽³⁾ :

زمن التفحم والمجاعة
سوء العواقب والنياعة

أكلت حنيفة ربها
لم يذورها من ربّهم
وقال قائل من تميم :
أكلت ربها حنيفة من جو

4- وعبيد بن الأبرص يهجوبني جديلة ، ويعيب عليهم اتخاذ "اليعوب" صنماً للعبادة ⁽⁴⁾ :

وتبدلوا اليعوب بعد إلههم صنماً فقرروا يا جديل واعذبوا

ولا شك أن هذا كله يؤكّد أن الوثنية الجاهلية كانت على وشك الانحلال ⁽⁵⁾.

الوثنية في أواخر العصر الجاهلي كانت أقرب إلى التوحيد :

فأوس بن حجر ، يؤمن بقدرة الله على إنزال المزنة في غير وقت المطر ⁽⁶⁾ ، وبطافة ربّ ، ويشير إلى عصيان الآخرين له ، وشعورهم بمرارة هذا العصيان وشعوره بحلوة الطاعة ⁽⁷⁾ . ويدرك اتقاءه لله ⁽⁸⁾ ، ووقاية الله لما يصادف الإنسان ، وأن الله أكبر من كل الأصنام التي يعبدوها الناس .

1- سيرة ابن هشام : 85/4 . والأصنام : 37

2- ابن الكلبي : الأصنام ، ص 40-41

3- صاعد الأندلسي : طبقات الأمم ، ص 43

4- احمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص 43

5- شعر ضيف : العصر الجاهلي ص 97

6- ديوانه : تحقيق محمد يوسف نجم ، ص 79

7- نفسه

8- نفسه : 64

والطفيل الغنوبي يؤمن بأن الله هو القوي القادر الذي يسد الثغرات ، ويصلح ما فسد⁽¹⁾، وهو وحده القادر على سد الثلمات، وهو الذي يجزي على خير الأفعال⁽²⁾. ومدح الأعشى لم يكن يبغى بما فعل ، وبما أسدى من الخير إلا وجه الله يتقرب إليه بهذا العمل الصالح⁽³⁾، والشاعر يدافع عن أعراض قومه ويضع في خدمتهم لساناً قاطعاً، ولا يبغى بما فعل منهم جزاءً أو ثواباً ، وإنما ثوابه فيما يفعل على الله⁽⁴⁾. والله قادر أن يذيق خصومه مذلة⁽⁵⁾ وهو يفرج الكرب⁽⁶⁾ وهو الرحمن ،⁽⁷⁾ ويذيع ويدعو إلى تقوى الله ، وليس كنقواه شيء⁽⁸⁾ ويجاهر بنبذ الشرك⁽⁹⁾. ويؤمن سلامة بن بن جندل بقدرة الله على إفقار الأغنياء ، ولم الشعث⁽¹⁰⁾ ومشيئته في كل شيء ، وان الله هو القادر على النصر ، وتصريف الأمور⁽¹¹⁾، ويشير حاتم الطائي إلى علم الله بالأشياء⁽¹²⁾ ويؤمن بالبعث والحساب ، فالله يحيى الخلق بعد موتهم ، وان كانوا عظاماً⁽¹³⁾ ويذكر عروة بن الورد غفران الرب للذنب⁽¹⁴⁾ ويذكر النابغة الذبياني وقالية الله ، وحفظه⁽¹⁵⁾ ، ويسأله البقاء⁽¹⁶⁾ وبإهاده الغivot البواكر ، ويستجير به ، فهو الذي يزيد الخير ، ويصلح ما يأمر به ، ويجمع الشمل ويثرم الأموال ، وان العبد يقدم الذور الله سبحانه وتعالى⁽¹⁷⁾.

واما القسم بالله فهو جانب آخر من جوانب المعتقد الديني ، الذي ارتسمت معالمه من خلال إيمان الشعراء ، وهو قسم له أبعاده الدينية ، لما يترتب عليه من مسائل ، وله أبعاد الذاتية لما يستشعر به الإنسان ، وهو يؤدي هذا القسم ، وله أبعاد الحسية لما يفعله في نفوس الآخرين ، ويتركه في وجданهم .

فرهير يقسم بالله ويؤكد قسمه خمس مرات⁽¹⁸⁾ وامرؤ القيس يقسم أربع مرات ، واوس بن حجر يقسم ثلاثة مرات⁽¹⁹⁾ وطرفة يقسم بالله مرة واحدة⁽¹⁾.

1- ديوانه: 39

2- نفسه: 85

3- ديوانه : تحقيق محمد حسين ، 111

4- نفسه : 117

5- نفسه : 99

6- نفسه : 237

7- نفسه : 123

8- نفسه : 329

9- نفسه: 329

10- ديوانه : 109

11- نفسه

12- ديوانه 65 .

13- نفسه

14- ديوانه: 45

15- ديوانه : 92

16- نفسه : 131.

17- نفسه : 135,209,252

18- ديوانه 88 ، 121

19- ديوانه : تحقيق أبو الفضل إبراهيم ، 14,32,84,815

ويأخذ القسم شكلاً آخر عند بعض الشعراء، لأنهم يقسمون مثلاً بالله العزيز كما أقسم حاتم الطائي⁽²⁾، أو بالذي لا يعلم الغيب غيره⁽³⁾، أو بالذي تساق له الهدايا⁽⁴⁾ أو المؤمن العاذات بالطير كما أقسم النابغة⁽⁵⁾ أو برب المسجد الحرام، كما أقسم قيس بن الخطيم⁽⁶⁾ أما الأعشى فيقسم بالبيت الحرام الذي تهوي إليه الإبل من كل صوب ، وبما تساق إليه من قرائبين⁽⁷⁾ ورب الساجدات في العشيّات⁽⁸⁾ وبمن جعل الشهور علامه ومواقيت⁽⁹⁾.

أن هذا الإيمان ، وبهذا الشكل المطلق ، يمنح القارئ صورة عريضة لما كان يسود الناس من معتقد ، ويدخلهم من إيمان ، لأن هذا التحديد الواضح للقسم والتوثيق المؤكّد لقدرة الله سبحانه وتعالى يضيق دائرة الشرك ، التي تطالعنا من خلال الأخبار التي وصلت إلينا. ولا بد أن يكون الناس الذين يشاركون هؤلاء الشعراء معتقدهم يسلمون به ويختضعون لما يخضعون إليه من المعتقدات ، وأنهم يمثلون طائفة كبيرة ، ويشكلون قاعدة واسعة وإلاً لما ساد دواوينهم مثل هذا القسم ، حتى أصبحوا يستخدمونه في الموضع التي يجدون أنفسهم بحاجة إليه ، ويعتقدون بأنهم عاجزون عن إثبات قدرتهم على ما كانوا يريدون التعبير عنه. وقد وجدوا في هذه الوسيلة طريقاً موصلاً ، وسلموا برتفون به إلى الحقيقة التي توصل بين قضيتيهن ولعل بعض قصائد النابغة في هذا المجال خير دليل على صدق هذه المقوله⁽¹⁰⁾.

الخنيفية هي الدين القومي :

إن دراسة الحالة التي وصل إليها المجتمع العربي قبل الإسلام تؤكد جملة من الحقائق التي تشير في مجملها إلى أن العرب كانوا على أبواب مرحلة ممهدة لتقبل الحدث العظيم ، واستقبال الرسالة المحمدية .

وكان هؤلاء الموحدون يشكلون قاعدة الانطلاق ، التي أخذت على عاتقها مسؤولية الاستعداد لهذا الحدث. و يحدثنا ابن هشام عن طائفة من هؤلاء الموحدين الذين كانوا ينتشرون في مكة ، وأنحاء أخرى من الجزيرة⁽¹¹⁾ والذين انطبعوا فكرة عبادة الإله الواحد في تفكيرهم ، وهم يتذمرون ما خلق الله ، فكانوا يسخرون من الأصنام وعبادتها، ويترفعون عن تقديسها.

1- ديوانه /90/ 113

2- ديوانه : 65

3- نفسه : 86

4- ديوان النابغة : 263

5- نفسه : 20

6- الاصمعيات : ص 197، البيت 25

7- ديوانه : 191، 125، 63

8- نفسه : 177

9- نفسه : 17.

10- نفسه : 17

11- ابن هشام : السيرة النبوية ، 222/1 وما بعدها

شعر ورقة بن نوفل الديني

كره ورقهُ بْنُ نوفل عبادة الأوثان ، وطلب الدين في الآفاق ، وقرأ الكتب ، وامتنع عن أكل الذبائح والأوثان⁽¹⁾. وهو ابن عم السيدة خديجة بنت خويلد ، زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويقال : إنها كانت تأثيره ، فتقصرّ عليه ما يراه الرسول قبل أن يبعث ، فكان يبترّها بأنّهنبي هذه الأمة . ولم يدرك الإسلام⁽²⁾. ومما يصوّر اتجاهه التوحيدية ، هذه المقطوعة التي قالها قبل نزول الوحي⁽³⁾ :

أنا النذيرُ فلا يغرنِكُم أحدُ
فإن دعوكم فقولوا بيننا حدُ
و قبلُ قد سبّح الجوديُّ والجمدُ
لا ينبغي أن ينلّواي ملکه أحدُ
يبقى الإله و يودي المالُ والولدُ
والخندُ قد حاولت عادٌ فما خلدو

لقد نصحت لآقوامٍ وقلت لهم :
لا تعبدن إلهاً غيرَ خالقكم
سبحان ذي العرش سبحانناً نعوذ به
مسخرٌ كلٌّ ماتحت السماء له
لا شيء مما ترى تبقى بشاشته
لم تُعن عن هرمز يوماً خزانه

شعر زيد بن عمرو بن نفيل الديني :

شكّ زيدٌ في عبادة الأصنام ، وفارق دين قومه، فاعتزل الأوثان ، والميّة والدم ، والذبائح التي تذبح على الأوثان، ونهى عن الوأد، ومال إلى الحنيفة⁽⁴⁾.

أدينُ إذا تُقسّمت الأمورُ
ذلك يفعلُ الجلدُ الصبورُ
ولا صنمٌ بني عمرو أزورُ
لنا في الدهرِ إذ حلمي يسيئُ
ليغفر ذنبي الربُّ الغفورُ

ولقي من زوجه وأهله أذى كبيراً⁽⁵⁾ .
مما يصوّر اتجاهه التوحيدية قوله⁽⁶⁾ :
أرباً واحداً أم الفت ربّ
عزّل اللاتِ والعزّى جميعاً
فلا العزّى أدين ولا ابنيها
ولا هبلاً أدين وكان ربّاً
ولكن أعبد الرحمن ربّي

شعر صرمة بن أبي أنس الديني :

ارتباً صرمة في عبادة الأصنام ، وكان قد ترّهـ في الجاهلية ، ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ، واغتنـل من الجنابة ، وتجنبـ الحائض ، وكان يقول : أعبد ربـ إبراهيم ، حين فارق الأوثان ، وكرـها ، وكان قـلاً للحق ، مـعـمـاً الله عـزـ وجـ في الجاهلية.

1- مصعب الزبيري : نسب قريش ، ص207 والاصابة 3/634

2- الإصابة : 643/3

3- خزانة الأدب : 38/2

4- السيرة النبوية : 1/293 نسب قريش : 346 الإصابة : 1/569 وخزانة الأدب : 3/99

5- أسد الغاب : 238/3

6- السيرة النبوية : 1/241 نسب قريش : 364

فَلَمَّا بُعْثَ الرَّسُولُ الْكَرِيمُ أَسْلَمَ، وَحَسْنَ إِسْلَامُهُ، وَهُوَ شِيخٌ كَبِيرٌ⁽¹⁾. وَمَا يَصُورُ
أَنْجَاهُهُ التَّوْحِيدِيَّ قَوْلُهُ⁽²⁾ :

أَلَا مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ وَصَاتِي فَافْعُلُوا
وَأَعْرَاضُكُمْ وَالْبَرُّ بِاللهِ أَوْلُ
وَإِنْ كُنْتُمْ أَهْلَ الرِّئَاسَةِ فَاعْدُلُوا
فَأَنْفُسَكُمْ دُونَ الْعَشِيرَةِ فاجْعُلُوا
وَمَا حَمَلُوكُمْ فِي الْمُلْمَاتِ فاحْمِلُوهَا
وَإِنْ كَانَ فَضْلُ الْخَيْرِ فِيهِمْ فَأَفْضُلُوا

يَقُولُ أَبُو قَيْسٍ وَأَصْبَحَ غَادِيًّا
فَأَوْصِيكُمْ بِاللهِ وَالْبَرِّ وَالنَّقِيرِ
وَإِنْ قَوْمُكُمْ سَادُوا فَلَا تَحْسُدُهُمْ
وَإِنْ نَزَّلْتُ إِحْدَى الدَّوَاهِيَّ بِقَوْمِكُمْ
وَإِنْ نَابَ غُرْمٌ فَادْحُ فَارْفَقُوهُمْ
وَإِنْ انتَمْ أَمْعَرْتُمْ فَتَعْفُفُوا

طَلَعْتُ شَمْسَهُ وَكُلَّ هَلَالٍ
لَيْسَ مَا قَالَ رَبُّنَا بِضَلَالٍ

وَقَوْلُهُ⁽³⁾ :
سَبَّحُوا اللَّهُ شَرْقَ كُلَّ صِبَاحٍ
عَالَمَ السَّرِّ وَالْبَيَانَ لِدِينِا

وَصَلَوْهَا قَصِيرَةً مِنْ طَوَالِ رِبَّا
يُسْتَحْلِ غَيْرُ الْحَلَالِ عَالَمًا يَهْتَدِي
بِغَيْرِ السُّؤَالِ إِنْ مَالَ الْيَتَمْ يَرْعَاهُ
وَالِّي .

إِلَى أَنْ يَقُولُ :
يَا بَنَى الْأَرْحَامَ لَا تَقْطَعُوهَا وَاتَّقُوا
اللهُ فِي ضَعْفِ الْيَتَامَى وَاعْلَمُوا أَنَّ
لِلْيَتَمِ وَلِيًّا ثُمَّ مَالَ الْيَتَمِ لَا
تَأْكُلُوهُ .

شعر أمية بن أبي الصلت الدينى

وَكَانَ أُمِيَّةُ قَدْ نَظَرَ فِي الْكُتُبِ وَقَرَأَهَا ، وَلِبَسَ الْمُسْوَحَ تَعْبِدًا . وَكَانَ مَمْنَ ذَكْرِ إِبْرَاهِيمَ ،
وَإِسْمَاعِيلَ ، وَالْحَنِيفِيَّةَ ، وَحِرَمَ الْخَمْرَ ، وَشَكَ فِي الْأَوْثَانِ ... وَطَمَعَ فِي النَّبُوَّةَ ، لَأَنَّهُ
قَرَا أَنَّ نَبِيًّا يُبَيِّعُ مِنَ الْعَرَبِ ، وَكَانَ يَرْجُو ، أَنْ يَكُونَ هُوَ ذَاكَ النَّبِيُّ الْمُنْتَظَرُ ، فَلَمَّا بُعْثَ
النَّبِيُّ - ﷺ - قِيلَ لَهُ : هَذَا الَّذِي كُنْتَ تَسْتَرِيَثُ ، وَتَقُولُ فِيهِ ، فَحَسَدَهُ ، وَقَالَ : كُنْتُ أَرْجُو
أَنْ أَكُونَهُ⁽⁴⁾ . لَهُذَا نَرَى أَنَّ أَكْثَرَ مَا وَصَلَ إِلَيْنَا مِنْ حَيَاتِهِ يَتَعَلَّقُ بِهَذَا الْجَانِبِ .
وَفِيهِ قَالَ الْأَصْمَعِيُّ : ذَهَبَ أُمِيَّةُ فِي شِعْرِهِ بِعَامَةِ ذِكْرِ الْآخِرَةِ⁽⁵⁾ . وَتَجْمَعُ الْمَصَادِرُ عَلَى
أَنَّهُ مَاتَ كَافِرًا ، وَلَمْ يُؤْمِنْ حَسَدًا لِأَنَّهُ كَانَ يَطْمَعُ فِي النَّبُوَّةِ ، وَيَرْجُو أَنْ يَكُونَ هُوَ النَّبِيُّ
الْمَبْعُوتُ . فَلَأَخْذُ يَرْشُحُ نَفْسَهُ لِهَذِهِ الْمَكَانَةِ . وَمَمَا يُؤْكِدُ أَنَّهُ كَادَ يَسْلِمُ قَوْلُ الرَّسُولِ -
ﷺ - وَكَادَ أُمِيَّةُ بْنُ أَبِي الصَّلَتِ أَنْ يَسْلِمَ ، أَوْ فَلَقَدْ كَادَ يَسْلِمَ فِي شِعْرِهِ⁽⁶⁾ .

1- السيرة النبوية : 156/2 والإصابة : 183/2

2- الإصابة : 183/2

3- السيرة النبوية : 157/1

4- ابن سعيد : نشوة الطرب ، 513/2 الإصابة : 129/1

5- خزانة الأدب : 119/1

6- صحيح مسلم : 49-48/7

وَمَا يَصُورُ اتِّجَاهَهُ التَّوْحِيدِيَّ قَوْلُهُ⁽¹⁾ :

بِالْحَمْدِ صَبَّحْنَا رَبِّيٍّ وَمَسَانًا
مَمْلُوَةً طَبَقَ الْأَفَاقَ اشْطَانًا

إِلَى أَنْ يَقُولَ :
يَا رَبَّ لَا تَجْعَلْنِي كَافِرًا أَبَدًا

وَاجْعَلْ سرِيرَةَ قَلْبِي الدَّهْرَ إِيمَانًا

اليهودية

قدم اليهود إلى الجزيرة العربية بعد أن طردتهم قياصرة الروم، فالتاجاً كثير منهم إلى الحجاز واليمن⁽²⁾. وقد استطاع اليهود في اليمن ، منذ عصر متقدم أن يهودوا أحد ملوك التبابعة، وهو ذو نواس، ويحرضوه على التنكيل بنصارى نجران، وتحريضهم بالأخود، وإلى هذه الحادثة أشارت الآية الكريمة {قتل أصحاب الأخود النار ذات الوقود إذ هم عليها قعود وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود وما نفمو منهن إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد }⁽³⁾. وسرعان ما استطاع الأحباش النصارى القضاء على ذي نواس سنة 525، وحينذاك كسرت شوكة اليهود في اليمن . ولم يبق لهم شأن يذكر هناك . وفي الحجاز نزلت قبائل كثيرة من اليهود ، أهمها بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قيقاع ، واستوطنوا في يثرب ، وخمير ، ووادي القرى ، وتيماء .

وقد حاول المستشرقون اليهود أن يثبتوا أن اليهودية كان لها صوتٌ وكيانٌ قويان في الجزيرة العربية ، والحق أنه لم يكن لهذه الديانة سيطرة نفسية على العرب ، فليس بين أيدينا ما يدل على انهم خلفوا آثاراً واضحة في الجahليين ، فقد ظل العرب الشماليون بعيدين عنهم ، وعن دينهم ، لا يتاثرون به في قليل أو كثير"⁽⁴⁾ ، بل ظل تأثير اليهودية خافتًا في الشعراء اليهود أنفسهم ، كالسؤال ، فليس في شعره شيء يوهم المرء بأن صاحبه من اليهود⁽⁵⁾ ، مما حدا ببعض الباحثين إلى الريبة في يهوديته⁽⁶⁾ .

ضعف تأثيرها :

وعلى الرغم من اختلاط اليهود بالعرب ، وتعاييشهم معهم ، وعلى الرغم من تعربهم بحكم مجاورتهم للعرب ، واحتقارهم بهم ، فإنهم لم ينجحوا في نشر اليهودية بين العرب ، لأسباب :

1- خزانة الأدب: 120/1:

2- ابن هشام : السيرة النبوية 165/1

الجاحظ : البيان والتبيين 76/4

3- سورة البروج : 5

4- جواد علي: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ، 91/6

5- كارل نالينو: تاريخ أداب اللغة العربية ص 71

6- فيليب حتى: تاريخ العرب المطول ، 152/1

عدم اهتمامهم بالتبشير بدينهم، اعتقاداً منهم بأنهم شعب الله المختار، وأنَّ سواهم من الشعوب غير جديرة بذلك(1).

احتقار العرب لهم باعتبارهم عملاء للفرس في اليمن، ولما عرفوا به من صفات ذميمة ، كالتهافت على جمع المال ، ونقض العهود ، والغدر(2) .

أن كثيراً من أحكامها شاق على العرب ، وأنها لا تبيح الانتفاع بغانائم الأعداء ، بل توجب إحرارها . والعرب يقاتل ليثار ، ويغنم، وينتفع بالمال والأسرى(3) .

النصرانية

انتشرت بين عرب الشام من العساسنة، وغيرهم ، مثل : عاملة ، وجذام، وكلب ، وقضاء . وكانوا على مذهب اليعاقبة ، ونفذت أيضاً إلى عرب العراق، إلى تغلب، واياد، وبكر. أما قلب الجزيرة فقلما تأثر بالنصرانية ، وبعد مركزيها: نجران الذي كان معقلاها، ويقع في جنوب الجزيرة ، وبصرى يقع في بلاد الشام(4). لذلك لم نقش النصرانية في قبائل مصر ، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد، فانهم كانوا نصارى (5).

وقد حاول كثير من المستشرقين ، ومن تابعهم من النصارى العرب أن يثبتوا أن النصرانية كان لها كيان وصوت قويان في الجزيرة العربية، سواء في جنوبها أم شمالها. وراح لويس شيخو يدخل في النصرانية من ليس منها في شيء" ، وكأنه زعم نصرانيا كل شاعر جاهلي، لم يوصف صريحاً باليهودية، وورد في شعره شيء مما يتقرب من اعتقاد وحدانية الله"(6) ، فقد عَدَ امراً القيس ، والنابغة وطرفة، وسلامة بن بن جندل ، وزهير بن أبي سلمى ، والأسود بن يعفر ، وأوس بن حجر ، وعبيد بن الأبرص(7) نصارى، لسقوط أسماء ومصطلحات نصرانية في أشعارهم ، مثل الصليب ، والناقوس ، والفصح...

والحق أن ما تلمسه لويس شيخو ، وغيره ، في شعر هؤلاء الشعراء ، وغيرهم لا ينهض دليلاً على دين معين ، وإن ورود إشارات نصرانية في شعرهم، ليست إلا على سبيل التشبيه ، والتصوير ، واستمداد المعاني ، وليس دليلاً على عقيدة دينية آمن بها هؤلاء الشعراء (8)، لأن التعرف على دين من الأديان ليس معناه الاعتراف بذلك الدين الدين واعتنقه (9). فما الدلالة الدينية مثلاً لقول الأعلم الهندي الجاهلي حين يشبه جلود جلود الضباع بسواد ثياب الرهبان ، فيقول (10) :

1- علي حسين الخربطي : العرب واليهود في العصر الإسلامي ، ص 24
2- نفسه .

3- احمد الحوفي : الحياة العربية ص 140

4- أحمد أمين: فجر الإسلام ، 27-26

5- احمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص 143

6- كارل نالينو : تاريخ آداب اللغة العربية ص 88

7- لويس شيخو : شعراء النصرانية ص 490، 510، 490، 485، 486، 450، وما بعدها

8- عبد الحميد المعيني : التمييزون أخبارهم وأشعارهم في العصر الجاهلي ص 87

9- احمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ص 419

10- ديوان هذيل : 314/1

ولم يكن للنصرانية سيطرة نفسية على أتباعها من العرب⁽¹⁾ فكانت مسيحيتهم سطحية⁽²⁾ ، لا تخلو من الوثنية⁽³⁾ ، فلم يجد عدي بن زيد حرجاً أن يقسم برب مكة مكة الوثنية ورب الصليب⁽⁴⁾:

علیٰ وربِ مکَّةَ وَالصَّلَبِ
سعی الاعداء لَا يأْلوُن شرًا
ضعف تأثيرها :

لم تستطع النصرانية أن تترك آثاراً واضحة في حياة العرب الجاهليين ، لأسباب أهمها :

أنها لا تلائم طباع العرب الميالين إلى التأثر والانتقام ، وما من عربي يرضى أن يدير لضاربه خده الأيسر ، إذا ضربه على خده الأيمن⁽⁵⁾ .
أنها ديانة دخيلة حملت طابع الغزاة⁽⁶⁾ .

المجوسية

والمجوس يدينون بالنار ، ويؤمنون بالهين يدبران العالم، هما : إله الخير وإله الشر⁽⁷⁾. ويقال : إن المجوسية كانت متقدشة في تميم ، وعمان ، والبحرين ، وبعض القبائل العربية⁽⁸⁾. أما ابن قتيبة فنراه يحصرها في تميم ، فيقول : "كانت المجوسية في في تميم ، ومنهم زراراة بن عُدُس التميمي ، حاجب بن زرارة ، وكان تزوج ابنته ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس ، وأبو الأسود جد وكيع بن حسان التميمي⁽⁹⁾ ونقل صاعد صاعد الاندلسي رأي ابن قتيبة ، ووصم تميناً بهذه الديانة⁽¹⁰⁾ .

أما الجاحظ فقد برأً تميناً مما وصفت به⁽¹¹⁾ ، وتابعه في هذا فخر الدين قباوة⁽¹²⁾ .
ونحن نتردد في الأخذ برأي ابن قتيبة لأسباب :

أن المجوسية ديانة قومية خاصة بالغرس ، ولم يهتموا بنشرها⁽¹³⁾ .

-1- أن زواج حاجب من ابنته ليس من عادات العرب ، ولا من مذاهبهم ،
وكانوا يرون في هذا الزواج حرجاً⁽¹⁾.

1- د. عبد الحليم خفني : الشعراء المخضرمون ، ص41

2- بروكلمان : تاريخ الأدب العربي 69/1

3- شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص 101

4- الأغاني : 1/2 دار الكتب

5- احمد الحوفي : الحياة العربية ، 149

6- بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، 1/69

7- جواد علي : المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام 284/2

8- نفسه .

9- ابن قتيبة : المعارف ، 266

10- نفسه .

11- الجاحظ : رسالة الرد على النصارى ص 15

12- سلامه بن جندل : ديوانه ، تحقيق فخر الدين قباوة ، ص103

13- جواد علي : المفصل ، 595/6

- 2
- أن هذا الزواج مخالف للعرف الاجتماعي السائد عصرئذ، ولو حصل لترك أثراً في نفوس التميميين، ومن جاورهم من القبائل المعادية، كقبيلة بكر، ولو جودنا تعرضاً به.
- 3
- ماذا سيكون موقف أوس بن حجر من اعتناق بعض الدارميين المجوسيّة بعد أن هجا البكريين أشد الناس عداوة لتميم، لشيوخ المجوسيّة فيهم ، وكان قد قال⁽²⁾ :
- فَكَلِمُهُ لِأَبِيهِ ضِيْزِنُ سَلْفُ
وَالْفَارسِيَّةُ فِيهِ غَيْرُ مُنْكَرَة
وَهُلْ سِيَصْمَتُ الْبَكْرِيُّونَ عَنْ زَوْاجٍ كَهُذَا ؟
- 4
- أن ختنوس ليست ابنة حاجب، وإنما هي ابنة أخيه لقيط⁽³⁾ ، تزوجت من عمرو بن عدس، وتزوجت ثانية من عمير بن معبد بن زراره⁽⁴⁾، ورثته بعد موته⁽⁵⁾ .

- 1- الالوسي : بلوغ الأربع 3/352
- 2- اوس بن حجر : ديوانه ، ص 75
- الفارسية : الملة الفارسية ، أي المجوسيّة ، الضيزن : الذي يزاحم أباء في امرأته . سلف : الرجل منهم يأتي أمه وحالته ، فهو ضيزن لأبيه بالأم ، وسلف له بالحالة
- 3- ابن حبيب : المحبر ، 436 وابن قتيبة الشعر والشعراء 2/599
- 4- ابن حبيب : المحبر ، 436
- 5- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، 2/600



الفصل الرابع:

**قضايا الشعر الجاهلي
(تحديد العصر وأولية الشعر)**

إن تحديد عصر أدبي يعتمد أساساً على مجموع الخصائص الفنية المشتركة بصورة عامة في فترة زمنية محددة، وفي بيئه يساعد على انتشار هذه الخصائص فيها علاقات اجتماعية ، لها أهميتها في توحيد سماتها العامة. والعصر الأدبي يستمد باستمرار تلك الخصائص حيّة شائعة في البيئة ، وينتهي أو يتغير بظهور مؤثرات جديدة تنقلها من عصر أدبي إلى عصر أدبي آخر⁽¹⁾.

وحين نتحدث عن القصيدة الجاهليّة ينبغي لنا أن نشير إلى أننا نتحدث عن القصيدة المكتملة التي أرسى مهلهل وامرؤ القيس تقاليدها الفنية ، ثم أورثوها أجيال الشعراء بعدهما، أما النماذج التي سبقت هذين الشاعرين ، فان القليل النادر الذي تنقله مصنفات القدامى منها ، لا يشير إلى نضج واستواء يتيحان للدراسة فرصة الفوز بما يعين على تحديد أبعاد فكرية وفنية واضحة⁽²⁾ ، وذلك ما يعزز لدينا قيمة الحقائق التي قررها القدامى قبلنا ، وضمنوها نتائج بحثهم في هذه المسألة الدقيقة ، كقول ابن سلام: " لم يكن لأوائل العرب من الشعر الا الأبيات يقولها الرجل في حادثة ، وإنما فُصّلت القصائد ، وطُولَّ الشعر ، على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف⁽³⁾" . وقول الجاحظ: " أما الشعر ، فحدثت الميلاد صغير السن ، أول منْ نهج سبيلاً ، وسَهَّل الطريقَ إليه امرؤ القيس بن حُجر ومهلهل بن ربيعة ... فإذا استظرهنا الشعر ، وجدنا له – إلى أن جاء الإسلام – خمسين ومئة عام ، وإذا استظرهنا بغاية الإستظهار ، فمائتي عام⁽⁴⁾ ، وقول ابن رشيق الذي جمع فيه بين القولين السابقين: " زعم الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً وقطعاً ، وأنه إنما فُصّد على عهد عبد المطلب بن عبد مناف ، وكان أول منْ فُصّدَ مهلهل وامرؤ القيس ، وبينهما وبين الإسلام مئة ونِيفَ وخمسون سنة"⁽⁵⁾."

اعتراض المحدثين

وقد أثار الباحثون المعاصرُون جملة اعتراضات على هذا ، لأن الشعر الجاهليّ الذي في حوزتنا بعضه الآن بلغ مرحلة ناضجة مكتملة من الوزن والتعبير والتركيب والبلاغة والأداء. يقول جوبيدي : " ان قصائد القرن السادس الميلادي جديرة بالإعجاب ، وتتبّع بأنها ثمرة صناعة طويلة . فان ما فيها من كثرة القواعد والأصول في لغتها ، ونحوها ، وتراكيبها ، وأوزانها ، يجعل الباحث يؤمن بأنه لم تستو لها تلك الصورة إلا بعد جهود عنيفة ، بذلها الشعراء في صناعتها . وإن في موسيقا الشعر ما يفسر بعض هذه الجهود...⁽⁶⁾".

1- د. سيد حنفي : الشعر الجاهلي ، مراحله واتجاهاته الفنية ، ص.6.

2- انظر النماذج التي وردت في طبقات ابن سلام ، تحقيق محمد شاكر ، ص 33-34 . والبيان والتبيين ، تحقيق عبد السلام هارون ، 3/328. والعقد الفريد تحقيق محمد سعيد العريان 3/258.

3- ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، 1/74.

4- الجاحظ : الحيوان 1/74.

5- ابن رشيق : العمدة ، 1/189.

6- د. شوقي ضيف : الفن ومذاهبه في الشعر ص 18.

ويرى حسين مروة أنه لا يجوز لنا أن نظن أن البنية اللغوية، والصفات الفينولوجية، والبنية الأسلوبية للغة الشعر والتراث الجاهلي في القرنين الخامس والسادس للميلاد ولدت كلها من البداية في هذين القرنين: لقد ظهر الإسلام في شبه الجزيرة فوجد اللغة المعاشرة عن دعوته بمبادئها، وتفسيراتها للعالم، وتشريعاتها، حاضرة وقدرة على أداء كل ذلك. سواء بدلالياتها السابقة المباشرة، أم بالدلاليات الجديدة غير المباشرة ، مما حملت من مبادئ وعقائد وتشريعات : أي انه وجد أداته اللغوية والبيانية الناضجة ، لا للتعبير عن الظروف التاريخية الناضجة لظهوره فحسب، بل للتعبير عن احتمالات الظروف التاريخية الآتية بعد ظوره كذلك" ⁽¹⁾.

فاستواء الشكل الفني، والصنعة الدقيقة لهذا الشعر يثبتان أن هناك مراحل أكثر تقدماً سبقت عصر امرئ القيس ومهمل ، وهي مراحل نما فيها الشعر، وتطور من صورته الأولى (الرجز او الحداء) حتى وصل إلى هذا المستوى المكتمل عند أقدم شاعرين، وصل إلينا شعرهما. يقول كارل نالينو: "إن من يسرّح أبصاره في رياض الشعر الجاهلي لا يجد في شذراته التي نجت من أيدي الصياع ما يدلّ على كونه فناً صغير السن" ، فان جميع ما نقل إلينا منه يظهر لنا في غاية الانقان وزناً ، وتفقيه، وفي نهاية التفنن... وليس من الممكن مثل هذا الكمال في صناعة حديثة ، لأن من المعلوم أن كل مبتدئ لشيء لم يسبق إليه، وكل مبدع لأمر لم يتقدم فيه عليه، لا بد أن يكون قليلاً ثم يكثر، وصغاراً ثم يكبر... وخلاصة الأمر أن العلماء من العرب الذين قالوا مائة وخمسين سنة تقريباً للشعر الجاهلي يبعدون عن الصواب، إذا فرضنا أنهم أرادوا بذلك ما وصل إلينا من الأشعار القديمة" ⁽²⁾.

أما د. عمر فروخ فقد ذهب إلى أبعد من ذلك، فرأى أن الشعر الجاهلي ليس وليد مئتي سنة قبل الهجرة ، ولا ألف سنة أيضاً ، بل انه قديم جداً . ويرى أن الشعر الذي وصل إلينا " من الجاهليّة يمثل دوراً راقياً ، لا يمكن أن يكون قد بلغ إليه في أقل من ألف سنة على الأقل" ⁽³⁾.

وراح هؤلاء الباحثون المعاصرون وغيرهم يبحثون عن أصول الشعر في السجع ، أو الحداء ، أو الغناء⁽⁴⁾، والرجز⁽⁵⁾، ونحن لا نريد أن نناقش هذه الاعتراضات، ولكن لنا أن نطمئن إلى أن العلماء الذين قرروا هذه الحقيقة أقرب بالباحثين إلى العصر الجاهلي ، فهم أدرى بما يتحدثون عنه، وأنهم احتاطوا لأنفسهم، حين توّخوا الدقة العلمية ، فقرروا أنهم يتحدثون عن أولية القصيدة ، لا أولية الشعر

1- حسين مروة : النزوات المادية في الفلسفة العربية الإسلامية ، ص 184

2- كارل نالينو: تاريخ الأدب العربية ص 68

3- عمر فروخ : المنهاج الجديد 27/1

4- انظر : نجيب محمد البهيتى : تاريخ الشعر العربي ص 4-5 ، ونوري حمودي القيسي : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص 43 وما بعدها .

- كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي 50/1

5- أشار أبو عبيدة معمر بن المثنى إلى ابن حذام، الذي ذكره امرؤ القيس في ميمنته ، انظر جمهرة أشعار العرب ، لابي زيد القرشي ، تحقيق محمد الجاوي 65/1

العربي . فضلاً عن أن العلماء الذين عاصروهم حاولوا ان يفوزوا بما يغير من الحقيقة ، أو يعذّلها ، فانتهى تناقضهم إلى أسماء شعراء أسبق من مهلهم وامرئ القيس ، لم تتحقق ذاكرة الرواة إلا بآيات لكل منهم ، قالها في حادثة ، فكانت نتيجة ذلك كله دعم موقف ابن سلام ، ومنْ تابعه من العلماء .

فساد التقسيم السياسي للأدب :

إن تقسيم عصور الأدب بحسب التاريخ السياسي فيه افتئات على تطور الشعر ، وعلى طبيعة هذا التطور ، لأنه لا يرتبط بالأحداث السياسية ارتباطاً كاملاً . ويجب التنبيه إلى أن هذه الحدود الزمانية التي وضعها مؤرخو الأدب " ليست إلا حدوداً صناعية اصطلاحية أثبتوها على وجه التقرير ، فإن عصراً ما من تاريخ الأدب لا يحصر في مواقف معينة بذلك ... لأن التغيير في الأدب ، والانتقال من حال إلى حال لا يحصل إلا بالتدريج البطيء حتى لا يشعر - في الأغلب - بالفرق بين الدرجة القادمة ، والدرجة التالية لها " ⁽¹⁾ .

وأول منْ خرج على هذا التقسيم السياسي المستشرق " جب " ثم تبعه بلاشير الذي يقول : إننا لا نحتاج إلى إمعان النظر ، والتفكير ، لكي ندرك أن مثل هذا التقسيم يقوم على خطأ عشواء ، لأنه لا يستوفي الاعتبارات الأدبية ... فالرسالة النبوية ، مثلاً ، أحدثت انقلاباً عظيماً في حياة العرب السياسية ، والدينية ، والاجتماعية ، ولكنها لم تدفع الشعراء المخضرمين إلى الخروج على مذاهبهم التقليدية في الشعر " ⁽²⁾ .

1- كارل نالينو : تاريخ الأدب العربية ص 60-61
2- بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، العصر الجاهلي 92/1

توقف التجربة الشعرية الجاهلية :

وعلى الرغم من أننا نستطيع أن نقرّر دون تردد أنّ بزوع نور الإسلام هو النهاية الحاسمة للعصر الجاهلي ، يبدو أن علينا ان نترى قبل الحكم بانهاء النمط الشعري الجاهلي بمجرد ظهور الإسلام . والعصر الجاهلي بمعناه الأدبي " لم ينته بمجرد ظهور الإسلام ، بل استمرّ التقاليد الفنية الجاهلية بعد ظهور الإسلام أجيالاً كثيرة..."⁽¹⁾ ذلك ان ظهور الإسلام تحول جذري في حياة العرب ، ولكن التحولات الجذرية التي تمتلك القدرة على إنهاء نظام ما بشكل حاسم تستنزف في العادة وقتاً أطول لجسم ما انبثق عن ذلك النظام من توجهات فكرية واجتماعية ، كما أن التحول نفسه لا يمكن أن ينبع منقطع الجذور عن المرحلة التي يسعى للتغييرها ، ولهذا فان من السذاجة المفرطة أن نتصور بأن كلّ ما جاء به الإسلام وجد طريقه إلى عمق الحياة العربية ، حتى غدا جزءاً من شخصية الأمة بمجرد ظهوره وانتشاره .

وحقيقة الأمر أن التطور الأدبي لا يمكن أن يكون ظاهره فجائية يقترب بتغير نوع الحكم، وبمجيء دولة ، وذهب آخرى⁽²⁾ ، ولم يكن من السهل على أولئك الشعراء أن ينقلوا من طور إلى طور بين ليلة وضحاها . وأن يبدّلوا أفكاراً ومبادئ بأفكار ومبادئ أخرى ، كما يخلع الإنسان ثوباً قدّيماً باليأ ليلبس بدلاً منه ثوباً جديداً قشياً⁽³⁾ .

ثُرى مَنْ هُوَ الْإِنْسَانُ الْفَنَانُ الَّذِي نُسْتَطِيعُ اعْتَبَارَهُ خَاتَمَ الشَّعَرَاءِ الْجَاهَلِيِّينَ؟ وإلى متى استمرت التجربة الشعرية الجاهلية في النمو والتدفق؟ وكيف حدث التحول؟ أطلق على الفترة الزمنية التي سبقت الإسلام بمنتهي عام العصر الجاهلي ، ونعلم أن الإنسان الذي عاش في هذا الإطار الزمانى كان يتمتع بخصائص معينة، يتقارب فيها ابن الجزيرة ، وابن العراق ، وابن الشام ، وهي البيئات التي انتشر فيها الشعر ، او هي البيئات التي كانت مسرحاً لتجربتنا الشعرية الناضجة ، ومن هذه الخصائص اعتداد الإنسان بذاته ، وذوده عن شرفه ، وحبه للضييف ، وحبه للمرأة . وكان مسرفاً في حبه ، ومسرفاً في بغضه . وللحظ أن هذه الصفات ، وغيرها ، قد انعكست في أسعارهم ، حتى ليستطيع قارئ هذا الشعر ان يرسم صورة دقيقة واضحة لذلك الإنسان ، من خلال أثره الأدبي الذي كثيراً ما اعتبر به ، ومنحه الكثير من ذاته .

فقارئ شعر الصّعاليك لا تعيب عن إدراكه صورة الصعلوك الذي اطلع على التوزيع السيء للثروة ، فثار وتمرد . وقارئ شعر طرفة بنهض أمام بصره ذلك الإنسان المتمرد ، الذي ادرك عبئية الحياة فعكف على شرب الخمر ، ومعاقرة اللذائذ بين ذراعي المرأة . وقارئ شعر عنترة يلمس روح الانسان الشفافة ، وعاطفته النبيلة ، وعفته المتعالية ، وحبه الذي لا حدود له ، وشجاعته التي تفوق الأساطير . وقارئ شعر النابغة ، وزهير ، والأعشى ، ولبيد ، يرى بوضوح مجموعة من القيم حرص الشاعر العربي على تنميتها وصقلها .

1- د. محمد النويهي : الشعر الجاهلي ، 649/2

2- د. محمد مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، 18-19

3- د. عزة حسن : ديوان ابن مقبل ، ص12

فهؤلاء وغيرهم خلّفوا لنا قيماً، كانت برأيهم الانسان الفاضل في العالم، ولو قمنا بتلخيصها، أو بإيجاد مفردات لها لكان : الكرم، والتسامح، والبحث عن اللذة، والأخذ بالثار، والعصبة القبلية ، وحبّ القتال، وتفضيل الموت قتلاً ، وعدم الإيمان بالبعث... .

وكل هذه الخصائص استخلصناها من الشعر نفسه ، وهذا نسأله : أين يقف أو ينتهي الانسان ، الشاعر الذي ألحَ على إبراز هذه الخصائص وتنميتها ؟ ونرى أن الجواب يكون عندما تتوقف في شعره أو تمحى لتعلّم محلّها قيمٌ جديدة ، أو بمعنى آخر ، عندما يعثر على فلسفة خاصة في الحياة، فتحول مفاهيمه بشكل جذري . أما اذا استمر بتتنميّتها وتهذيبها وابرازها كمثل اعلى للانسان المتكامل ، فليس ثمة ما يدفعنا إلى الاعتقاد أنه توقف.

ومنْ يتبع أخبار الشعراء في هذه الحقبة الأولى من الإسلام، وهي أزهى الفترات الدينية على الإطلاق ، يخرج بحكم، لا تختلف عليه الروايات، وهو أن الشعراء في مجموعهم كانوا هم الاستثناء أو الشذوذ في الوضع المثالى الذي بلغه هذا الجيل المعاصر للرسول - ﷺ - عقيدة وسلوكاً⁽¹⁾.

وتجتمع الروايات على أن بعض هؤلاء الشعراء كان متّهماً في عقيدته نفسها، كأبي الطمّحان القيني الذي تصفه الروايات بأنه كان خبيث الدين في الجاهلية والإسلام⁽²⁾. والخطيبة الذي تصفه الروايات بأنه رقيق الإسلام لئيم الطبع وقد أنكر الزكاة . وأنكر خلافه أبي بكر⁽³⁾ وعتبة بن مرداس المشهور بابن فتنوة يصفه ابن عباس بالكفر والعصيان ، والروايات تصفه بأنه خبيث اللسان في جاهليته وأسلامه⁽⁴⁾ والمغيرة بن الأسود الأسيدي تصفة الروايات بأنه كان ماجناً فاسقاً فاجرًا مُدمِنَ حمر ، وكان يسخر من معالم الإسلام كسخريته من الصلاة ، حين قيل له : أتّق الله وَصَلَّى ، فقال بعد أن ضيقوا عليه : إما أن أصلّي ولا أطهر ، أو أتطهر ولا أصلّى ، ثم صلّى بغير وضوء⁽⁵⁾. ومنهم أيضاً أبو محن التقي الذي اشتهر عنه ولعنة الشديد بالخمر ، وروي عنه قوله : إذا مت فادفني إلى أصل ترويّ عظامي بعد موتي عروقها

كرمةٌ

وتذكر الروايات انه قد تدعى نَهْمَةُ في الخمر إلى ادعاء أنها حلال ، ملتمساً في ذلك بعض التأويل ، مع أن مثل هذا يعدّ كفراً ، لذا أفتى عليُّ بنُ أبي طالب بقتله هو وجماعته التي ادّعت حلّها ، ثم تراجعوا، وقلّوا بتحريمها ، فأقام عليهم الحدّ. فلما جُلد أبو محن ، قال شعراً يؤكد إصراره على الخمر ، من مثل قوله :

1- د. عبد الحليم حفني: الشعراء المخضرمون ، ص 50

2- الاغاني : 3/13

3- خزانة الأدب : 408/20 والكامن: 1232

4- الاغاني : 231/22

5- خزانة الأدب : 489/4

وإنِّي لذو صبرٍ وقد مات إخوتي ولست على الصهباء يوماً بصابرٍ
ومن المتهمين في عقيدتهم شبيل بن ورقاء الذي يوصف إسلامه بأنه إسلام
سوء ، وكان لا يصوم رمضان ، وحين أنكرت ابنته ذلك منه ، قال ⁽¹⁾ :

تأمنني بالصّوم لا درّ
وفي القبر صوم لا أباك طويلاً
درّها

ومنهم النجاشي الحارثي الشاعر ، الذي تصفه الروايات بأنه فاسق رقيق
الإسلام ، وكان يفطر رمضان علانية . حتى ضربه الإمام علي بن أبي طالب ثمانين
سوطاً ، وزاده عشرين ، فقال له النجاشي : ما هذه العلاوة يا أبا الحسن ؟ فقال : هذه
لجرأتك على الله في رمضان . ⁽²⁾

ومنهم حُرْيث بن زيد الخيل الطائي الذي قتل معلم القرآن ، الذي أرسله عمر بن
الخطاب ، وقتل عدداً ، من أصحابه ، ثم هجا فريشاً لأن هذا المعلم ، واسميه أبو سفيان
، قتل رجلاً طائياً من قرابة زيد الخيل . ⁽³⁾

وأميمة بن الأسكن تغلبه العصبية على الدين ، فيهجو رجلاً ، لمجرد أنه أعن
النبي والمسلمين على قومه هوازن في سريةبني المصطلق . ⁽⁴⁾

ومنهم أيضاً ، عمرو بن معد يكرب الزبيدي ، الذي قدم على النبي - عليه
السلام - وأمن به عند لقائه ، نجده ما إن يعلم بوفاة النبي حتى يرتد عن الإسلام ⁽⁵⁾ ، وقال
وقال في ذلك شعراً قبيحاً

وأبو بكر بن الأسود الذي أوجعه قتل زعماء قريش في بدر ، فقال بعد رثته عن
الإسلام شعراً يرثيم ، ويقعجع على قتلام ، مُنكرًا ما في الإسلام من حديث عن البعث ،
فمن ذلك قوله ⁽⁶⁾ :

وهل لي بعد قومي من سلامٍ
من القينات والشرّبِ الكرامِ
وكيف حياة أصداءٍ وهامٍ
ثُحِّيَا بالسَّلَامَةِ أَمْ بَكْرٍ
فماذا في بالقليبِ قليبِ بدرٍ
يُخْبِرُنَا الرَّسُولُ بِأَنْ سَنْحِيَا

أما شعراء الbadia فكانوا أقل الناس تشبيتاً بالدين ، وكانوا أسرع الناس ارتداداً
عن الإسلام ، لذا خصّهم القرآن الكريم بأكثر من وصف {الاعراب أشد كفراً ونفاقاً} ⁽⁷⁾
، وكقوله تعالى : {قالت الأعراب آمناً قلْ لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل

1- ابن قتيبة : الشعر والشعراء ، 452/1

2- نفسه : 330/1

3- نفسه : 286/1

4- الاغاني : 22/21

5- ابن هشام : السيرة النبوية ، 252/4 - 254

6- نفسه : 400/2

7- سورة التوبة: 97

الإيمان في قلوبكم⁽¹⁾ وحكم الله تعالى أكثر انتباهاً على شعراً البداءة ، لأنهم أضعف الناس تهؤلاً للامان العميق الثابت . وأخبار هؤلاء الشعراء تدل على أن نفسياتهم لم تنفع بالدين من اعماقها ، فأخذوا في أشعارهم يحنون إلى الجاهلية، فمن ذلك قول أبي حراش الهذلي، الذي كان صعلوكاً فاتكا ثم جاء الإسلام ، وأسلم ولم ير في قيوده التشريعية الأقيوداً وسلسل ، يقول⁽²⁾ :

ولكن أحاطت بالرقب السلاسل
سوى الحق شيئاً فاستراح العوازل

فليس كعهد الدار يا أم مالك
وعاد الفتى كالكهل ليس بقائل

ويروى عن أبي حراش أيضاً ، أنه رثى دُبِيَّةَ السلميَّ سادَنَ العزَّى ، الذي قتلَه خالد بن الوليد ، بعد أن هدم العزَّى ، صنمَ غطافَن⁽³⁾ .

وتميم بن أبي بن مقبل أسلم ، وعاش في الإسلام طويلاً ، كان في الإسلام يبكي أهل جاهليته . فقيل له : تبكي أهل الجاهلية ، وأنت مسلم ، فقال⁽⁴⁾ :

ومالي لا أبكي الديار وأهلها
وجاء قطا الأجباب من كل جانبٍ

فوقع في أعطاننا ثم طيرا
وهو يذكر أهل الجاهلية ، ويكتن عن الإسلام وما أحدثه ، ويمثل المسلمين وعمالهم وجيوشهم التي تجوب البلاد بقطا الأجباب.

ويidel شعر ابن مقبل على انه كان يعيش بروحه وفكره في الجاهلية ، وما زال في الإسلام يذكر أيامها ، ويحن إليها ، ويشعر بالوحدة ، والوحشة في المجتمع الجديد . وشعره ، الذي قاله في الإسلام ، يمجّد الحياة الجاهلية ويتلهف عليها .

أما الشماخ بن ضرار الذبياني فمن يقرأ شعره فلا يجد فيه سمة من سمات الدين الجديد ، وسماحته ، وتعاليمه النيرة . بل يقرأ شرعاً جاهلياً اللفظ والمعنى والغرض ... و"كانه لم يسمع القرآن الكريم"⁽⁵⁾ .

وإذا ما يممنا وجهاً شطر حسان بن ثابت ، الذي قضى في الإسلام - كما تقول الروايات - ستين عاماً ، وقضى مثلها في الجاهلية ، الفيناه ينطلق في فخره من القيم الجاهلية ، ففي همزيته تغلب عليه العصبية للقططانية ، اذ يقول :

لنا في كل يوم من معد سباب أو قتال أو هجاء

وهو في هذا يركّز هجومه على العدنانيين ، وكان عليه أن يشن هجومه على الكافرين ، سواء أكانوا قحطانيين أم عدنانيين .

وفي القصيدة نفسها يتغصب للأنصار دون المهاجرين ، ولم يستطع أن ينخلع عن موروثه الجاهليّ ، فيقول :

1- سورة الحجرات : 14

2- المبرد: الكامل ، 267

3- الاغاني : 109/21

4- ديوانه : مقدمة المحقق ، ص 11-10

5- صلاح الدين الهادي : الشماخ بن ضرار الذبياني ، ص 2.

وقال الله قد سيرت جنداً

هم الأنصارُ عرضتها اللقاء

فقد تجاهل دور المهاجرين ، وحصر انتصارات المسلمين بالأنصار دون سواهم . وأما في باب الفخر بقومه فلم يستطع الإسلام أن يغير من طبيعته، ومعنى هذا أن شعراء الإسلام قد عجزوا عن أن يتبدعوا لأنفسهم نوعاً جديداً من الشعر، يستمدون من الدين روحه ، ومن كتابه لغته⁽¹⁾.

وإذا ما نظرت في لامية كعب :

متبولٌ مكبولٌ متبولٌ مكبولٌ
بانتْ سعادُ فقلبي اليوم متَّ

التي أنشدها بين يدي رسول الله - ﷺ - أفيت كعباً قادماً من الجاهلية، يحمل على منكبيه عباءتها ، سواء أكان ذلك في لغة القصيدة، أم في بنائها الفني ، أم في صورها الشعرية ،فبدت صورة الرسول - عليه السلام - في القصيدة مغايرةً تماماً المغایرة للصورة المشرفة التي بدت في القرآن الكريم ، ولم ير كعباً في الرسول إلا صورة شيخ من شيوخ القبائل ، أو ملك من ملوك الغساسنة .

وقد حاول في بعض الأبيات أن يقدم بعض المعاني المستمدة من الإسلام، ظهر فيها الجهد العقلي ، وانعدام الصورة الفنية ، وضعف التدفق الوجданى ، ولم يسعه هذا طويلاً ، فقد عاد بعد ذلك، ليمدح الرسول الكريم وصحابه المهاجرين برؤية جاهلية ، لم تتحرر من الرواسب الجاهلية والقبلية.

ولو قرأت يائية مالك بن الريب ، التي رثى فيها نفسه ، ونظمت بعد نزول القرآن بعشرين السنين، لما وجدت فيها أثراً للإسلام، ولا يرى القارئ فيها أكثر من البناء الشعري الجاهلي، بكل عباراته، وموسيقاه، وصوره ، وتشبيهاته.

وإذا ما مددنا أبصارنا إلى الشعر الأموي نفسه ، ألفينا فخرهم، وهجاءهم ، ورثاءهم، وكثيراً من موضوعات شعرهم تغلغلت فيها " الروح القبلية الموروثة عن العصر الجاهلي".⁽²⁾

ولما كانت القصيدة هي المنفذ الابداعي المعبر عن آثار تفاعلات الحياة، صح لدينا التوقف عن الرابط العنيف بين ظهور الإسلام، وانهاء النمط الشعري الجاهلي ، وتلك مسألة تتبه لها الباحثون، وذهبوا مذاهب شتى في رصدها ، وتقرير مواقف معينة منها ، فقد ذهب محمد النويهي إلى أن التقاليد الفنية الجاهلية سادت قسماً كبيراً من الشعر العربي بعد ظهور الإسلام أجيالاً كثيرة⁽³⁾ ، وذهب بطرس البستاني إلى أن شعر المخضرمين جاهلي⁽⁴⁾ ، وذهب بلاشير إلى أن أثر الإسلام لم يظهر إلا بعد عشرين عاماً من وفاة الرسول - عليه السلام⁽⁵⁾. أي بعد سنة 50 هـ. وامتد خالد محبي الدين

1- انظر : د. محمد طاهر درويش : حسان بن ثابت ، 337 وما بعدها

2- د. احسان النص : العصبية القبلية وأثرها في الشعر الاموي ، 540 وما بعدها .

3- محمد النويهي : الشعر الجاهلي ، 249/2

4- بطرس البستاني : ادباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام ، 265/1

5- بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ترجمة ابراهيم الكيلاني 92/1

بالعصر الجاهلي الأدبي إلى ما بعد ظهور الإسلام بمنة عام⁽¹⁾ ورأى أن روح الإسلام لم تَسْدِ إلا بعد ظهور العباسين⁽²⁾.
ويبدو لنا أن انفراضاً جيل الشعراء المخضرمين ، الذين ولدوا و قالوا الشعر قبل الإسلام، قد يمثل بداية النهاية لتراث النفس الشعري الجاهلي .
أثر الشعر الجاهلي في أدب العصور التالية :

العصر الجاهلي هو الذي وضع الأساس، الذي قام عليه الشعر العربي كله، وهو المرحلة التي تجلت فيها العبرية العربية الخالصة في حالتها البكر بكل مزاياها ، وأبعادها ، وحدودها ، دون تأثير من عبرية أخرى.

والفن الجاهلي هو حجر الأساس في بناء الشعر العربي كله، وعلى خطوطه سار الشعر العربي بعد ذلك، وقام هذا الهيكل الضخم، الذي تركزت عليه مجهودات العصور التالية وانبسط فيه مشاعرهم .

إن شجرة الأدب العربي، التي نمت وازدهرت في عصور مختلفة ، بعد العصر الجاهلي، لم تستطع أن تنفصل تماماً عن جذورها التاريخية في أعماق الأدب الجاهلي ، مهما تصادف من مؤثرات، وثقافات فنية مختلفة ، لأن الشعر العربي هو الذات العربية نفسها .

وعلينا اليوم من أجل رؤية أشمل لأدبنا العربي في عصوره المختلفة ، بل من أجل فهم أفضل لأدبنا العربي الحديث نفسه ، أن نقوم بمزيد من التأمل في هذا التراث الفني البعيد الذي يشكل الجذور الشعرية ، والشعورية العميقه لوجودنا الأدبي ، ورؤيتنا الفنية .

إن الأدب العربي في العصر الجاهلي لا يمكن فهمه ، والوصول إلى أسراره، بغير حبّ عميق، واستغراق تام في جوانبه ، وتعاطف وجداً مع أصحابه .

1- مجلة المورد العراقية، المجلد الرابع، الجزء الثاني ، 54-61
2- بروكلمان : تاريخ الشعر العربي، ترجمة عبد الحليم النجار ، 36/1

أثر الشعر الجاهلي في التفسير :

كان المسلمون في زمن النبي - ﷺ - يسألونه عما خفي عليهم من ألفاظٍ ومعانٍ، فيوضح لهم ، ويفسّر ، ويشرح المعاني التي تختص بالعقيدة ، والعبادة وبعد انتقال الرسول للرفيق الأعلى اجتهد الفقهاء والعلماء في تفسير القرآن الكريم . ولما كان المطلوب تفسيره {قرآنًا عربيًّا غير ذي عوج} ⁽¹⁾ و {بلسان عربي مبين} ⁽²⁾ دعت الضرورة إلى الرجوع إلى الشعر، وكان أول من استخدمه ابن عباس - رضي الله عنه - فقال ⁽³⁾: الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن، الذي أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك فيه ". ولقد أدرك هذه القيمة للشعر الجاهلي ، وحضر عليها عمر بن الخطاب، عندما قرأ على المنبر قوله تعالى : {أو يأخذهم على تخوّف} ⁽⁴⁾ ، فسأل عن التخوّف، فقال له رجل من هذيل : التخوّف عندنا : التقصص ، ثم أنسده ⁽⁵⁾ :

تَخْوِفُ الرَّجُلُ مِنْهَا تَامِكًا فِرْدًا
كَمَا تَخْوِفَ عَوْدَ النَّبْعَةِ السَّفَّافُ

قال عمر: أيها الناس: تمسّكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم. ⁽⁶⁾

أثر الشعر الجاهلي في التأديب :

تؤكد الدراسات الأدبية، التي حاولت دراسة الشعر العربي في العصر الجاهلي، أن هذا الشعر استطاع أن يرسم الصورة الواقعية لحياة الناس ، ويرصد الاتجاهات النفسية والاجتماعية رصداً دقيقاً ، ويتبع الوضع الإنساني متابعاً توحى بالقدرة على استيعاب ذلك.

وقد أدرك عبد الملك بن مروان هذه الحقيقة في قوله لمؤدب ولده : " رُوَّهُم بالشّعر ، رُوَّهُم بالشّعر ، يَمْجِدُونَ وَيَنْجِدُونَ " ⁽⁷⁾. وقال مرة لمؤدب ولده : أدبهم برواية شعر الأعشى، فإن لكلمه عنونة ⁽⁸⁾.
وقال أيضاً : إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزّرق من بنى قيس بن ثعلبة - وهو رهط الأعشى -، وب أصحاب النخل من يثرب - الأوس والخزرج - ، وأصحاب الشعف من هذيل ⁽⁹⁾.

1- سورة الزمر : 28

2- سورة الشعراء : 195

3- السيوطي : الانقان ، 119/1

4- سورة النحل : 47

5- لسان العرب مادة (خوف) وتقدير الطبرى: 14/113

6- الشاطبى : الموافقات ، 2/88 .

7- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، 6/125

8- أبو زيد القرشي : جمهرة أشعار العرب ، ص 63

9- العقد الفريد : 6/124

وفي العصر العباسي لم يجد المفضل الضبي ما يؤدب به تلميذه المهدى، فاختار هذه المجموعة الشعرية، التي عرفت باسمه، ل تكون مادة للتأديب ، ثم توالت بعد ذلك كتب الاختيارات الشعرية ، " وكلها لم تكن في الواقع الا المدرسة الكبرى التي تخرج فيها الشعراً المحدثون في العصر العباسي" .⁽¹⁾

أثر الشعر الجاهلي في دراسة أحوال الجزيرة العربية :

يُعدّ الشعر الجاهليّ مصدراً من مصادر دراسة الجزيرة العربية : الدينية ، والاجتماعية والاقتصادية ، والفكريّة . فقد ظلّ الشّعر العربيّ خزانةً كبيرةً لوقائع التاريخ وأحداثه ، وقصصه ، وأخبار شعوبه البائدة ، وما صنعته هذه الشعوب ، وما تركته من أحداث ، ولكن يجب علينا ألا نأخذ الشعر كما هو ، على انه حقائق تاريخية ، أو حضارية ، لأن "الشاعر قد يبالغ ، وقد يتخيّل ، وهو إن تحدث عن حقائق فهو يبررها لنا من خلال افعاله الخاص ، ولكن رغم ذلك ، فهناك عدد من الحقائق الثابتة نستطيع أن نستخلصه من الشعر عن أحوال المجتمع ، إذا تخطينا المبالغات ، والانفعالات الخاصة .⁽²⁾

ومن هنا ندرك أن تراثنا الأدبي عميق المدى ، يجب أن نحرص عليه ، ونعتز به ، لأنه يحدد مكانتنا الأولى بين الأمم، ويجب أن نفهم أيضاً أن "الشعر الجاهلي ليس هزواً من الهزل ، وليس رغاء جماعة من البداؤة المتعرجفين ، طباعهم العنجوية ، ونظام حياتهم بدائي ، تتعدّم فيه مظاهر النظام الاجتماعي ، الذي تتميّز به حياة الأمم المتحضرة ، وليس مجموعة من هراء القول ، جاشت به صُورٌ جماعة من الشعراء القوالين غير الفعاليين ، أرادوا به إزعاج الفراغ ، وملهاة النفس ، وليس لعبة مصنوعة مفتعلة صاغها جماعة من منتحلي الشعر ومزييفيه استجابة لعوامل وقتية ، وإنما هو الباب الفَدَّ من حياة أمّة فَدَّة. هو العمدة التاريخية الأولى في تصوير حياة العرب بأيديهم ، في ذلك العهد تصویراً مباشراً ، إذا عرضته على التاريخ العام استجاب له ، وإن عرضته على تاريخ الحضارة استجاب له "⁽³⁾

أثر الشعر الحاهلي في تصوير الحياة العربية:

قام الشعر الجاهليّ بدورٍ كبيرٍ في تصوير البطولة والفروسية وغيرها من القيم الاجتماعية ، فيما كان من شعر الحماسة التي تضمنته قصص الحروب بين القبائل، التي تُسمى "أيام العرب".

وقد وصف ابن عبد ربه في العقد الفريد هذه الأيام بأنها مأثر الجاهلية،⁽⁴⁾ ومكارم الأخلاق السننية . وفي ذلك يروي أنه : " قيل لبعض أصحاب الرسول - صلى الله عليه وسلم - : ما كنتم تتحدثون به إذا خلُوتُم في مجالسكم ؟ قال : كنا نتناشد الشعر، ونتحدث بأخبار جاهليتنا . وقال بعضهم : وبدت لو أنّ لنا - مع إسلامنا - كرم أخلاق

- 1- د. عمر الدقاق / مصادر التراث العربي - ص 35
 - 2- د. لطفي عبد الوهاب : العرب في العصور القديمة ، ص 238.
 - 3- د. نجيب محمد البهيتى: تاريخ الشعر العربى ، ص 46
 - 4- ابن عبد ربه : العقد الغيد ، 132/5، 274

آبائنا في الجاهلية . ألا ترى أن عنترة الفوارس جاهلي ، لا دين له ، والحسن بن هانئ (أبا نواس) إسلامي ، له دين ، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانئ دينه ، فقال عنترة في ذلك :

وأغضن طرفني إن بدث لي جاري
حتى يواري جاري مثواها

وقال الحسن بن هانئ (أبا نواس) مع إسلامه :
كان الشباب مطية الجهل
ومحسن الضحكات والهزل
والباعثي والناس قد رقدوا
حتى أتيت حلية البعير

رواية الشعر الجاهلي وتدوينه

لم يكن العربي في العصر الجاهلي أمياً ، يعيش في صحرائه المترامية الأطراف ، لا يعرف عن الحياة شيئاً ، يرحل فيها طلباً للماء والعشب ، فإذا فقدهما مات في صحرائه ، فذهب مع الغاربين . إن التاريخ يذكر أن العرب كان لهم كيان مستقل ، فأنشأوا دولهم في أرضهم ، وتركوا في أطراها آثاراً كبيرة ، تدل على عظم ذلك الكيان ، وتلك الحضارة الرائعة ، وحفظ لنا أسماء أمرائهم وملوكهم في اليمن ، وتدمّر ، والحبيرة ، وفي وسط الجزيرة .

ولا يعقل إلا تكون لهذه الدول مواطنها وعهودها ، وهي ذات صلة وثيقة مع الدول الأخرى ، كالأخباش ، والفرس ، والروم .

إلى جانب هذا نجد أسماء الكثريين من الكهنة والأطباء والمترجمين ، وأسماء الأسواق الأدبية التي كانوا يقيمونها في مواضع مختلفة من تلك الجزيرة ... كل ذلك يدل على حضارة إنسانية ، وتطور ملحوظ في حياة الناس ، مما يمكننا إزاءها أن نتصور إسهام معارفهم وعلومهم في تأصيل هذه الحضارة ، وإرساء قواعدها ، وتنبيئ أسسها . ومن هنا نستطيع أن نحكم أن هذه الأمة قد عرفت الكتابة ، وانتشرت في أنحاء جزيرتهم انتشاراً واسعاً ، فجاء ذكر الكتابة والكتاب والصحيفة والمهارق والألواح في شعر كثير من شعرائهم ، وما ذلك إلا أهم دليل من أدلة انتشارها ، وقال الدكتور عبد الحكيم بلبع⁽¹⁾ : " وانتشارها في الأوساط المتحضرة والمتقدمة منها على السواء " .

معرفة الشعراء الجاهليين بالقراءة والكتابة :

والشعراء الجاهليون أرقى طبقات المجتمع عقلاً ، وأوسعهم ثقافة ، ويدل استقراء الشعر الجاهلي على أن عدداً كبيراً منهم ، قد عرفها ومارسها ، فمن ذلك :

قول نهشل بن حزقي النهشلي⁽²⁾ :

مداد معلم يتلوه واحي
كأن منازلا بالفأو منها

1 - د. عبد الحكيم بلبع : النثر الفني وأثر الجاحظ فيه ، ص 13 .

* انظر : مصادر الشعر الجاهلي 107-133 . والحياة العقلية ص 37 وما بعدها .

2 - حركة الشعر فيبني نهشل من تميم ، ص 15 .

ونحن أمام عملية تعليمية متكاملة ، فقد ذكر الشاعر الصحيفة ، والمعلم الذي يتلو ما كتب فيها ، وفي البيت إشارة ضمنية إلى طلاب يستمعون إلى ما يقرأه ذلك المعلم .

وقول الأسود بن يعفر النهشلي⁽¹⁾ :

مُجَدِّينَ مِنْ تَيَمَاءٍ أَوْ أَهْلَ مَدِينٍ
سُطُورٌ يَهُودِيُّونَ فِي مُهْرَقِيهِمَا
فَمَعْرِفَةُ الْأَسْوَدِ بِالْكِتَابَةِ دَفَعَتْهُ إِلَى التَّمِيزِ بَيْنَ الْكِتَابَةِ الْجَيْدَةِ ، وَالْكِتَابَةِ الرَّدِيَّةِ .

وقول عبيد بن عبد العزّى السالمي⁽²⁾ :

رَسُومًا كَآيَاتِ الْكِتَابِ مُبَكِّيًّا وَمُوقَفٌ
بَهَا لِلْحَزِينِ الصَّبِّ مُبَكِّيًّا وَمُوقَفٌ
وَقَوْلُهُ أَيْضًا⁽³⁾ :

أَسَاطِيرٌ وَحِيٌّ فِي قِرَاطِيسِ مَقْتَرِيٍّ
فَلَمْ يَتَرَكَا إِلَّا رَسُومًا كَأَنَّهَا
وَقَوْلُ بَشَرٍ بْنِ عَلْيَقِ الطَّائِي⁽⁴⁾ :

أَذَاعَتْ بِهِ الْأَرْوَاحُ حَتَّى كَانَمَا
حَسِبَتْ بِقَيَاهِ كِتَابًا مُؤْمِنًا
وَقَوْلُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَلِيمِ بْنِ الْحَارِثِ الْأَزْدِي⁽⁵⁾ :

لَمْنَ الْدِيَارَ تَلُوحَ بِالْغَمْرِ
ذُرْسُ لَمَرَ الرَّيْحَ وَالْقَطْرِ
كَتَبَ الْغَلَامُ الْوَحْيَ فِي الصَّخْرِ
فَبَشَطَ بَسِيَانَ الرَّيَاغِ كَمَا

وَقَوْلُ الْأَخْنَسِ بْنِ شَهَابِ التَّغْلِبِيِّ⁽⁶⁾ :

لَابْنَةَ جَطْلَانَ بْنَ عَوْفَ مَنَازِلَ
كَمَا رَقَشَ الْعَنْوَانَ فِي الرَّقِ كَاتِبٍ
وَقَوْلُ الزَّبِرْقَانِ بْنِ بَدْرِ⁽⁷⁾ :

هُمْ يَهْلِكُونَ وَيَبْقَى بَعْدَمَا صَنَعُوا
كَأَنَّ آثَارَهُمْ خَطَّتْ بِأَقْلَامٍ
وَقَوْلُ الْمَرْقِشِ⁽⁸⁾ :

الْدَارَ قَفْرَ وَالرَّسُومَ كَمَا
رَقَشَ فِي ظَهَرِ الْأَدِيمِ الْقَلْمَ
وَوَاضِحٌ مَا تَقْدِمُ أَنْ ذَكَرَ الْكِتَابَةَ وَأَدْوَاتِهَا وَرَدَ فِي مَقْدِمَةِ الْقَصَائِدِ الطَّالِلِيَّةِ ، وَفِي
مَعْرِضِ التَّشْبِيهِ ، إِلَّا أَنَّا نَذَهَبُ إِلَى مَا ذَهَبَ إِلَيْهِ أَحْمَدُ الْحَوْفِيِّ " أَنَّ هَذِهِ التَّشْبِيهَاتِ لَا
تَدْلِي عَلَى مَعْرِفَةِ الشَّاعِرِ الْجَاهِلِيِّ بِالْكِتَابَةِ فَحَسْبٌ ، بَلْ تَدْلِي عَلَى خَبْرَتِهِ بَهَا ، وَمَمَارِسَتِهِ
لَهَا⁽⁹⁾ . "

1 - الأسود بن يعفر : ديوانه ، 63.

2 - يحيى الجبوري : قصائد جاهلية نادرة ، 125.

3 - نفسه : 129.

الْوَحْيِ : الْكِتَابَةِ . المقتري : القاري.

4 - نفسه : 187.

5 - نفسه : 200.

6 - المفضليات : 204.

7 - الحافظ : البيان والتبيين ، 179/3.

8 - المفضليات : ص 237.

9 - د. أحمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، ص 349.

شواهد تدل على سعة انتشار الكتابة وكثرة القراء :

1- يألف الناس ، في أيامنا هذه ، أن يروا في الصباح ملصقات تعقى على الجدران ، أو كتابة شعارات معينة على الأسوار ، تنددوا بظاهرة سياسية معينة. وقد عرف الجاهليون هذا اللون من النشاط السياسي السري ، فمن ذلك ما ذكروه من أن الناس في مكة شاهدوا ذات صباح شعراً سياسياً مكتوباً على دار الندوة :

ألهي قصيا عن المجد الأسطير ورثوة مثل ما ترثى السفاسير
وأكلها اللحم بحثا لا خليط له وقولها رحلت غير أنت غير

2- أسهمت الحيرة ، وهي كما يسمى بلاشير " العاصمة الثقافية " ⁽¹⁾ للساحل الشرقي ، بنشر الثقافة ، فقد بنت أم عمرو بن هند ديراً ، وكتب في صدره : " بنت هذه البيعة هند بنت الحارث بن عمرو بن حجر الملكة بنت الأملاك ، وأم الملك عمرو بن المنذر ، أمّة المسيح ، وأم عبده ، وبنت عبيده ...

وروى ياقوت أن يحيى بن خالد البرمكي خرج مع الرشيد إلى الحيرة لمشاهدة آثار قبر النعمان ، فطالعاً كتابة على أحد جدران الدير ⁽²⁾ :

إن بني المنذر عام انقضوا بحيث شاد البيعة الراهن
شرُّ البقايا من بقي بعدهم قلَّ وذلَّ جده خائب

و واضح أن ما كتبته تلك السيدة يشبه في أيامنا هذه " حجارة التاريخ " التي ثبتت على أبرز مكان في العمارات ، ويفترض المرء أنها لم تكن لتقدم على الكتابة على صدر ديرها إلا لعلها بأن غالبية من يمرُّون بهذا المكان ، إن لم يكن جميعهم ، يقرؤون

3- كثرة المعلمين في العصر الجاهلي :

على الرغم من أن ما أشارت المصادر العربية إليه في معرفة العرب التعلم وطريقته قليل إلا أن الإشارات القليلة قد تلقى الضوء على الطريق التي كانوا عليها في نشره ، فالتعلم كان معروفاً عندهم ، وقد ذكر ابن حبيب ⁽³⁾ من أشراف المعلمين في ذلك العصر :

بشر بن عبد الملك السكوني ، وسفيان بن أمية بن عبد شمس ، وأبا قيس بن عبد مناف ، وغيلان بن سلمة الثقفي ، وعمرو بن زرار ، وكان يسمى الكاتب .

وهذا يدل على أنهم علموا أبناءهم ، ولكن الطريقة كانت غير مفصلة ، بيد أن هناك إشاراتٍ ذكرتها المصادر تدل على أن عدداً من الآباء ، أو غيرهم كان يعلم بالطريقة الخاصة . فمن ذلك أن عائشة بنت سعد تعلمت الكتابة عن أبيها ، وروي أن

قصي : أراد بنى عبد مناف بن قصي ، وكان فيهم الحكم . الأسطير : أباطيل الأحاديث ولعله أراد إخراج قصي خزاعة وولادة البيت . السفاسير : جمع سفاسير ، وهو السمسار . قوله : رحلت عير أنت عير : انغماسهم في الحياة التجارية .

1 - بلاشير : تاريخ الأدب العربي ، ص 62 .

2 - ياقوت الحموي : معجم البلدان ، مادة دير هند الكبرى .

3 - ابن حبيب : المحرر ، 475 .

حمد بن زيد عَلِمْتُه أَمْهُ الْكِتَابَ فِي بَيْتِ أَبِيهِ ، فَكَانَ حَمَادُ أَوْلَى مِنْ كِتَابٍ فِي بَنِي أَيُوب ، وَطَلَبَ حَتَّى صَارَ كَاتِبَ الْمَلَكِ النَّعْمَانَ الْأَكْبَرَ ، وَعَلِمَ ابْنَهُ زِيَادًا⁽¹⁾ . وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ جَدْعَانَ عَلِمَ حَرْبَ بْنَ أَمْيَةَ ، وَبَشَرَ بْنَ عَبْدِ الْمَلِكِ عَلِمَ أَبَا سَفِيَّانَ⁽²⁾ .

هَذِهِ طَرِيقَةُ عِرْفَتْ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِيِّ ، وَهِيَ طَرِيقَةُ التَّعْلِيمِ الْخَاصِّ ، وَيَبْدُو أَنَّهَا كَانَتْ الطَّرِيقَةُ الْمَأْلُوفَةُ ، وَلَكِنَّ الْمَصَادِرَ تَشِيرُ إِلَى وَجُودِ أَمَّاكنَ لِلتَّعْلِيمِ سُمِّيَتْ "الْكِتَابَ" فَقَدْ جَاءَ فِي تَرْجِمَةِ عَدِيِّ بْنِ زِيَادٍ أَنَّ أَبَاهُ طَرَحَهُ فِي الْكِتَابِ حَتَّى إِذَا حَذَقَ أَرْسَلَهُ الْمَرْزَبَانُ مَعَ ابْنِهِ شَاهَانَ مَرْدًا إِلَى كُتُبَ الْفَارَسِيَّةِ ، فَكَانَ يُخْتَلِفُ مَعَ ابْنِهِ ، وَيَتَعْلَمُ الْكِتَابَ وَالْكَلَامَ بِالْفَارَسِيَّةِ⁽³⁾ . وَذَكَرَ عَنْ خَالِدِ بْنِ الْوَلِيدِ أَنَّهُ عِنْدَمَا سَارَ مَرْرًا بَعْنَى تَمَرَّ ، وَوُجِدَ فِي كُنْيَسَهُ صَبَيَّانًا يَتَعْلَمُونَ الْكِتَابَ فِي قَرْيَةٍ مِّنْ قَرَاهَا ، يَقَالُ لَهَا : النَّفِيرَةُ ، وَفِيهِمْ حَمْرَانُ مَوْلَى عُثْمَانَ بْنَ عَفَانَ .

أدلة صريحة على تقييد الشعر الجاهلي :

لقد تدفق الشعر الجاهلي - من عصر إنشاده إلى عصر تدوينه على يد طائفة كبيرة من الرواة العلماء - عبر قناتين :
القناة الأولى - التدوين :

وهناك أدلة صريحة مباشرة على أن بعضًا من الشعر الجاهلي كان مدونًا ، فمن ذلك :

1- أن عمراً أخا حسان بن تبان عندما أراد قتل حسان ، أشار أهل اليمن بقتله إلا إذا رعين فإنه نهاد عن ذلك ، فعمد إلى صحيفة فكتب فيها⁽⁴⁾ :

أَلَا مَنْ يَشْتَرِي سَهْرًا بِنَوْمٍ سَعِيدٌ مِّنْ بَيْتِ قَرِيرٍ عَيْنٍ
وَأَمَا حَمِيرٌ غَدَرَتْ وَخَانَتْ فَمَعْذِرَةُ إِلَهٍ لَذِي رَعِينَ

2- عثر على جثة ذي جدن ملك حمير في صناء ، وُجِدَ على رأسه لوح مسطور ، عليه شعر بلغة عربية فصحى ، والشعر هو⁽⁵⁾ :

مَا بَالْ أَهْلَكَ يَا رَبَّابَ خَزْرَا كَأْنَهُمْ غَضَابٌ

3- وتقف قصيدة لقبيط بن يعمر الإيادي العينية على رأس المجموعات الشعرية التي دونت ، عصرئذ ، فقد أرسلها إلى قومه ينذرهم بأن كسرى عازم على غزوهم وقد كتب لتلك القصيدة مقدمة شعرية من أربعة أبيات ، وهي⁽⁶⁾ :

إِلَى مِنْ بِالْجَزِيرَةِ مِنْ إِيَادٍ فَلَا
يَشْغَلُكُمْ سَوقُ النَّقَادِ
يَزْجُونَ الْكَتَابَ كَالْجَرَادِ
أَوَانَ هَلَاكَمْ كَهَلَاكَ عَادَ

سَلامٌ فِي الصَّحِيفَةِ مِنْ لَقَبِيطَ بْنِ
اللَّيْثِ كَسْرَى قَدْ أَتَاكُمْ أَتَاكُمْ
مِنْهُمْ سُتُونَ أَلْفًا عَلَى حَنْقٍ
أَتَيْنَكُمْ فَهَذَا

— 1 —
— 2 —

— 3 —

. 16-15

4 - ابن الأثير : الكامل في التاريخ 1/420.

5 - محمد الخضر حسين : نقض كتاب في الشعر الجاهلي 178.

6 - الكامل في التاريخ 1/392 . الشعر والشعراء 1/129.

وقد أورد قصيده العينية ، بعد هذه المقدمة ، وصف فيها حال قومه وضعفهم وتخاذلهم ، وبين لهم ما يجب أن يتخلّى به من يسدون إليه قيادتهم ، ومطلع العينية⁽¹⁾ :

ها جت لـي الـهـمـ والأـحزـانـ والـوجـعاـ
يا دار مـيـةـ منـ محـتـلـهاـ الجـرـعاـ
وـخـتـمـهاـ بـقـولـهـ :

هـذـاـ كـتـابـيـ إـلـيـكـ وـالـنـذـيرـ لـكـ
لـمـنـ رـأـيـ رـايـهـ مـنـكـ وـمـنـ سـمعـاـ
4- أـسـلـمـ بـجـيـرـ بـنـ زـهـيرـ بـنـ أـبـيـ سـلـمـيـ ، وـحـينـمـاـ عـلـمـ أـخـوـهـ كـعـبـ بـذـلـكـ ، كـتـبـ إـلـيـهـ⁽²⁾
فـهـلـ لـكـ فـيـمـاـ قـلـتـ بـالـخـيـفـ هـلـ لـكـ
فـانـهـلـكـ الـمـأـمـونـ مـنـهـاـ وـعـلـكـاـ
عـلـىـ أـيـ شـيـءـ وـيـبـ غـيـرـكـ دـلـكـاـ

أـلـأـبـلـغـاـ عـنـيـ بـجـيـرـاـ رـسـالـةـ
سـقـيـتـ بـكـأسـ عـنـدـ آـلـ مـحـمـدـ
فـخـالـفـ أـسـبـابـ الـهـوـيـ وـتـبـعـتـهـ

فـلـمـ أـتـىـ الـكـتـابـ بـجـيـرـاـ كـتـبـ إـلـىـ كـعـبـ يـقـولـ⁽³⁾ :

تـلـوـمـ عـلـيـهـاـ بـاطـلـاـ وـهـيـ أـحـزـمـ
فـتـنـجـوـ إـذـاـ كـانـ النـجـاءـ وـتـسـلـمـ
مـنـ مـبـلـغـ كـعـبـ فـهـلـ لـكـ فـيـ
الـتـيـ إـلـىـ اللـهـ لـاـ العـزـىـ
وـلـاـ الـلـاتـ وـحـدـهـ

5- بـلـغـ عـمـرـوـ بـنـ كـلـثـومـ أـنـ النـعـمـانـ بـنـ الـمـنـذـرـ يـتـوـعـدـهـ ، فـدـعـاـ كـاتـبـاـ مـنـ الـعـربـ ، فـكـتـبـ
إـلـيـهـ⁽⁴⁾

فـمـدـحـكـ حـوـلـيـ وـذـمـكـ قـارـحـ
وـأـشـيـاعـهـ تـرـقـىـ إـلـيـكـ الـمـسـالـحـ
أـلـأـبـلـغـ النـعـمـانـ عـنـيـ
رـسـالـةـ مـتـىـ تـلـقـنـيـ فـيـ
تـغلـبـ بـنـةـ وـائـلـ

وـهـنـاكـ شـواـهـدـ كـثـيرـةـ ، أـثـبـتـهـاـ الـدـكـتـورـ نـاصـرـ الـدـيـنـ الـأـسـدـ ، لـاـ دـاعـيـ لـذـكـرـهـ⁽⁵⁾.

1 - مختارات ابن الشجري : القصيدة الأولى .

2 - الشعر والشعراء : 91/1 . والسيرة النبوية : 144/4 وما بعدها .

3 - السيرة النبوية : 145/4 .

4 - الأغاني : 58/11 .

5 - مصادر الشعر الجاهلي 124 – 133 .



الفصل الخامس:

مُصادر الشِّعْرِ الْجَاهْلِي

تبني العلماء في روایتهم للشعر العربي القديم مناهج سلیمة تحرص على تسلسل الرواية وصحة الإسناد ، وقد بلغت هذه المناهج العلمية درجة النضج والاستواء في العصر العباسي وخاصة في القرنين الثاني والثالث الهجريين ، فظهر تدوين أشعار القبائل ، وصناعة دواوين الشعراء الجاهليين والمحضرمين والإسلاميين ، وتصنيف المجموعات الشعرية المختارة ، أو الاختيارات الشعرية التي اهتم بها النقاد واللغويون والنحاة ، لأنها تضم أكثر من عصر شعري واحد ، ولأنها قائمة على مبدأ الانتقاء والجودة والذوق في حسن الاختيار ، وتبويهه فضلاً عن قيمتها العلمية والتاريخية . وهذه المجموعات " كلها في الواقع لم تكن إلا المدرسة الكبرى التي تخرج فيها **الشعراء المحدثون في العصر العباسي**⁽¹⁾ ".

إن الاختيارات الشعرية ، أو مجموعات الشعر المختار ، كحماسة أبي تمام والمفضليات تتطوي على بعض الخصائص والسمات النقدية العامة بصورة غير مباشرة " لأنها تقوم في الأصل على تحكيم الذوق في العناصر الفنية التي تسري في داخل قصائدها . إذ ليس مدار الأمر فيها على التتبع والتقصي والاكتفاء بالرصد والتسجيل ، بل على اصطفاء الأجمل ، وانتقاء الأفضل ، و اختيار الأمثل ، وهذا منطق النقد وأساس الحكم الأدبي⁽²⁾ .

ويقف على رأس كتب الاختيارات الشعرية :
1- المعلقات :

المعلقات وقضية التعليق

المعلقات هي أكثر قصائد الشعر الجاهلي شهرة وذيعاً، واسم " المعلقات " أكثر أسمائها دلالة عليها ... فربما سميت المذهبات ، أو السموط ، أو المشهورات⁽³⁾ ... غير أن اسم المعلقات غالب عليها ، وصار أكثر هذه الأسماء ذيوعاً ، وأدلها على تلك القصائد التي بدت متميزة من بين النتاج الشعري خلال العصر الذي سبق ظهور الإسلام .

ومن الطبيعي أن تشير دلالة الاسم حماسة الباحثين الذين راحوا منذ القديم يسألون : ما معنى المعلقات ؟ وما سرّ هذه التسميات ؟ فإذا ما روي عن ابن الكلبي (ت 204هـ) أن أول شعر عُلق في الجاهلية شعر امرئ القيس .." عُلق على ركن من أركان الكعبة أيام الموسم حتى نظر إليه ثم أحدر.." فعلقت الشعراء كذلك من بعده ، وكان ذلك فخرا للعرب في الجاهلية ، وعدها مَنْ عُلق شعره سبعة نفر⁽⁴⁾..." تردد القول ببربط الاسم إلى حدث التعليق المذكور ، وتناقل ذلك الباحثون القدماء منهم والمحدثون . فإذا ما عرفت روایة أخرى لأبي جعفر النحاس (ت 338هـ) تسمى هذه القصائد " المشهورات " ويقول فيها : " إن أكثر العرب كانوا يجتمعون بعكاظ ويتناشدون ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوها وأنبتوها في خزانتي . وأما قول من قال : إنها

1 - د. عمر الدقاد : مصادر التراث العربي ، ص 9 .

2 - المرجع السابق : ص 37 .

3 - ابن عبد ربه : العقد الفريد ، 116/3 .

4 - بدوي طبانة : معلقات العرب ، 19 .

علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد من الرواية ، وأصح ما قيل في هذا أن حماداً الرواية لما رأى زهد الناس في حفظ الشعر جمع هذه السبع وحضرهم عليها⁽¹⁾ إذا بالباحثين ينقسمون تجاه هذا الأمر قسمين . أحدهما ينكر التعليق على الكعبة ، ويفهم روایة ابن الكلبي فهما مجازياً أو يشك فيها ، والآخر يثبت التعليق ، ويتحمس له ، ويدافع عنه ، ويسوق الدليل تلو الدليل ، ويفند حجج المخالفين حجة بعد حجة ، حتى ينتهي إلى الاطمئنان لما يعتقد صواباً ، وينح الفارئ والمتابع للقضية يقيناً يشبه يقينه .

مؤيدو التعليق :

وأهم الكتاب الذين عرضوا لخبر التعليق واعتمدوه ، ودافعوا عن معرفة العرب في ذلك العصر بالكتابة ، وأثبتو بأدلة وجيئها شيوعاً - هم : نجيب محمد البهبيتي إذ انتهى إلى القول : إن روایة الشعر في العراق جاءت من أصول مكتوبة ، وإن الشك الذي بني على أن روایة الشعر الجاهلي في العراق كانت شفهية شك لا يعتمد على أساس متين ، ولا يقوم للتحقيق العلمي . لقد كان الشعر الجاهلي الباقي حتى ذلك الحين ، والذي نقله رواة العراق ، وشغلوا به مكتوباً وقع لهم تراثاً لم يقع مثله للأقطار الإسلامية الأخرى⁽²⁾ .

أما الدكتور ناصر الدين الأسد فيدل على صحة الخبر بما قاله ابن عبد ربه والبغدادي ، فيقول : إن عرب الجاهلية كانوا يعلقون وتألقهم وكتاباتهم ذات القيمة في الكعبة لقداستها في نفسها ... وأوضح مثال على ذلك أن تعليق هذه الكتابات كان أمراً مألوفاً متعارفاً عند العرب⁽³⁾ .

أما بدوي طبانة فكان من المتحمسين لفكرة التعليق ، إلا أنه لم يضف شيئاً جديداً مهماً إلى ما ذكره البهبيتي ، وناصر الدين⁽⁴⁾ .

ومهما يكن من أمر فإن المعلقات تمثل الشعر الجاهلي الذي بلغ درجة النضج والكمال . أضف إلى ذلك أنها تعطينا صورة قيمة عن حياة العرب السياسية والاجتماعية إذ يتصل بعضها بحوادث عظيمة في الجاهلية كعملة زهير ، وعملة عنترة ، وعملة عمرو بن كلثوم ، والحارث بن حذرة . ويتصل بعضها الآخر بظاهرة اجتماعية بارزة في حياة العرب في ذلك العصر ، وهي حياة اللهو والفراغ والفخر بإتلاف المال في المتعة وقرى الضياف .

منكروه :

أنكر كثير من المعاصرين قضية تعليقها ، ومنهم من عدّها أسطورة من الأساطير⁽⁵⁾ لأسباب منها :

1 - نفسه .

2 - نجيب محمد البهبيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث ، 192 .

3 - مصادر الشعر الجاهلي : 170-172 .

4 - بدوي طبانة : معلقات العرب ، 21-55 .

5 - انظر :

1- إن أول من ذكر هذه القصة ابن عبد ربه ، وهو أندلسي وأيده ابن رشيق ، ثم ابن خلدون ، وكلهم مغاربة . ولو كانت القصة صحيحة لذكرها علماء المشرق ، وهم يعيشون في بيئه الرواية ، فلم يتعرض لها الجاحظ في كتاب من كتبه ، ولا المبرد في كامله ، ولا ابن سلام في طبقاته ، ولا ابن قتيبة في مؤلفاته ، وكلهم من علماء القرن الثالث .

2- أمية العرب ، والكتابة عندهم غير شائعة .

3- إن في المعلقات ما يدلّن الكعبة ، وقد ورد في بعض أشعار المعلقات ما يشمّئز منه الخلق العربي في كل العصور ، كتصوير بعض أوضاع مجنة ، وأفعال مستقبحة ، يأباهما الرجل النبيل ، والعربي الأصيل ، ويتساءلون : أبلغت الاستهانة بالكعبة درجة سمحت للعرب ، ولم يضرّ خاصة أن تعلق مثل هذا عليها .

4- أين كانت هذه المعلقات حين دخل الرسول (ص) الكعبة يوم الفتح ؟ وكيف كان مصيرها ؟ لقد تحدث رواة السيرة والأخباريون عن تحطيم ما كان بالكعبة من أصنام ، وإزالة ما كان على جرانها من صور الأنبياء والملائكة ، ولم يشر أحد منهم إليها .

5- كيف اختيرت هذه القصائد ؟ ومن الذي كتبها ؟ ومن الذي علقها ؟ ومن أمر بتعليقها ؟

6- الاختلاف في عددها : ولو كانت هذه القصائد معلقة حقا ، وكان الناس مطبعين عليها لما وجدنا هذا الخلاف في عددها ، فهي عند ابن الأباري سبع ، وعند ابن النحاس تسع ، وعند التبريزى عشر . واختلفوا في أصحاب القصائد السبع ، مَنْ هُمْ؟ واختلفوا في أي قصائد الشاعر هي المعلقة .

ونفينا قصة تعليقها ، فيما مضى ⁽¹⁾ ، ولعلها سميت بهذا الاسم لنفاستها أخذها من كلمة العلق بمعنى النفيض . ويقال : إن أول من رواها مجموعة في ديوان خاص بها حماد الرواية ، وهي عنده سبع : لامرئ القيس ، وزهير ، وظرفة ، ولبيد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث بن حلزة ، وعنترة . ونراها عند أبي زيد القرشي سبعاً أيضاً، بيد أنه أسقط اثنين من رواية حماد هما : الحارث بن حلزة ، وعنترة ، وأثبت مكانهما الأعشى والنابغة .

وعرفت هذه القصائد بتسميات مختلفة ، منها : السبع الطوال ، والسبعينات ، والمشهورات ، والمذهبات ، والمذهبات ، والسموط ⁽²⁾ .

د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص 140 ، و. د. أحمد محمد الحوفي : الحياة العربية من الشعر الجاهلي ، ص 204-212 ، ود. يوسف خليف : دراسات في الشعر الجاهلي ، ص 216 ، ود. عبد الحميد سند الجندي : زهير بن أبي سلمى ، ص 191 ، ود. نوري حمودي الفيسى : تاريخ الأدب العربي قبل الإسلام ، ص 96-92 ، ود. عبد المنعم الزبيدي : مقدمة لدراسة الشعر الجاهلي ، ص 85 وما بعدها .

1 - انظر : ص 136-135 .

2 - الجاحظ : البيان والتبيين ، 9/2 .

وتعود هذه القصائد على اختلاف تسمياتها من روائع الشعر العربي القديم ، إن لم تكن أروعه . ويبدو أن حمادا قد رأى في اختيارها مجموع قضايا وأمور مهمة ، منها :

جودتها الشعرية : التي تمثل البناء الفني العام للقصيدة العربية القديمة ، وانتماءاتها القبلية ، فهي ليست لشعراء ينتمون إلى قبيلة واحدة ، بل إلى مجموعة قبائل عربية، فامرؤ القيس من كندة ، وزهير من مزينة ، ولبيد منبني عامر ، وطرفة من بكر، وعنترة منبني عبس ، عمرو بن كلثوم من تغلب ، والحارث بن حذرة منبني يشك ، وقد أضاف إليهما ابن النحاس قصيدين ، واحدة للنابغة منبني ذبيان ، والأخرى للأعشى الكبير منبني بكر بن وائل ، وزاد التبريزي قصيدةعاشرة لـ عبيد بن الأبرص منبني أسد . لذلك أقبل على شرحها غير واحد من علماء اللغة والنحو والأدب ، لأنها حققت ما يشبه التالف القبلي الذي جعلها شائعة أكثر من غيرها في حلقات الدرس والمناظرات ، والتذوق الشعري ، بوصفها مثالاً رائعاً لأصالة الشعر العربي القديم ، تمثل نقاء اللغة العربية وصفاءها قبل أن يتسرّب إليها الحن ، فضلاً عن أنها تمثل سبع ، أو تسع ، أو عشر شخصيات أسلوبية ، فكل قصيدة أسلوبها الذي تتفرد به من حيث الدلالة ، والتعبير ، والمضمون ، والصور الشعرية ، وإذا شئنا من حيث فضاؤها الشعري⁽¹⁾ ومناخها الفني ، مع أنها تشتراك في الأغلب بخصائص موسيقية شعرية عامة ، تتجلى بنضج نظامها العروضي المتقن ، الملزّم بالقافية الموحدة والوزن الواحد .

المفضليات :

نسبت هذه المجموعة الشعرية إلى جامعها المفضل الضبي (ت 164هـ)، راوي الكوفة الثقة . وهي أقدم اختيار شعري لمجموعة قصائد مختلفة في أطوالها من عيون الشعر العربي الجاهلي بالدرجة الأولى ، ثم المخضرم فالإسلامي .

يتراوح عددها بين ست وعشرين ومئة ، أو ثمان وعشرين ومئة ، أو ثلاثين ومئة قصيدة⁽²⁾ ، لسبعة وستين شاعراً ، منهم سبعة وأربعون جاهلياً ، وأربعة عشر شاعراً مخضرماً ، وستة شعراء من الإسلاميين .

تمتاز المفضليات بأن قصائدها قد أثبتت كاملة ، لم يجرئ منها جامعها أي شيء ، بل أثبتتها كما هي حسب ورودها مسندة وموثقة معتمداً في اختيارها على ذوقه الأدبي ، وحرصه الشديد على الاحتفاظ بهذا التراث الشعري العريق من التشتت والضياع .

ولو لم يصلنا من الشعر الجاهلي سوى هذه المجموعة المؤثقة لأمكن وصف تقاليده وصفاً دقيقاً ، فقد مثلت جوانب الحياة الجاهلية ، ودارت مع الأيام والأحداث وعلاقات القبائل بعضها ببعض ، وبملوك الحيرة والغساسنة ، وانطبعـت في كثير منها البيئة الجغرافية⁽³⁾ .

الأصمعيات :

1 - د. عناد غزوـان : آفاق في الأدب والنقد ، ص 57 .

2 - راجع مقدمة المفضليات ، ص 9 وما بعدها .

3 - د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، 177 – 178 .

سميت باسم الذي اختارها وجمعها ، وهو الأصممي ، الأديب الرواية المشهور . وتشمل على اثنين وتسعين قصيدة مقطوعة ، لواحد وبعدين شاعرا ، منهم أربعة وأربعون شاعرا جاهليا ، وأربعة عشر شاعرا مخضرا ، وستة شعراء إسلاميين ، وسبعة شعراء مجاهلين .

ويبدو أن الأصممي حاول ألا يكون نسخة ثانية من المفضل الضبي ، الذي جمع المفضليات ، أو كان يرويها إلى طلابه ، ولا نسخة مكررة لhammad الرواية الذي وقع اختياره على القصائد الطوال المشهورة التي يجمعها بناء فني موحد ، وذوق عام ساد عصر الرواية ، بل حاول أن يخالف هذين الروايتين ، فاختار قصائده ، أو مقطوعاته لشعراء أغلبهم من المغمورين المقلين ، الذين لم تعرف لأكثرهم دواوين . وفي الأصمميات أكثر من ثلاثين مقطوعة لا تتجاوز أبياتها العشرة ، وإن ثلاث عشرة قطعة منها تتراوح أبيات كل منها بين أحد عشر بيتا إلى عشرين بيتا . ولعل هذه الظواهر قد جعلتها دون المفضليات شهرة .

جمهرة أشعار العرب :

تنسب لأبي زيد بن أبي الخطاب القرشي ، الذي اختارت المصادر والدراسات في تثبيت سنة وفاته ، وتتراوح بين سنة 70هـ ، أو أنه عاش في النصف الثاني من القرن الثالث وشهد طرفا من القرن الرابع ، أو أنه عاش حتى مطلع القرن الخامس (401هـ) ، بدليل ما ورد في جمهرته من أعمال الرواية والعلماء من أمثال المفضل الضبي ، والأصممي ، وابي عبيدة ، وابن الأعرابي ، والجوهري ، والفارابي .

والجمهرة اختارات شعرية لقصائد جاهلية ، ومحضرمة ، وإسلامية ، وأموية في سبعة أقسام : في كل قسم سبع قصائد لسبعة شعراء ، أي هي تسعة وأربعين قصيدة ، لتسعة وأربعين شاعرا ، وهي : المعلقات ، والمجمهرات (القصائد المتنية السبك) ، والمنتقيات ، والمذهبات (أي القصائد التي تمتاز بجودتها الفنية) ، والمراثي ، والمشوبات (أي القصائد التي شابها الكفر والإسلام ، وإن شعراءها من المخضرمين) ، والملحمات (القصائد المتلاحمة الأجزاء) .

وتكشف الجمهرة عن ظهور مسميات جديدة للقصيدة العربية القديمة ، كالمجمهرات ، والمنتقيات ، والمذهبات ، والمشوبات ، والملحمات ، تضاف إلى تسميات آخر أشار الجاحظ إليها كالمصنفات (وهي القصائد التي انصفت قائلوها فيها أعداءهم) ، والحواليات ، والموثبات (وهي القصائد التي تدعى إلى استئنافهم ، وإثارة النغوس انتصارا للحق مغتصب ، أو شرف مهان ، أو كرامة مهدورة) .

دواوين الحماسة :

وإذا كانت المعلقات ، والمفضليات ، والأصمميات ، وجمهرة أشعار العرب هي كتب اختارات لقصائد طويلة ومتوسطة وقصيرة قائمة على أساس الذوق الأدبي ، والجزالة اللغوية ، والحرص على جمع التراث الشعري العربي ، الجاهلي ، بالإسلامي ، بالأموي ، لتدوين اللغة والاستشهاد به على مسائل النحو ، فإن ظهور حماسة أبي تمام الكبرى والصغرى (الوحشيات) قد ارست منهاجا جديدا للاختيار يعتمد على تبويب المعاني والأغراض أو الموضوعات الشعرية التي تمثلها المقطوعات ، لشعراء معروفين ومغمورين أو مقلين ، وبذلك عدّها نقاد ذلك العصر أنقى اختيار للمقطوعات .

وقد تبنى أبو تمام في حماسته : الكبرى والصغرى معيارين نقديين ، هما :

1- **الجودة الفنية** : كان أبو تمام في اختياراته الشعرية ناقدا منصفا ، استطاع أن يؤكد على مبدأ الجودة الفنية والذوق الشعري الصافي معيارا نقديا في الاختيار . فهو شاعر فنان ، قبل أن يكون لغويانا أو راوية ، فلا غرابة إذا قيل : إن أبا تمام في اختياره الحماسة أشعر منه في شعره .

ولم يقصر ابو تمام الجودة ، بوصفها معيارا للاختيار ، على عصر شعري دون آخر ، بل جعلها مقاييسا تتساوى فيه العصور الشعرية العربية كلها .

2- التصنيف الموضوعي : وبعد أبو تمام رائدا في هذا الاتجاه القائم على المعاني والأغراض الشعرية . فقد قسم حماسته الكبرى على عشرة أبواب ، هي :

باب الحماسة ، وباب المراثي ، وباب الأدب ، وباب النسيب ، وباب الهجاء ، وباب الأضياف والمديح ، وباب الصفات ، وباب السير والنعمان ، وباب الملح ، وباب مذمة النساء .

التزم أبو تمام بهذا التصنيف الموضوعي في تبويب "الحماسة الصغرى" أو "الوحشيات" وهي أمثلة من شوارد الشعر وأوابده ، امتازت بكونها أكثر غرابة .

وأصعب فهما من النماذج الشعرية التي وردت في الحماسة الكبرى .

فالوحشيات محببة على عشرة أبواب أو أغراض شعرية لا تختلف في تسلسلها عن أبواب الحماسة الكبرى إلا في الباب الثامن الذي سماه بباب المشيب بدلا من باب السير والنعمان .

تبوا باب الحماسة في هذين الكتلين الصدارتين من حيث عدد الحماسيات أو المقطوعات ، أو عدد الأبيات بالمقارنة إلى بقية الأبواب ومن هنا جاءت تسمية هذه الاختيارات بالحماسة .

أثر الحماسة الكبرى :

وقد مهدت حماسة أبي تمام السبيل إلى ظهور اختيارات شعرية ، أو حماسات أخرى ، بعدها ، حماسة البختري (ت 284هـ) وحماسة الخالدين (وتعرف بالأشباء والنظائر) والحماسة الشجرية لابن الشجري (ت 542هـ) ، والحماسة البصرية لعلي بن أبي الفرج (ت 659هـ) ، والحماسة الغربية ليوسف محمد البباسي (ت 646هـ) .

وتددو این الحماسة مصدراً ثالثاً من مصادر الشعر الجاهلي ، فقد جمعت مقداراً ضخماً من القصائد الجاهلية والمقطوعات ، وحفظت لنا أسماء كثيرة من الشعراء لولاها لسقطوا من ذاكرة الزمان .

الدواوين الشعرية :

A- دواوين القبائل :

وفي كتاب "الفهرست" لابن النديم ، و "المؤتلف والمختلف" للأمدي نجد ذكرًا لعشرين من الكتب التي ألفت لتجمع أشعار القبائل⁽¹⁾ ، وربما كان عدد كبير من هذه الكتب من تأليف شخص واحد ، فهذا أبو عمرو الشيباني يقول ابنه : لما جمع أبي أشعار العرب كانت نيفاً وثمانين قبيلة .

ولم يصل إلينا مما ذكر من هذه الكتب إلا "شعر الهذللين" أو "ديوان الهذللين" ولا يحتوي على شعر جميع شعراء هذيل ، وإنما يضم جزءاً من أشعارهم . ودليل ذلك أن عدد شعراء هذيل الجاهليين في هذا الجزء قليل ، وأكثرهم إسلاميون .

B- دواوين الأفراد :

حظي الشعر الجاهلي ، في مرحلة التدوين ، باهتمام كبير ، فقد سعى الرواة العلماء في تلك الفترة إلى جمعه من رواة القبيلة ، ومن الرواة المحترفين ، ومن أفواه أبناء الشعراء وأحفادهم . وتم

1 - د. عفيف عبد الرحمن : مكتبة العصر الجاهلي وأدبه ، ص 57 وما بعدها .

تدوين هذا الشعر . ولقد تعرفنا على أسماء الكثير من الدواوين من خلال ما ذكره ابن خير الاشبيلي ، وابن النديم ، ولكن كثيرا من هذه الدواوين قد تعرض لأفة الضياع .

ويلاحظ أن تحقيق هذه الدواوين قد شهد الحالات التالية⁽¹⁾ :

- 1- دواوين محظوظة وصلت برواية أكثر من عالم ثقة ، وبشروح متعددة مثل : ديوان امرئ القيس ، والنابغة ، وزهير ، وعترة ، وغيرهم . فحظيت باهتمام الناشرين والمحققين فصدرت في أكثر من طبعة .
- 2- دواوين لم يكن لها من الحظ مثل سابقتها ، فلم تنشر إلا مرة واحدة ، ولكن بتحقيق علمي جيد ، أو قريب منه ، ومنها : ديوان أوس بن حجر ، وديوان بشر بن خازم ، وديوان تميم بن مقبل وغيرهم .
- 3- دواوين لم يحالفها الحظ ، فلم تنشر إلا مرة واحدة ، دون أن يراعى في النشر أدنى درجات التحقيق العلمي ، وإنما نشرت في طبعات تجارية ، مثل ديوان السموأل وعروة بن الورد ، وديوان عامر بن الطفيلي .
- 4- ظهر في بعض البلدان باحثون حرصوا على جمع شعر بعض الشعراء من مصادره المختلفة ، وأطلقوا عليه اسم "شعر فلان" ومثال ذلك ما فعله الدكتور نوري القيسي الذي جمع شعر خفاف بن ندب ، وشعر ربيعة بن مقرorum الضبي ...



الفصل السادس:
قضية الانتهاء

كانت الرواية الشفوية القناة الواسعة التي تدفق عبرها الشعر الجاهلي ، حتى وصل إلى عصر التدوين .

وكل أثر له قيمته وأهميته يكون عرضة للشك والاتهام : في أصله ، ونسبة وأصحابه ، وصحته ، وصدقه ...

والأدب في كل أمة من الأمم ، وبخاصة ما فيه من نصوص رائعة ، من الآثار الفنية الممتازة التي تعتز بها الأمم وتتفخر ، وتعتبرها دليلاً مجدها ، وسجل مفاخرها ، ومن ثم تعرضت الآداب القيمة في كل الأمم للشك والاتهام⁽¹⁾ . فاتهم الأدب الجاهلي بالوضع والتزوير ، ولم تكن هذه الملاحظة لتبغيب عن النقاط من العلماء والرواة والباحثين منذ جمْع الأدب الجاهلي وتدوينه ، فقد تتبهوا إلى ذلك ، ووقفوا على النصوص التي ليست أصيلة ، فعرفوها ولم يقبلوها ، واستطاعوا أن يميزوا بين الأصيل والمختلف ، ويتبعنوا الصحيح من الزائف . ومن هؤلاء العلماء

ابن سلَّام :

لعل أهم فكرة شغلت بال ابن سلَّام وأولاًها الكثير من عنايته وبحثه هي فكرة الانتحال ، أو فكرة الشعر المصنوع الذي ينسب للجاهليين ، وليس منهم في شيء .

وهذه الفكرة التي تعد خطاً على الشعر ، قد عرض لها ابن سلام في مقدمة كتابه "طبقات فحول الشعراء" . والحديث عن انتقال الشعر في عصره كان طبيعياً ، فهو عصر بدأ الاهتمام بالرواية فيه يقل ، والعناية بالتدوين تزداد .

ولهذا كان لا بد لصوت كصوته أن يرتفع محذراً ومنبهً ، حتى يتشدد مدّونو الشعر في تمحيص النصوص وتحقيقها ، وحتى تكون الأجيال القادمة من بعده على علم وبصيرة بأمر هذا الانتحال الذي أصاب بعض الشعر الجاهلي .

بواعث الانتحال :

وقد حصرها ابن سلام في سببين :

السبب الأول : يتمثل في قلة أشعار بعض القبائل العربية بعد انتهاء عصر الفتوح الإسلامية ، بسبب موت حملة هذه الأشعار من رجالهم أو قتلهم . فيقول : "لما راجعت العرب رواية الشعر وذكر ايامها ومآثرها استقل بعض العشائر شعر شعرائهم وما ذهب من ذكر وقائعهم ، وكان قوم قد قلت وقائعهم وأشعارهم ، وأرادوا أن يلحقوا بمن له الواقع والأشعار ، فقالوا على ألسن شعرائهم ، ثم كانت الرواية بعد فزادوا في الأشعار⁽²⁾" .

فالقبائل كانت تتزيد في الأشعار ، وتزوي على السنة الشعراء ما لم يقولوه وقد أشار ابن سلام مراراً إلى ما زادته قريش في أشعار الشعراء ، فهي تضيف إلى شعرائها منحولات عليهم .

1 - انظر : د. ناصر الدين الأسد : مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية ، ص 287 وما بعدها .

2 - ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص 39 وما بعدها .

ويذكر أن من أبناء الشعراء وأحفادهم مَنْ كان يقوم بذلك ، مثل داود بن متمن بن نويرة فقد استند أبو عبيدة شعر أبيه متمن ، ولا حظ أنه لما نفذ شعر أبيه جعل يزيد في الأشعار ويصنعها ، وإذا كلام دون كلام متمن ، وإذا هو يحتذى على كلامه⁽¹⁾ .

السبب الثاني : الرواة :

ويقدم لنا ابن سلام طائفتين من الرواة ، كانتا ترويان منتحلاً كثيراً وتنسبانه إلى **الجاهليين** :

الطائفة الأولى : كانت تحسن نظم الشعر وصوغه ، وتضيف ما تنتظمه وتصوغه إلى **الجاهليين** . فخلف الأحمر كان يقول الشعر ، فيجيده ، وربما نحله الشعراء المتقدمين . فلا يتميز من شعرهم لمشاكلة كلامه كلامهم⁽²⁾ . وحماد الرواية كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها ، وكان غير موثوق به ، كان ينحل شعر الرجل غيره ويزيد في الأشعار⁽³⁾ .

ويقرر ابن سلام أن ما زاده الرواة في الأشعار ، أو وضعه المولدون ، قد يسهل على **أهل العلم** معرفته ، أما ما وضعه **أهل البدية** من أولاد الشعراء ، أو من غير أولادهم ، فإنه قد يشكل على **أهل العلم** بعض الإشكال⁽⁴⁾ .

الطائفة الثانية : لم تكن تحسن النظم ، ولا الاحتذاء على أمثلة الشعر الجاهلي ، وهم رواة الأخبار والسير والقصص .

فهو يعدّ **محمد بن اسحق** " ممن هجّن الشعر وأفسده وحمل كل غثاء منه⁽⁵⁾ " . وذلك لأنّه أورد في سيرته أشعاراً لرجال لم يقولوا الشعر قط ، ونساء لم يقلن الشعر قط ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود .

وقد استدل ابن سلام على بطلان هذا النوع من الشعر بالأدلة التالية :

1- يقول ابن سلام : أفلأ يرجع - ابن اسحق - إلى نفسه ، فيقول : من حمل هذا الشعر ؟ ومن أداه منذ ألف السنين ، والله تبارك وتعالى يقول : " وإنه أهلك عاداً الأولى وثمود فما أبقي " . وقال في عاد : " فهل ترى لهم من باقية ؟ " . وقال : " وعاداً وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله⁽⁶⁾ " .

2- إن أول من تكلم بالعربية ونبي لسان أبيه إسماعيل بن إبراهيم ، وإسماعيل كان بعد عاد . ثم إن مَعْدَّاً وهو الجد الذي قبل الأخير من جدود العرب المعروفين كان بازاء موسى عليه السلام ، أو قبله قليلاً . ومعنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودة في عهد عاد ، وإنْ فليس من المعقول أن يوجد شعر بلغة لم توجد بعد .

3- ودليل آخر استمدّه من تاريخ الشعر العربي . ويتمثل ذلك في قوله :

1 - نفسه : ص 40 .

2 - نفسه : ص 58 .

3 - طبقات فحول الشعراء : ص 40 .

4 - نفسه : ص 14 .

5 - نفسه : ص 4 .

6 - نفسه : ص 5-4 .

" ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة . وإنما قصدت القصائد ، وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف . وذلك يدل على إسقاط شعر عاد وثمود وحمير وتبع⁽¹⁾ . ويقول : " وكان أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع المهمة في قتل أخيه كليب وأيال⁽²⁾ وكذلك يقول : " كان امرؤ القيس بن حجر بعد مهلهل ، ومهلهل خاله ، وطرفه وعيده ، وعمرو بن قميئه ، والمتلمس في عصر واحد⁽³⁾ " .

وإذا كان هؤلاء الشعراء الذين لا يبعد عهدهم كثيراً عن عهد الإسلام هم الذين قصدوا القصيدة وأطلقواه ، فإن هذه الحقيقة التاريخية تتفق صحة كل قصيدة تعزى إلى عهد أقدم من عهدهم . وهو بهذا ينفي صحة الشعر الذي أورده ابن سحق في سيرته وعزاه إلى عاد وثمود وحمير وتبع أو غيرهم .

وقد لفقت هذه القضية ، قضية انتقال الشعر الجاهلي ، أنظار الباحثين المحدثين من المستشرقين والعرب ، وببدأ النظر فيها تيودور نولدكه وتلاه آلورد ، ولكن الذي أثار الضجة في هذه القضية ، سلك فيها طريقاً غير فويم ، المستشرق الإنجليزي د. مرجوليوث ، إذ كتب مقالاً مفصلاً نشره في مجلة الجمعية الملكية الآسيوية ، سنة 1925م ، جعل عنوانه "أصول الشعر العربي"⁽⁴⁾ " ونراه يستهل بموقف القرآن الكريم من الشعر متحدثاً عن بدء ظهوره ونشأته وأراء القدماء في ذلك ، ثم ينتقل إلى الحديث عن حفظه ، وينفي أن تكون الرواية الشفوية هي التي حفظه ... وانتهى إلى القول : لم تكن هناك وسيلة لحفظه سوى الكتابة ، ثم يعود فينفي كتابته في الجاهلية ، ليؤكد أنه نظم في مرحلة زمنية تالية للقرآن الكريم ، ويقف بازاء الرواة المتهمين أمثال حماد وخلف الأحمر ، ليزعم أن الوضع في هذا الشعر كان مستمراً . ويقول : إنه لا يمثل الجاهليين الوثنيين ، ولا من تنصروا منهم ، فأصحابه مسلمون ، لا يعرفون التثليث المسيحي ، ولا الآلهة المتعددة ، وإنما يعرفون التوحيد والقصص القرآني وما في الإسلام من مثل الحساب ويوم القيمة وبعض صفات الله .

وينتقل إلى اللغة فيلاحظ أنها لغة ذات وحدة ظاهرة . وهي نفس لغة القرآن الكريم التي أشاعها في العرب . ويقول : ولو أن هذا الشعر صحيح لمثل لنا لهجات القبائل المتعددة في الجاهلية ، كما مثل لنا الاختلاف بين لغة القبائل الشمالية العدنانية واللغة الحميرية في الجنوب .

وزعم أن النقوش المكتشفة للممالك الجاهلية المتحضرة ، وخاصة اليمنية ، لا تدل على وجود نشاط شعري فيها ، فكيف أتيح لبدو غير متحضرين أن ينظموا هذا الشعر ، بينما لم ينظمه من تحضروا من أهل هذه الممالك ؟ .

1 - المرجع السابق : ص 10-11 .

2 - نفسه : ص 13 .

3 - نفسه : ص 13-14 .

4 - قام د. ناصر الدين الأسد بتلخيص تلك المقالة في كتابه القيم " مصادر الشعر الجاهلي وقيمتها التاريخية " ص 352 وما بعدها .

وقد تعرض له جماعة من المستشرقين نقضوا آراءه ، وأبطلوا مزاعمه ، منهم المستشرق شارلس جيمس ليال ، وجورجيو ليفي دلافيدا⁽¹⁾ .

أما العرب المعاصرون فقد كان مصطفى صادق الرافعي في كتابه " تاريخ آداب العرب " أول من شق طريق البحث في هذا الموضوع ، لكنه لا يتجاوز في عرضه سرد ما لاحظه القدماء .

فلما أصبحت القضية بين يدي طه حسين ، وضعها في حلة قشيبة من أسلوبه الجميل ، في كتاب ألقه عام 1926 ، أي بعد عامين من قيام المستشرق مرجوليوث من نشر مقالته المذكورة .

طه حسين :

في سنة 1926 أصدر طه حسين كتابه " في الشعر الجاهلي " ، وأراد به أن يقلب المناهج التقليدية في دراسة الشعر الجاهلي ، فبني منهجه على مذهب بعض أساتذته من المستشرقين ، ودعا إلى الشك في التراث ، وأمعن في ذلك إمعانا حتى أثار ما أراده لمنهجه من ضجة ، لعل أصدق دليل على عنفها أن صاحب الكتاب نفسه أعاد إصداره سنة 1927م بعنوان " في الأدب الجاهلي " بعد أن تناوله بالحذف والإضافة تخفيفاً لما كان من غلواء ، وتجنبها لما كانت الضجة أن تؤدي إليه مما لم يكن في الحسبان .

نتائج مفرعة :

انتهى طه حسين من بحثه إلى " أن الكثرة المطلقة مما نسميه أدباً جاهلياً ليست من الجاهلية في شيء ، وإنما هي منحولة بعد ظهور الإسلام ، فهي إسلامية تمثل حياة المسلمين وميولهم وأهواءهم أكثر مما تمثل حياة الجاهليين⁽²⁾ ". وأضاف : " إن هذا الشعر الذي ينسب إلى أمرئ القيس ، أو إلى الأعشى ، أو إلى غيرهما من الشعراء الجahليين لا يمكن من الوجهة اللغوية والفنية أن يكون لهؤلاء الشعراء ، ولا أن يكون قد قيل وأذيع قبل أن يظهر القرآن⁽³⁾ ". ثم اعتدل في رأيه فقسم الشعر الجاهلي ثلاثة أقسام ، فقال : " إننا نرفض شعر اليمن في الجاهلية ، وننکاد نرفض شعر ربیعة أيضاً ، وأقل ما توجبه علينا الأمانة العلمية أن نقف من الشعر المضري ، لا نقول موقف الرفض أو الإنكار ، وإنما نقول موقف الشك والاحتياط⁽⁴⁾ .

1 - انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، ص 367 وما بعدها .

2 - في الأدب الجاهلي : 71-72 .

3 - نفسه : 73 .

4 - نفسه : 271 .

الدّوافع التي دفعت طه حسين إلى الشك في الشعر الجاهلي :

أولاً : إنه لا يمثل الحياة الدينية والعقلية والسياسية والاقتصادية للعرب الجاهليين⁽¹⁾. وقد فصل القول تفصيلاً في كل جانب ، على هذا النحو الذي سنوضحه :

1- الحياة الدينية : زعم أن " هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين يظهر لنا حياة غامضة جافة ببريئة أو كالبريئة من الشعور الديني القوي والعاطفة الدينية المتسطلة على النفس والسيطرة على الحياة العملية ، وإن فلما تجد شيئاً من هذا في شعر أمرى القيس ، أو طرفة ، أو عنترة ؟ أو ليس عجيباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ، وأما القرآن فيتمثل لنا حياة دينية قوية تدعوا أهلها إلى أن يجادلوا عنها ما وسعهم الجدال ... "⁽²⁾

و واضح أن طه حسين في هذا يوافق مرجوليوث في الطعن في أصالة الأدب الجاهلي لخلوه من تصوير الحياة الدينية عند العرب قبل الإسلام .

أما أن القرآن الكريم نص ثابت ، لا سبيل إلى التشك فيه ، فذلك حق ، ولا جدال فيه ، وأما أن القرآن يصور حياة العرب الدينية قبل الإسلام ، فذلك لا جدال فيه أيضاً ، لأن الناحية الدينية أهم النواحي التي جاء بها الإسلام لإصلاحها ، وبين الحق فيها ، فكان من الطبيعي أن يبين وجه الفساد والخطأ في المعتقدات الدينية التي لا تتسمج مع هذه المبادئ ، ولا تتنقق مع العقل السليم ، ومن ثم كان لا بد أن يفيض في محاربة عبادة الأولان ، ومجادلة أصحاب العقائد التي لا تتماشى مع مبادئه ومناهجه .

بيد أن مقارنة الشعر الجاهلي بالقرآن الكريم في هذه الناحية أمر ينبغي إلا يكون ، ذلك لأن الشعر ليس من أهدافه الوعظ والإرشاد ، ولا الدخول في جدل أيا كان نوعه . ولا يستبعد إطلاقاً أن يكون هناك شعراء تغنو بالعاطفة الدينية ، وصوروها أثر العقيدة في نفوسهم ، بل من المرجح أيضاً أن يكون منهم من تحدث عن الشعائر الدينية في شعره ، غير أن قليلاً أو كثيراً من هذا الشعر لم يصل إلينا لأسباب منها :

1- ضياع كثير من الشعر الجاهلي .

2- إغضاؤهم عن روایة هذا الشعر ، ورعا وتقوى ، ولأن الإسلام ، أيضاً ، قد نهى عن روایة مثل هذا الشعر .

3- إن تأثير الدين في حياة الإنسان الجاهلي كان ضئيلاً .

4- انهيار الوثنية ، في أواخر العصر الجاهلي ، في نفوس أصحابها .

ومع هذا فإن ما وصل إلينا من شعر جاهلي فيه إشارات كثيرة إلى ما كانوا يؤمنون به من معتقدات ، وإن رجعوا إلى كتاب الأصنام لابن الكلبي ، واستقراء موسعاً للشعر الجاهلي يدللان دلالة قاطعة على ما ذهبنا إليه⁽³⁾ .

2- الحياة السياسية : فهو يرى أن العرب " كانوا على اتصال بمن حولهم من الأمم ، بل كانوا على اتصال قوي قسمهم أحزاباً وفرقهم شيئاً . أليس القرآن يحدثنا عن الروم

1 - المرجع السابق : ص 64 .

2 - نفسه

3 - راجع الأشعار التي أثبتناها في حديثنا عن الحياة الدينية ، ص 95 .

وما كان بينهم وبين الفرس من حرب انقسمت فيها العرب إلى حزبين مختلفين: حزب يشاعر أولئك ، وحزب بناصر هؤلاء ؟ أليس في القرآن سورة تسمى "سورة الروم" ؟ لم يكن العرب إذن ، كما يظن أصحاب هذا الشعر الجاهلي معتزلين . فانت ترى أن القرآن يصف عنائهم بسياسية الفرس والروم . وهو يصف اتصالهم الاقتصادي بغيرهم من الأمم في السورة المعروفة { لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف } . وكانت إحدى هاتين الرحلتين إلى الشام حيث الروم ، والأخرى إلى اليمن حيث الحبشة والفرس⁽¹⁾ .

والحق أن الأدب الجاهلي لا يصور العرب في الجاهلية منعزلين عما سواهم من الأمم ، وبخاصة من كانوا يجاورونهم ، كالروم والفرس والحبشة ، من ذلك ما يقوله ابن سلام⁽²⁾ : " وكان أبو الصلت يمدح أهل فارس حين قتلوا الحبشة في كلمة قال فيها 000

ووردت في الشعر الجاهلي إشارات كثيرة للهدن ، وبخاصة عند الكلام على السيف . وكان لصلات العرب الخارجية تأثير في لغتهم وأدبهم ، وقد ظهر ذلك واضحا في كثير من الألفاظ الأجنبية التي عرّبها الجاهليون ، وقد ورد بعضها في القرآن الكريم . فالشعر الجاهلي يدل دلالة قاطعة على صلة العرب الجاهليين بغيرهم من الأمم الأخرى ، ولا يصورهم أمة منعزلة في صحرائها عما سواها من الأمم .

3- الحياة الاقتصادية : وفي تصوير الحالة الاقتصادية بين العرب في الجاهلية يقارن بين القرآن الكريم والأدب الجاهلي فيقول⁽³⁾ : " وأنت إذا قرأت القرآن رأيت أنه يقسم العرب إلى فريقين آخرين : فريق الأغنياء المستأثرين بالثروة ، المسرفين في الربا ، وفريق الفقراء المعدمين ، أو الذين ليس لهم من الثروة ما يمكنهم أن يقاوموا هؤلاء المرابين ، أو يستغنوا عنهم ، وقد وقف الإسلام في صراحة وحزم وقوه إلى جانب هؤلاء الفقراء المستضعفين ، وناضل عنهم ، وذاد خصومهم والمserفين في ظلمهم ... أفتظن أن القرآن كان يعني هذه العناية كلها بتحريم الربا والحد على الصدقة ، وفرض الزكاة ، لو لم تكن حياة العرب الاقتصادية الداخلية من الفساد والاضطراب بحيث تدعى إلى ذلك ؟ فالتمس لي هذا أو شيئاً كهذا في الأدب الجاهلي ، وحدثني أين تجد في هذا الأدب شعره ونشره ما يصور لك نضالاً ما بين الأغنياء والفقراء . ومع ذلك ، فما هذا الأدب الذي لا يمثل فقر الفقير وما يحمل صاحبه من ضرر ، وما يعرضه له من أذى ؟ ...

ثم يتحدث عن ناحية أخرى فيقول : " كنا ننتظر أن يمثلها الشعر لأنها خلقة به ، وتکاد تكون موقفة عليه ، نريد هذه الناحية النفسية الخالصة ، هذه الناحية التي تظهر لنا الصلة بين العربي والمال ... فالشعر الجاهلي يمثل لنا العرب أجوداً كراماً مهينين للأموال مسرفين في ازدرائهما ، ولكن في القرآن إلحاها في ذم البخل والإحاحا في ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذن من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية ... فالعرب في الجاهلية لم يكونوا كما يمثلهم هذا الشعر أجوداً متفانين للمال

1 - المرجع السابق : 74-75 .

2 - أنظر ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص 66-67 .

3 - المرجع السابق : 84-85 .

مهينين لكرامته ، وإنما كان منهم الجود والبخيل ، وكان منهم المخالف والحرirsch ، وكان منهم من يزدرى المال ، ومنهم من يزدرى الفضيلة والعاطفة في سبيل جمعه وتحصيله " .

والشعر الجاهلي ينسف ما ذهب إليه طه حسين نسفا ، إذ أخطأ الأستاذ الكبير الدلالة الصحيحة للشعر الجاهلي على أحوال مجتمعه ، وبنى رفضه له لا على الصورة الصحيحة التي يقدمها هذا الشعر إذا أحسن فهمه ، واستقصيit تصوّره ، بل على الصورة الشائعة عنه ، هذه الصورة المستمدّة من قراءة تقتصر على شعر الأغنياء في مطولاً لهم ، ولا تحسن فهم هذا الشعر نفسه ، ولا تعرف النصوص الغزيرة التي نظمها الشعراء المغمورون من البدو العاديين ⁽¹⁾ .

وفي ظل غياب المؤسسات الرسمية التي تعنى بالأرامل والأيتام والفقراء والمستضعفين ، ظهر عدد كبير من الشعراء الأستقراطيين ، الذين رأوا عليهم واجباً أخلاقياً تجاه هؤلاء المحرومين ، فعملوا على مسح دموع هؤلاء وأولئك ، ومدوا لهم يد العون ، ومن هؤلاء سيد من غطفان ، وهو الحادرة ، الذي رق قلبه لهؤلاء الجياع ، وعجل طبخ الطعام لهم ، فقال مصوراً هذا الموقف الإنساني النبيل ⁽²⁾ :

عجلت طبخته لر هط جوّع
ومغرض تغلى المراجل تحته
قسمًا لقد أنضجت لم يتورع
ولدي أشعث باسط ليمنيه

ولبيد بن ربيعة في معلقه يصور حالة الجياع المضروريين والأرامل والأيتام الذين يؤويهم إلى أطنابه ويطعمهم ويكسوهم ويوقن النيران لتدفّتهم أيام البرد ، استمع إلى هذا الصوت الإنساني وهو يشدو ⁽³⁾ :

هبطا تبالة مخصباً أهضاماها
فالضييف والجار الجنيب كأنما
مثل البالية قالص أهدمها
تأوي إلى الأطناه كل رذية
خلجا تمدُّ شوارعاً أيتامها
ويكللون إذا الربح تناوحت

وها هو طرفة بن العبد البكري يفخر بأنهم يقيمون الولائم الضخمة لجميع الجياع والمحرومين ، ويدعوهم إليها ، فيقول ⁽⁴⁾ :

-
- 1 - د. محمد النويهي : الشعر الجاهلي منهجه في دراسته وتقويمه ، 1/275.
 - 2 - المفضليات : 46.
 - 3 - ديوان لبيد : تحقيق إحسان عباس ، ص 319 .
الأهضم : جمع هضم ، وهي بطون الأودية ذات التحيل والفواكهة ، الرذية : المهزولة ، عن امرأة فقيرة . البالية : الناقة التي تشد عند قبر صاحبها لا تطعم ولا تسقى حتى تموت . قالص : مرتفع . أهدمها : خلقانها : أي تأوي إلى الخيمة الفقرات والفقراء الذين يشهون البالية هزاً .
يكللون : ينضدون اللحم بعضاً فوق بعض . تناوحت : واجه بعضها بعضاً . خلجاً : جفاناً واسعة كالخلجان .
 - 4 - ديوانه : 84.

نحن في المشتاه ندعوا الجفلي
حين قال الناس في مجلسهم
بحفان تعترى نادينا
كالجوابي لا تني مترعة .

لا ترى الآدب فينا ينتقد أقتار
ذاك أم ريح قطر من سديف
حين هاج الصبر لفري الأضيف أو

للمختصر .

وإذا لم يكن في الجزيرة العربية جوع وفقر ، فلمن كانت تقام هذه الجفان ، ولمن كانت تتصلب هذه الموائد ؟

أليس من الطبيعي أن تقام تلك الموائد إلى أولئك المتضورين جوعا ، على نحو ما يعرض علينا المزّرد بن ضرار الذبياني قصة صياد بائس ، له أكلب هزيلة ، وعيال جياع ، ليس في بيته ما يسد رمقه ، ويقيم أوده ... فأخذ يطوف في أصحابه يستجدفهم فلم يظفر منه بشيء ... فعاد إلى بيته ، وأهزلهم ... فأخبر زوجه إن كان لديها والمعد الفارغة ... لقد أضنى الجوع أبناءه ، وأهزلهم ... نعم هذا البئر ... وهذا الحلد شيء من طعام ، إذ لم يجد في الناس خيرا . قالت له : نعم هذا البئر ... وهذا الحلد البابس المحترق ... فسقط من شدة الإعياء ، والقهر النفسي ... وجر على جسمه بقايا ثوبه يحاول أن ينام ، وكيف ينام ؟ وقد قص المزّرد هذه الحادثة بأسلوب مؤثر ، يجعلك تسمع أنيات ذلك الرجل ، ويتمنق قلبك حزنا على أولئك الصبية الذين تسمع صيحاتهم ،

قال : (1)

فإن غزير الشعر ما شاء قائل
له رقيبات وصفراء ذابل
تقفل في اعناقهن السلاسل
وجلاء والسرحان والمتناول
فماتا فأودي شخصه فهو خامل
وقال له الشيطان إنك عائل

فعد قريض الشعر إن كنت مغزرا
لنعت صباحي طويل شقاوه
بقين له مما ييري وأكلب
سهام ومقلاء القنیص وسلهب
بنات سلوقيين كانوا حياته
وأيقن إذ ماتا بجوع وخيبة

المشتاه : زمن الشتاء ، وفيه يصبح الكرم عند البدوي له معناه ودلاته . الجفلي : الدعوة العامة إلى الطعام . ينتقد : يدعوا القرى ، وهي الدعوة الخاصة إليه . الآدب : الذي يدعوا الناس إلى مأدبتهم . القثار : رائحة اللحم المشوي . القطر : خشب البخور . الجفان : جمع جفنة : وهي قصعة الطعام . الشديف : شرائح السنام . الصبر : أشد البرد . الجوابي : جمع جابية ، وهي حوض كبير .

1 - المفضليات : 101-102

عد : اصرف وتجاوز . المغزز : الكثير . صباحي : رجل منبني صباح ، كان ضيفا له ، وكان صائدا . رقيبات : سهام منسوبة إلى صانع ، أو بلد ، الصفراء : القوس . الذابل : التي قطع عودها وطرحـت في الشمس . ييري : من بري السهام . سهام ومقلاء ... أسماء كلابه الستة . السلوقية : كلاب تنسب إلى سلوق ، قرية باليمن . يستثيرهم : يطلب ثوابهم . أكدت : امتنعت . المغالي : سهام لا نصال لها . يريد أن صبيانه في ضعفهم وسوء حالهم مثل هذه السهام . الخرمـل : الحمقاء ، الرواد : الطوافة في بيوت جاراتها . هابل : من قولهـم هبلـته أي فقدـته . الطويـل : البـنـر . الحالـلـ : الذي أتـى عليه حول . الطـلـيـعـ : الـضـعـيـفـ . الـبـلـابـلـ : هـمـاهـمـ صـدـرهـ .

فَآبٌ وَقَدْ أَكْدَتْ عَلَيْهِ الْمَسَائِلِ
رُوَادٌ مِنْ شَرِّ النِّسَاءِ الْخَرَامِلِ
أَذْمَ إِلَيْكَ النِّسَاءُ أَمْكَ هَابِلِ
وَمُحْتَرِقٌ مِنْ حَائِلِ الْجَلْدِ قَاحِلِ
وَأَمْسَى طَلِيحاً مَا يَعْانِيهِ بَاطِلِ
فَأَعْيَا عَلَى الْعَيْنِ الرَّمَادِ الْبَلَابِلِ

فَطَوْفَ فِي أَصْحَابِهِ يَسْتَثِيْبُهُمْ
إِلَى صَبَبَةِ مُثْلِ الْمَغَالِيِ وَخَرْمَلِ
فَقَالَ لَهَا : هَلْ مِنْ طَعَامٍ فَإِنِّي
فَقَالَتْ : نَعَمْ هَذَا الطَّوَّيِ وَمَاؤِهِ
فَلَمَّا تَنَاهَتْ نَفْسَهُ مِنْ طَعَامِهِ
تَغْشَى بِرِيدِ النَّوْمِ فَضْلُ رَدَائِهِ

وَتَنَرَّدَّ فِي أَشْعَارِ الصَّعَالِيَكِ صِيحَاتُ الْجَوْعِ وَالْفَقْرِ وَالْحَرْمَانِ ، وَلَمْ يَكْتُفُوا بِالشَّكُوكِ اللِّسَانِيَةِ ، بَلْ
لَجَاؤُوا إِلَى التَّوْرَةِ الدَّامِيَةِ .

وَقَدْ جَسَدَ الشَّنْفَرِيُّ الْأَرْدِيُّ حَالَةَ الْجَوْعِ هَذِهِ ، بَخْلُقَ الْمَعَادِلِ الْمَوْضُوعِيِّ فَيَتَخَذُ
الْذَّنَابَ بَدِيلًا عَنْ ذَانِهِ ، فَقَدْ غَدَا ذَئْبًا جَائِعًا ، يَعْانِي مَا تَعْانِي^(١)

أَرْلَ تَهَادِهِ التَّنَافِيْ أَطْحَلَ يَخُوتَ
بِأَذْنَابِ الشَّعَابِ وَيَعْسُلَ دَعَا فَأَجَابَتِهِ
نَظَائِرَ نَحْلَ قَدَاحَ بَكْفِيِ يَاسِرَ
تَتَقَلَّقَ مَحَابِيْضُ أَرْدَاهِنَ سَامَ
مَعْسُلَ شَقْوَقُ الْعُصَيِّ كَالْحَاتِ وَبَسْلَ
وَايَاهُ نَوْحُ فَوْقُ عَلِيَّاءِ ثَكَلَ
مَرَامِيلُ عَزَّاهَا وَعَزَّتِهِ مَرْمَلَ

وَلِلصِّيرِ إِنْ لَمْ يَنْفَعِ الشَّكُوكُ أَجْمَلَ عَلَى

نَكْظِ مَا يَكَبِدُ مَجْمَلَ

وَأَغْدَوْ عَلَى الْقُوَّتِ الزَّهِيدِ كَمَا غَدَ
غَدَا طَاوِيَا يَعْارِضُ الرِّيَحَ هَافِيَا
فَلَمَّا لَوَاهُ الْجَوْعُ مِنْ حَيْثُ أَمْهَ
مَهْلَهْلَةَ شَيْبِ الْوَجْهِ كَانَهَا أَوَ
الْخَشْرَمَ الْمَبَعُوثَ حَثَّثَ دِبَرَهُ
مَهْرَتَهُ فَوْهُ كَانَ شَدَوْقَهَا
فَضَبَّجَ وَضَجَّتْ بِالْبَرَاحِ كَانَهَا
وَأَغْضَى وَأَغْضَتْ وَاتَّسَى وَاتَّسَتْ بِهِ
شَكَا وَشَكَّتْ ثُمَّ ارْعَوَى بَعْدَ وَارْعَوَتْ
وَفَاءَ وَفَاءَتْ بَادِرَاتَ وَكَلَهَا

5- الحياة الاجتماعية :

- 1 - لامية العرب ، ص 58 وما بعدها .
الزَّهِيدُ : الْفَلِيلُ . الْأَزْلُ : الْخَفِيفُ الْوَرْكِينُ . التَّنَافِيْ : جَمْعُ تَنَوْفَهُ ، وَهِيَ الْمَفَازَةُ . الطَّوَّيِّ : الْجَائِعُ .
الْهَافِيِّ : الْمَسْرَعُ . يَخُوتُ : يَنْقُضُ . الشَّعَابُ : الْطَرَقَاتُ الْجَبَلِيَّةُ . لَوَاهُ الْقُوَّتُ : امْتَنَعَ عَلَيْهِ . أَمَهُ : قَصَدَهُ .
النَّظَائِرُ : الْأَشْيَاءُ . نَحْلُ : ضَعِيفَةُ لَشَدَّةِ الْجَوْعِ . مَهْلَهْلَةُ : ضَعِيفَةُ . شَيْبُ الْوَجْهِ : مَبِيسَةُ . قَدَاحُ :
سَهَامُ . الْيَاسِرُ : الْلَاعِبُ بِسَهَامِ الْمَيْسِرِ . تَتَقَلَّقُ : تَضَطَّرُبُ . الْخَشْرَمُ : رَئِيسُ النَّحْلِ . حَثَّثُ : حَضَ
وَطَلَبَ مِنْهُ الْأَسْرَاعُ . الدَّبِرُ : جَمَاعَةُ النَّحْلِ . الْمَحَابِيْضُ : جَمَعُ مَحَابِيْضٍ وَهِيَ عِيدَانٌ يَتَذَخَّلُهَا مَشَّتَارٌ
الْعَسْلُ فَيَثْبُرُ بِهَا النَّحْلُ . مَهْرَتَهُ : مَشْقَوَةُ الْفَمِ . كَالْحَاتُ : عَابِسَاتُ الْوَجْهِ . بَسْلُ : جَمَعُ بَاسِلٍ وَهُوَ مِنْ
الْكَرِيْهِ . الْبَرَاحُ : الْأَرْضُ الْوَاسِعَةُ . نَوْحٌ : جَمَعُ نَائِحَةٍ . اَنْسَى : امْتَنَلَ . مَرَامِيلُ : جَمَعُ مَرْمَلٍ وَهُوَ مِنْ
لَا زَادَ مَعَهُ . بَادِرَاتُ : مَسْرَعَاتُ . النَّكْظُ : شَدَّةُ الْجَوْعِ .

ويقول :⁽¹⁾ " فهذا الشعر لا يعني إلا بحياة الصحراء والبادية ، وهو لا يعني بها إلا من نواح لا تمثلها تمثيلا تاما . فإذا عرض لحياة المدر فهو يمسها مسا رفيا ولا يتغافل في أعماقها ، وما هكذا نعرف شعر الإسلام . ومن عجيب الأمر أنها لا نكاد نجد في الشعر الجاهلي ذكر البحر أو الإشارة إليه ، فإذا ذكر ذكر يدل على الجهل لا أكثر ولا أقل . أما القرآن الكريم فيمن على العرب بأن الله قد سخر لهم البحر وبأن لهم في هذا البحر منافع كثيرة ... "

ويصرع بالعبر أثلا وزارا
يحط القلاع ويرخي الزيارا

يكب السفين لأدقانه
إذا رهب الموج نوتيه .

ثانيا - اختلاف اللغة :

تحدث عن لغة الأدب الجاهلي ، واتخذ منها سببا قويا للطعن في أصلاته ، وللقول إنه لا يمثل اللغة العربية في العصر الجاهلي مطلقا ، فيقول : " إن الأدب الجاهلي لا يمثل اللغة الجاهلية "⁽²⁾ . ثم يقول : إن هناك خلافا جوهريا بين لغة حمير (وهي العرب العربية) ولغة عدنان (وهي العرب المستعربة) . ويستند في ذلك إلى أمرين : الأول : ما قاله أبو عمرو بن العلاء : ما لسان حمير بلساننا ، ولا لغتهم بلغتنا .

والثاني : أن البحث الحديث أثبت خلافا جوهريا بين اللغة التي كان يصطنعها الناس في جنوب البلاد العربية ، واللغة التي كانوا يصطنعونها في شمال هذه البلاد . ثم انتهى إلى القول : " فالقططانية شيء ، والعدنانية شيء آخر ... واذن مما خطب هؤلاء الشعراء الذين ينسبون إلى قحطان ، والذين كانت كثرتهم تنزل اليمن ، وكانت فلتهم من قبائل يقال انها قحطانية قد هاجرت إلى الشمال : ما خطب هؤلاء الشعراء وما خطب فريق من الكهان والخطباء يضاف إليهم نثر وسجع ، وكلهم يتخذ لشعره ونشره اللغة العربية الفصحى ، كما نراها في القرآن ؟ أما أن هؤلاء كانوا يتكلمون لغتنا العربية ففرض لا سبيل إلى الوقوف عنده فيما يتصل بالعصر الجاهلي ، فقد ظهر أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى ، أو قل لغات أخرى . ".

وبعد ذلك يناقش القول إن اليمنيين قد اتخذوا لغة العدنانيين لغة أدبية لهم ، ينشئون بها شعرهم ونثرهم الفنانيين ، فيقبل هذا القول على أنه " حق لا يحتمل شكولا ولا جدالا بعد ظهور الإسلام ، لأن اللغة العربية الفصحى ، وهي لغة هذا الدين الجديد ، ولغة الكتاب المقدس ، ولغة حكومته الناشئة القوية ، أصبحت لغة رسمية ، ثم لغة أدبية للدول الإسلامية كلها " . أما قبل الإسلام ، فلا يقبل هذا الرأي ، بل يرفضه وينكره ، معتمدا على " أن السيادة السياسية والاقتصادية – التي من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب – قد كانت للقططانيين دون العدنانيين " .

ثم يذكر كذلك هجرة فريق من القططانيين إلى شمال البلاد العربية واستقرارهم فيها ، واتخاذهم لغة الشمال أداة للتخاطب والآثار الأدبية بحجة أن هذه الدعوى تقوم

1 - في الأدب الجاهلي : ص 87 .

2 - المرجع نفسه : ص 88 وما بعدها .

على أساسين ، هما : النسب ، وسيل مأرب ، وهو لا يقبل هذين الأساسين إلا إذا قام الدليل العلمي على صحتها .

ثالثا - اختلاف اللهجات :

ويتحدث عن الشعر الجاهلي واللهجات الشمالية ، فيحاول أن يتخذ من ذلك مطعنا جديدا في أصالة الأدب الجاهلي ، وصدقه ، فيقول (1) : فالرواة مجتمعون على أن قبائل عدنان لم تكن متحدة اللغة ، ولا متفقة اللهجة قبل أن يظهر الإسلام ، فيقارب بين اللغات المختلفة ، ويزيل كثيرا من تباين اللهجات . وكان من المعقول أن تختلف لغات العرب العدنانية ، وتباين لهجاتهم قبل ظهور الإسلام ... فإذا صح هذا كله كان من المعقول جدا أن تكون لكل قبيلة من هذه القبائل العدنانية لغتها ولهجتها ومذهبها في الكلام ، وأن يظهر اختلاف اللغات وتباين اللهجات في شعر هذه القبائل الذي قيل قبل أن يفرض القرآن على العرب لغة واحدة ولهجات متقاربة ، ولكننا لا نرى شيئا من ذلك في الشعر الجاهلي ، فأنت تستطيع أن تقرأ هذه المطولات أو المعلقات التي يتخذها أنصار القديم نموذجا للشعر الجاهلي الصحيح ، فسترى أن فيها مطولة لامرئ القيس ، وهو من كندة أي من قحطان ، وأخرى لزهير ، وأخرى لعترة ، وثالثة للبيد ، وكلهم من قيس ، ثم قصيدة لظرفة ، وقصيدة لعمرو بن كلثوم ، وقصيدة أخرى للحارث بن حزرة ، وكلهم من ربعة . تستطيع أن تقرأ هذه القصائد السبع دون أن تشعر فيها بشيء يشبه أن يكون اختلافا في اللهجة ، أو تباعدا في اللغة ، أو تباينا في مذهب الكلام : البحر العروضي هو هو ، وقواعد القافية هي هي ، والألفاظ مستعملة في معانيها كما تجدها عند شعراء المسلمين ، والمذهب الشعري هو هو . كل شيء في هذه المطولات يدل على أن اختلاف القبائل لم يؤثر في شعر الشعراء تأثيرا ما . فنحن بين اثنتين : إما أن نؤمن بأنه لم يكن هناك اختلاف بين القبائل العربية من عدنان وقحطان ، لا في اللغة ، ولا في اللهجة ، ولا في المذهب الكلامي ، وأما أن نعرف بإن هذا الشعر لم يصدر عن هذه القبائل ، وإنما حمل عليها بعد الإسلام حملـا . ثم ينتهي إلى القول : " ونحن إلى الثانية أميل مما إلى الأولى . فالبرهان القاطع قائـم على أن اختلاف اللغة واللهجة كان حقيقة واقعة بالقياس إلى عدنان وقحطان " .

والحق أن طه حسين قد جانبه الصواب ، لأن ما بين أيدينا من شعر جاهلي يدل دلالة قاطعة على أن القبائل العربية الشمالية قد اصطاحت فيما بينها على لهجة أدبية فصحى ، كان شعراء على اختلاف قبائلهم وتبعاً لها ينظمون فيها شعرهم (2) ، وأن هذه اللغة ، التي سنسميتها " اللغة الموحدة " ، قد انصرفت فيها اللهجات العربية ، وتفاعلـت في عملية تنقية وتهذيب ، مما استجـيد منها ضـمـ إلى الفصحى رصـيدـاـ لـغـوـيـاـ . وما استـقـبـحـ نـفـيـ عنـهـ ، وأـبـعـدـ مـنـهـ لـيـظـلـ عـلـىـ حـالـهـ مـسـتـعـلـاـ فـيـ اللـغـةـ العـادـيـةـ ، لـغـةـ الـحـيـاةـ الـبـيـوـمـيـةـ . لأنـ هـذـهـ اللـغـةـ المـوـحـدـةـ هـيـ التـيـ تـسـتـوـعـ كـلـ الـاحـتـيـاجـاتـ عـلـىـ الـمـسـتـوـيـاتـ الـعـلـيـاـ ، وـتـنـسـعـ لـإـلـقـاءـ الـخـطـبـ فـيـ الـمـؤـتـمـرـاتـ ، وـصـيـاغـةـ الـاـنـقـافـيـاتـ ، وـإـبـرـامـ الـمـعـاهـدـاتـ ، وـإـلـقاءـ الـشـعـرـ فـيـ الـأـسـوـاقـ ، وـإـنـ الـذـيـنـ يـتـعـاملـونـ بـهـاـ هـمـ صـفـوـةـ مـنـ النـاسـ ، تـمـيـزـوـاـ مـنـ

1 - المرجع السابق : 103 وما بعدها .

2 - د . شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، 131 .

غيرهم بسعة الثقافة ، ورقة الإحساس ، ورفعه الذوق ، فكان لا بد أن تكون لهم لغة خاصة تستعلي على لغة الحياة اليومية ، وما فيها من لهجات ، رأوا أنها معيبة وبغيضة ، يجب الترفع باللغة النموذجية عنها . قال بروكلمان (1) : "ولا شك أن لغة الشعر القديم هذه لا يمكن أن يكون الرواية والأدباء اخترعواها على أساس كثرة من اللهجات الدارجة ، ولكن هذه اللغة لم تكن لغة جارية في الاستعمال العام ، بل كانت لغة فنية قائمة فوق اللهجات ، وإن غذتها جميع اللهجات " .

وإذا قرأنا هذه الأشعار المشتركة اللغة ، التي تذوب فيها الفوارق اللهجية وتنتهي خاللها الميزات القبلية ، أدركنا كيف صح أن يكون كل من : أمرئ القيس والنابغة ، والأعشى ، وزهير ، وبشر بن أبي خازم ... جوابا عن : من أشعر الناس ؟ .

فلو كان كل شاعر من هؤلاء ينظم شعره بلغته الخاصة ولهجة قبيلته ، فمن يكون الحكم ، ولأي لهجة تعطى الأولوية ، وفيما تتبادر الهم ، وتنافس القدرات ، إذا لم تكن وحدة اللغة قاسما مشتركا حتى يمكن المقارنة والموازنة ، وبالتالي المفاضلة . ولا أحد خيرا مما قاله إبراهيم أنيس (2) " كان لا بد لأولئك الشعراء الذين جاؤوا من بيئات متباعدة أن ينظموا شعرهم بلغة خالية من عنعنة أو عجعة أو كشكشة لينال إعجاب سامعيه ، ولا يكون موضع سخرية وهزائم ، وإلا فكيف كان من الممكن أن يفضل شاعر على شاعر في تلك المناظرات إذا كان القياس مختلفا ، وأداة القول متباعدة " .

أسباب الاتصال

تحدث طه حسين عن أسباب نهل الشعر ، فحصرها في السياسة ، والدين ، والقصص ، والشعوبية ، والرواية .

أما السياسة ، وأراد بها العصبية القبلية ، فرأها تلعب دورا واضحا في شعر قريش والأنصار ، إذ أضافت قريش إلى نفسها شعرا كثيرا ، وقد استكثرت بنوع خاص من الشعر الذي يهجي به الأنصار ، وانتهى إلى القول : "إن العصبية وما يتصل بها من المنافع السياسية قد كانت من أهم الأسباب التي حملت العرب على نهل الشعر للجاهلين " .

وينتقل إلى الدين فيبين دوره في هذا النهل متشككا في الأشعار التي يقال " إنها نظمت في الجاهلية إرهاضا ببعثة الرسول ، مما رواه ابن اسحق ، واحتفظ به ابن هشام في سيرته ، ومثله ما يضاف إلى الجن والأمم القديمة البائدة .

ويتابع حديثه فيذكر أن من تأثير الدين في نهل الشعر ما كان يشعر بالحاجة إليه ، علماء العرب في إثبات أن القرآن عربي مطابق في ألفاظه للغة العرب ، " فحرصوا على أن يستشهدوا على أن كل كلمة من كلمات القرآن عربية لا سبيل إلى الشك في عربيتها " . ويعقب على ذلك بأنه يعتقد أنه " إذا كان هناك نص عربي لا تقبل لغته شكا ولا ريبا وهو لذلك أوثق مصدر للغة العربية ، فهو القرآن الكريم . وبنصوص القرآن

1 - بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، 1/42 .

2 - د. إبراهيم أنيس : في اللهجات العربية ، 39 - 40 .

وألفاظه يجب أن يستشهد على صحة ما يسمونه الشعر الجاهلي ، بدل أن نستشهد بهذا الشعر على نصوص القرآن .

وتحدث عن القصاص والقصاص وأثرهم في وضع الشعر ، فقال : " وأنت تعلم أن القصاص العربي لا قيمة له ولا خطر في نفس ساميته ، إذا لم يزيشه الشعر ... وإن قد كان القصاص أيامبني أمية وبني العباس في حاجة إلى مقادير لا حد لها من الشعر ، يزبون بها قصصهم ، ويدعمون بها مواقفهم المختلفة فيه . وهم قد وجدوا من هذا الشعر ما كانوا يشتهون وفوق ما يشتهون (1) " .

وعن الشعوبية وصلتها بنحل الشعر ، تحدث طه حسين عن نشأة الشعوبية بعد دخول الموالي في الإسلام ، و موقفهم من الأحزاب السياسية منذ قيام الدولة الأموية ، واستغلالهم الخصومات السياسية التي كانت بين هذه الأحزاب ليعيشوا من جهة ، وليخروا من الرق من جهة أخرى ، ثم ليشفوا ما في صدورهم من غل ، وينفسوا عن أنفسهم ما كانوا يضمرون من ضغينة للعرب من جهة ثالثة ، وانتهى إلى أن الموالي أنطقوا العرب بكثير من نثر الكلام وشعره فيه مدح للفرس ، وثناء عليهم ، وتقرب منهم ، وهم زعموا أن الأعشى زار كسرى ومدحه ، وظفر بجوائزه ، وهم أضافوا إلى عدي بن زيد ولقيط بن يعمر وغيرهما من إباد والعباد كثيراً من الشعر ، فيه الإشادة بملوك الفرس وسلطانهم وجيوشهم (2) ...

وفي الحديث عن الرواية ونحل الشعر ، يقول : " ولعل أهم هذه المؤثرات التي عبّثت بالأدب العربي ، وجعلت حظه من الم Hazel عظيمـاً : مجـونـ الروـاـةـ وإـسـرـافـهـمـ فيـ الـلـهـوـ وـالـعـبـثـ ، وـانـصـرـافـهـمـ عنـ أـصـوـلـ الدـيـنـ وـقـوـاعـدـ الـأـخـلـاقـ إـلـىـ ماـ يـأـبـاهـ الـدـيـنـ وـتـنـكـرـهـ الـأـخـلـاقـ (3) " .

ولكنه لا يتحدث هنا إلا عن اثنين من الرواية ، فيقول : " ولست أذكر هنا إلا اثنين إذا ذكرتهما فقد ذكرت الرواية كلها والرواية جميعـاً ، فأما أحدهما فحمد الرواية ، وأما الآخر فخلف الأحمر (4) .

ثم يسوق جملة من الأقوال التي قيلت ضد كل منها ، وينتقل إلى الحديث عن أبي عمرو الشيباني ، فيقول : " وأكبر الظن أنه كان يؤجر نفسه للقبائل ، يجمع لكل واحدة منها شعراً ، يضيفه إلى شعرائها (5) " . وانتهى إلى القول : " وإذا فسدت مروءة الرواية ، كما فسدت مروءة حماد وخلف وأبي عمرو الشيباني ... كان من الحق علينا ألا نقبل مطمئنين ما ينقلون إلينا من شعر القدماء " .

وبعد أن انتهى من رواة الأمصار النفت إلى رواة الأعراب ، فرمـاهـ بـأنـهـ كانواـ يتـخـذـونـ النـحـلـ فـيـ الشـعـرـ وـالـلـغـةـ وـسـيـلـةـ منـ وـسـائـلـ الكـسـبـ ، وـقـالـ عـنـهـمـ : " فـلـيـسـ مـنـ شـاكـ عـنـدـ مـنـ يـعـرـفـ أـخـلـاقـ الـأـعـرـابـ فـيـ أـنـ هـؤـلـاءـ النـاسـ حـيـنـ رـأـواـ إـلـاحـ أـهـلـ الـأـمـصارـ عـلـيـهـمـ فـيـ طـلـبـ الشـعـرـ وـالـغـرـبـ وـعـنـيـتـهـمـ بـمـاـ كـانـواـ يـلـقـونـ إـلـيـهـمـ مـنـهـاـ ، قـدـرـواـ بـضـاعـتـهـمـ " .

1 - المرجع السابق : 151 .

2 - المرجع السابق : 164 .

3 - المرجع السابق : 168 .

4 - المرجع السابق : 169 .

5 - المرجع السابق : 171 .

واستكثروا منها ، ... وأخذ هؤلاء الأعراب يكذبون ، وأسرفوا في الكذب ، حتى أحس الرواة أنفسهم ذلك (1) .

إنكار التزييف :

على أن العقاد ، إنما ينكر التزييف تماما ، ويرى أنه ما من قارئ للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواية ، يلتفون أشعار الجاهلية ، كما وصلت إلينا ، ويفلحون في ذلك التأفيق ، إذ معنى ذلك (أولا) أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التي بلغها أمرؤ القيس ، والنابغة ، وطرفة ، وعترة ، وزهير ، وغيرهم من فحول الشعر في الجاهلية ، ومعنى ذلك (ثانيا) أنهم مقتدون على توزيع الأساليب حسب الأمزجة والأعمار ، والملكات الأدبية ، فينظمون بمزاج الشاب طرفة ، ومزاج الشيخ زهير ، ومزاج العربيد الغزل امرئ القيس ، ومزاج الفارس المقدم عترة ، ويتحررون لكل واحد مناسباته النفيسة ، والتاريخية . ويجمعون له القصائد على نمط واحد في الديوان الذي ينسب إليه ، ومعنى ذلك (ثالثا) أن هذه القدرة توجد عند الرواة ، ولا توجد عند أحد الشعراء ، ثم يفرط الرواة في سمعتها ، وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل ، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان ، فضلا عن إساغته بغير برهان ، ولغير سبب إلا أن يتوهם ويعزز التوهم بالتخمين (2) .

1 - المرجع السابق : ص 172 .

2 - عباس العقاد : مطلع النور ، ص 48-49 .



الفصل السابع:

أغراض الشعر الجاهلي

الحماسة

تعد الحماسة من أهم الأغراض الشعرية ، وأكثرها دوراً في القصيدة الجاهلية ، لارتباطه الوثيق بالمعارك والحروب .

أما الحماسة لغة فهي القوة والشدة ، وقوم حُمْس : متشددون في الدين ⁽¹⁾ . والحماسة تعني الشجاعة ، والتغنى بالقوة والبطولة ، لذا غلت الحماسة على شعر الجاهليين ، حتى سمي أبو تمام كتابه "الحماسة" ، نسبة إلى الباب الأول في الكتاب ، وهو باب الحماسة ، وهو أضخم الأبواب .

ويعد هذا الباب من أهم الأبواب ، لأنه يمثل خط الهجوم الأول ، فكان شعراً القبائل يرددون بهذا الشعر خصومهم ، ويضعون معنوياتهم ⁽²⁾ .

وتعتبر قصيدة مالك بن زرعة الباهلي نشيداً من أناشيد الحرب والبطولة والفروسية ، تحدث فيها عن غزوة شنها وقومه بذات العراقي ، حين سارت كتيبة ضخمة كثيفة ، كثر فيها الحديد ، فغدت شهباء تبرق فيها الأسنة والسيوف ، لو ناطحت الجبال لدكتها ، وزلزلتها .

وتصايم القوم واستنصروا ، فقد دعوا بني كعب ، واستدرجوا بمذحج ، فلما رأوا أن كعباً قلب لهم ظهر المجنّ ، وعرفوا ميلها نحو عدوهم ، استنصروا قومهم بني آبائهم كعب بن مالك ، فأجابوهم ، وجاء المناصرون من كل حي ، وتهيأوا للقتال ، وخاضوا حرباً موجعة ، ذاق الفريقيان منها ضرباً موجعاً بكل رمح رديني أصم حاد ، وبالسيوف التي لا تقل ، يزيلون الرؤوس ويقطعون الأعناق ، ويطعنون أعداءهم طعنات يندفع منها الدمغ غزيراً متدفعاً كما يندفع البول من الإبل الحوامل .

وilyتفت إلى الخيل ليرسم لها صورة تدل على تعها ، قد اغترت نواصيها ، وأخذ الفرسان يزجرونها لتتقدم ، ولكنها كانت تحتمم من ألم الرماح المستقرة في نحورها ، وإذا فاتهم طعن الرماح فإن رشقات السهام التي تأتيهم متطايرة كالجراد من كل جانب لا بد أن تصيبهم ، وأسفرت المعركة بعد حين عن جثث منتشرة في أرض المعركة ، وقد شبعت النسور من جثث القتلى ، قتلى الأعداء .

أما الشاعر وقومه فقد عادوا بالغنائم ومن خير ما غنموا تلك السبايا من نساء القوم ، فأنهن المها حسناً ، وقد صرن زوجات لهم ، بحد السيف ، وما مهورهن إلا (صدور الفتى والمشرف في مهورها) ⁽³⁾ .

1 - ابن منظور : لسان العرب ، مادة " حمس " .

2 - د . نوري حمو迪 القيسي : الفروسية في الشعر الجاهلي ، ص 243 .

3 - قصائد جاهلية نادرة : ص 163 وما بعدها .

المغار : الغارة على الأعداء . ذات العراقي : موضع . ملمومة : كتيبة مجتمعة مضموم بعضها إلى بعض . شهباء : لكثرة ما فيها من الحديد . عماليه : اسم جبل . دمخ : اسم جبل . التفير : القوم الذين يتقدمون . رديني : رمح منسوب إلى ردينة . أصم : صلب . مذّب : حاد . المشرفيات : السيوف . إيزاغ المخاض : إخراجها البول دفعة واحدة .

المنصفات

ومن الخلق الذي يلفت الأنظار ، ويستثار بالإعجاب أن يقر الفارس بفضل خصمه وبسالته . وفي الشعر الجاهلي من هذا الضرب من الموضوعات شيء كثير ، " وهذا الضرب من الشعر الذي لا يحتكر الشجاعة لجانب دون آخر ، وهو الذي عرف بشعر الإنصاف ، وفضائله المنصفات " (1) .

ويرى نوري القيسى أنه " طبيعى أن يدفعهم هذا الخلق إلى أن يكونوا منصفين ، حتى مع خصومهم ، لأن الفطرة العربية السليمية تملئ على صاحبها ذلك ، على الرغم من كل الاعتبارات التي كانت تحاط بالمجتمع العربي آنذاك ، وعلى الرغم من كل القيم المتعارف عليها في خضم ذلك الوسط القبلي المتزمرت " (2) .

ومن الشعراء الذين شهروا بهذا الفن الشعري العباس بن مرداس ، والمفضل النكري ، وعبد الشارق بن عبد العزى ، وغيرهم كثير .

فال Abbas بن مرداس بدأ قصيده بذكر الأطلال ، ثم انتقل إلى وصف الحرب ، فقد سار قومه إلى الأعداء في جمع كثيف ، يمتطون الإبل ، ويقودون الخيول ، في رحلة طويلة ، قضوا فيها تسعًا وعشرين ليلة ، وصبحوا أعداءهم على حين غرة ، هم في الحديد ، وأعداؤهم في غفلة عنهم، ينحررون الإبل ويقطعونها ، ولكنهم عندما رأوه ، أدوا للحرب حقها ، وقاوموا أعنف مقاومة في استبسال رائع . ثم فخر بشجاعته التي شهد له بها الكثير ، ويفخر كذلك بشجاعة قومه ، وشدة طعنهم للأعداء ، الذين حمّتهم دروعهم من الهلاك وإن قومه قتلوا بكريم منهم ستة من أعدائهم : (3)

الفخر

ويبدو أن طبيعة النظام الجاهلي الذي تحكم في إذابة الشخصية الفردية في كيان القبيلة الاجتماعي أدى إلى أن تصبح التجربة القبلية مدار أغراض الشعر ، وفنونه بوجه عام . ومن هنا صح أن يقال : إن الشعر كان سجل الحياة الاجتماعية وتاريخها الإنساني .

وخير من يمثل هذا الاتجاه القبلي العنيف عمرو بن كلثوم في معلقته التي سماها أحد الدارسين "أشودة تغلب" ⁽⁴⁾ . وفي هذه المعلقة يعرض لنا فارس تغلب صورة

¹- د. يحيى الجبوري : الشعر الجاهلي ، ص 306.

2- د. نوري حمودي القيسى : دراسات في الشعر الجاهلي ، ص 104.

3- الأصنعيات : ص 204-207.

أكر : أكثر كرا . الحقيقة : ما يحق على المرء أن يحميه . القوانس : جمع قونس ، وهو أعلى بيضة الرأس . المذاكي :

جمع مذكٍ ، وهو ما جاوز القروح بسنة . وقد قرَح الفرس : إذا دخل في السادسة . المدعس من الرماح : الغليظ الشديد الذي لا ينتهي . الأكليس : جمع الأكليس . والكيس : العقل . أباء به : قتلَه به . البواء : السواء والكافء .

المعاطس : الأنوف . الأبلخ : المتكبر ، أو هو المشرق الوجه . المتقاعس : المتنمنع الذي يطأطئ رأسه .

4- د. يوسف خليف : الروائع ، ص 261 .

قبيلة متمرة ، ما خضعت يوماً لملك ، وما رعت له حرمة ، كالرحي في القبائل ، تسحق منها مَنْ تشاء ، وتبقي مَنْ تشاء ، ورثت الأمجاد خلفاً عن سلف ، ووقفت دونها تحميها ، وتحمي من يلوذ بها من قبائل العرب ، تطاعن بالرماح ، وتضرب بالسيوف ، وتشق رؤوس القوم شقاً "فتخليها الرقاب فيختلينا". وأما جماجم الأبطال فتندحر ج فوق سطح الأرض تدحرج الحجارة فوق منحدر من الأرض صلب ، كيف لا وشباب تغلب يرون القتل مجدًا ، ويطلبونه كما يطلبون زاد الحياة ، على رأسهم شيخ محنون بأولئك الشباب ، وبهؤلاء الشيوخ يتحدى ابن كلثوم بلسان تغلب كلها أمم الأرض قاطبة ، ... ما حاول أحد قط أن ينال منها إلا وعادت محاولته بالوبال عليه . فيها من الأمجاد ما يجعلها أصلب من أن تلين : أمجاد علامة بن سيف ، ومهلل ، وكليب ، "فأي المجد إلا قد ولينا" . وعلى رؤوس محاربي تغلب خوذ فولاذية بيساء ، وفي أيديهم سيف تعلو وتسفل ، وتنقطع الأعناق .

أما وراء هؤلاء الفرسان من تغلب فنساء جميلات ، "خلطن بميسim حسناً وديننا" ، يتفاني الرجال في الذود عنهن ويحولون دون سبيهن ، ودون هوانهن . وهؤلاء النسوة يشجعن رجالهن في الحروب ، ويقمن على خدمتهم ، ويقلن لهم : إذا لم تستطعوا حمايتنا فلستم لنا رجالاً ، ولا نحن لكم نساء . وهل يحارب رجال تغلب إلا في سبيل الكرامة ، والحفاظ على شرف القبيلة ، والدفاع عن العرض؟ .

ويشتد الفخر في نهاية المعلقة ، وتعمر نفس ابن كلثوم بالعزوة والعظمة ، فيتراءى له انبني تغلب هم سادة العالم ، وهم ولدوا الناس جميعاً ، وهم الذين يخشى بأسمهم إذا ذكر الكرم كانوا أهله ، وإن ذكر النصر كانوا أهله ، يطعون الناس عندما يشاون ، وبهلكونهم عندما يشاون ، ويمعنون ما يريدون ، وينزلون حيث يريدون ، إذا سخطوا تركوا ، وإن رضوا أخذوا ، وإن أطيعوا عصموا ، وإن عصوا عارمين .

لهم من الماء صفوه ونميره ، وللناس كدره ، رأيهم على الملوك يفرض ، والضيم في أرضهم لا يحل ، والدنيا لهم سراح ، والأرض ومن عليها لحكم تغلب تخضع ، والجبروت جبلة فيهم ، والعظمة غذاء يتغذى به أطفالهم مع لبن الرضاع ، حتى إذا بلغ الفطام لهم صبي "تخر له الجبارية ساجدina" .

وقد اتخذ الفخر الجاهلي أنماطاً متعددة ، وصيغاً مختلفة ، ذكر منها :

1- نشوة النصر:

لا شك أن النصر مما يفتق الأذهان ، ويراك المشاعر ، فهو يلهم الشاعر أعنده المعاني ، فينطلق لسانه مصوراً ما يجيشه بصدره من عواطف وانفعالات ، فيتغنى بذلك النصر .

2- الرغبة في ذكر الأمجاد الحربية :

فقد كان الشاعر الجاهلي كثير الزهو بانتصارات قومه على أعدائهم ، تغمر قلبه نشوة عارمة ، وهو يسجل تلك الانتصارات ، إظهاراً لشرف القبيلة، أو تخليداً لبطولة فرسانها ، أو إثباتاً لنقوص القبيلة في الناحية الحربية على غيرها ، ليرهباً لأعداءها ، ويبث في قلوبهم الفزع ، ويضعف معنوياتهم

وقد تثير الرغبة في ذكر الأمجاد الحربية سؤال بعض الناس للشاعر عن مجده ومجد قومه ، فتهيج شاعريته ، ويرتل آيات مجدهم الحربي لحنا شعريا خالدا وقد يكون هذا السؤال حقيقيا ، وقد يكون متخيلا

3- التميز الفردي :

إذا كان الإنسان العربي قد رفع قبيلته إلى الذروة في البأس والشجاعة والسجايا الحميدة ، وكاد صوته يتلاشى في صوت الجماعة ، فإنه في كثير من الأحيان شمخ بنفسه ، وتطاول بها حتى جعلها في منزلة تصاهي منزلة القبيلة ، إذ لم يدع صفة من صفات البطولة والفتوة إلا أصدقها بها ، ولا خصلة من خصال النبل إلا جعلها مزية من مزاياها .

ومن يتصف الشعر الجاهلي يجده زاخرا بفخر الفرد بنفسه ، وإعلاء مكانتها ، ورفع شأنها . ولنا في معلقة طرفة بن العبد البكري خير شاهد على ما نذهب إليه ، إذ لا نجد فيها إلا نشيضا يتغنى بذات أصحابها ... وليس فيها إلا ضمير المتكلم ، أو ما يعود إليه ، مما يجعل أبيات المعلقة مفعمة بروح طرفة ، ولا نجد صوتا سوى صوته ، ولا رؤية غير رؤيته ، ⁽¹⁾

المدح

لقد تحكم العرف الاجتماعي في طبيعة معالجة كل غرض من أغراض النموذج الجاهلي ، وفي توجيهه تقاصيله أحيانا ، فكانت قصيدة المدح ميدان التعبير عن الاعجاب الاجتماعي يصور الفضائل التي تبهر النفس ، وتدفعها إلى تخليد المآثر المقيدة بالمثل العليا القائمة على تقدس سمات القوة ، والكرم ، والشجاعة ، وحفظ العهد ، وحماية الجار ، ورعاية الضعيف ، والتعرف عن دنایا الأمور ⁽²⁾ . ومن هنا تشابهت مخاري نماذج المدح ، وإن ظلت أساليبها مشدودة إلى قدرة الشاعر على التشخيص الفني ، ومنح الصورة أبعادها التفصيلية المتميزة .

ويبدو أن الدافع القبلي ظل مداراً أصيلاً لنماذج المدح خلال العصر كله . على أن بروز المنفعة الذاتية في بعض النماذج لا ينبغي أن يغرينا بتفسير جديد ، ذلك أن مصلحة الفرد تظل مشدودة إلى مصلحة القبيلة بأكثر من سبب ، ولهذا فإننا لا نميل إلى طرح الحيطة عند النظر فيما أراد ابن رشيق أن يقرره بشأن النابغة مثلاً حين أشار إلى أنه كان (يتكتب) بالشعر في بلاط النعمان ⁽³⁾ ، ذلك أن ابن رشيق نفسه كان يدرك أن وجود النابغة في بلاط النعمان لم يكن إلا ضرباً من السفارة الممثلة لمصالح ذبيان عند

1- المعلقات : معلقة طرفة ، الأبيات 86-82.

الضرب : الخفيف اللحم . الخشاش : الدخال في الأمور لحفته وسرعته . الكشح : الخاصرة .
العضب : السيف

القاطع. منتصرا : المنتصرا . المعضد : السيف الردى الذي تقطع به الأشجار . أخي ثقة : صفة للسيف ، أي موثوق به. لا ينثني عن ضريبة : لا ينبو . المينع : الذي لا يقهرون . بلت : ظفرت.

2- قدامة بن جعفر : نقد الشعر ، ص 20. المرزباني : الموسوعة ، ص 221، وابن رشيق : العمدة ، ص 80 .

3- ابن رشيق : العمدة ، ص 80 .

الساسانيين ، وإن ما فاز به من وجوه الاكرام الشخصي لم يكن إلا نتيجة ثانوية لا ينبغي أن تدفع إلى تعجيز الأحكام ، على أن الأمر قد يختلف قليلاً بالنسبة إلى الأعشى الذي صرخ بطلبة للمال في الأفق⁽¹⁾ ، وسخر عدداً من قصائده لهذا الغرض حتى غدا مسلكه غريباً بالقياس إلى العصر الجاهلي ، ونواة جديدة للتحول بهذا الفن من بواعته الاجتماعية والأنسانية إلى حيز البواعت الشخصية الخالصة ، التي غدت مدار فن المديح ، فيما تلا ذلك من عصور الشعر العربي .

دوافع المدح :

١- الاعتراف بالجميل :

وقف زهير بن أبي سلمى من فن المدح ، الذي كثُر توجيهه سهام الاتهام إليه من قبل النقاد والباحثين على أنه كان باباً واسعاً من أبواب النفاق في الشعر العربي⁽²⁾ ، موقعاً تجاوز فيه هذا المستوى ، بل نقضه تماماً ، حين أصدر فنه خالساً من منظور الصدق الفني والاجتماعي معاً ، إذ اتسقت نفسه وفنه ، وراح يتربّأ بهذا الموقف الحضاري الذي اعجب به حول قضية السلام ، والتغيير من شريعة الغزو ، التي شقت سبيلها عبر نفوس الجاهليين ، وأصبحت قاعدة عامة في حياتهم ، فكانت معلقة صورة من إخلاصه لقضية السلام ...

وظل صوته يردد في مسامعنا ، مشنقاً آذاناً ، وهو يكيل المديح لسيدين كريمين سعياً بالصلح بين عبس وذبيان ، في حرب داحس والغبراء ... وهذان السيدان هما : الحارث بن عوف ، وهرم بن سنان ، ومما قاله في مدحهما⁽³⁾ :

وأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
على كل حال من سحيل ومبرم
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم
بمال ومحروم من القول نسلم
بعيدين فيها من حقوق ومأثم
ومن يستبع كنزاً من المجد يعظم
يمنياً لنعم السيدان وجدتما
تداركتما عبساً وذبيان بعدما
وقد قلتما: إن ندرك السلم واسعاً
فأصبحتما منها على خير موطن
عظيمين في علياً معه هديتما

وقد يثير قول ابن رشيق : " ان زهيراً تكب بالشعر يسيراً مع هرم بن سنان⁽⁴⁾ تساؤلاً عن الدوافع التي دعته إلى قوله ، مع أنه يعلم أن زهيراً لم يكن إلا واحداً من الشعراء الذين وصفهم هو نفسه ، بأنهم لا يمدحون " إلا مكافأة عن يد لا يستطيعون أداءها حقها إلا بالشكراً إعطاماً لها⁽⁵⁾ " ، وهو يعلم أيضاً أن مدح زهير لهرم ولغيره هرم لا يكاد ينفي عن تطلع إلى ما في يد المدحود .

أما النماذج التي فرغ زهير فيها لمدح هرم فإنها تنبع عن عناية خاصة ، وتكشف عن إعجاب عميق ، لعله كان ولد طموح في نفسه إلى الشخصية المثلية التي

1- انظر : ديوانه : 40 .

2- د. عائشة بنت الشاطئ : قيم جديدة للأدب العربي ، ص 52 .

3- انظر : معلقته .

4- العمدة : 81/1 .

5- نفسه : 80/1 .

لم تعنه ظروفه الخاصة على تحقيقها فيه⁽¹⁾. فلما وجدها في هرم راح يمجد المثل العليا . والقيم الإنسانية من خاللها ، بحماسة بدت ألق بالفخر منها بالمديح .

وتمثل مدائح امرئ القيس التي كان يمدح بها مَنْ أَجَارَهُ ، أو من عطفوا عليه حين قام مطالبًا بثأر أبيه – البداية الطبيعية التي بدأ بها موضوع المديح في الشعر الجاهلي ، وذلك على نحو ما نرى في هذه الأبيات التي يمدح بها المعلى التيمي ، وكان قد أجاره ، ومنعه من المنذر بن ماء السماء ، الذي كان يطلبها ، ويلاح عليه في طلبه⁽²⁾

2- التوسط في إطلاق سراح الأسرى :

ان الباущ الذي دفع علامة الفحل إلى الوقوف أمام باب الملك الغساني هو دافع نبيل ، ولا شك ، فقد أسر الحارث بن أبي شمر الغساني رجالاً من تميم ، من ضمنهم شأس بن عبدة ، فرجل علامة سعياً في خلاص أخيه ، وفكاكه من أسره ، هو وأسرى قومه ، ونحن نكبر عاطفة الأخوة هذه ، كما نكبر هذا المدح الذي أطلق لسانه في سبيل أسرى فومه ... وقد سما في مدحه عن التزلف ، والرياء ، والتذلل ، فهو صدى لما يتجاوب في نفسه من احساس ، بل ويعبر تعبيراً صادقاً عن أخلاق الفارس عند علامة الذي يشيد بعده ، الذي يثبت شجاعة في الميدان ... وهذا هو ذا ينبع ناقته أمام قصر الملك ، ويدخل قصره ، ويصبح بأعلى صوته⁽³⁾ :

3- حب العطاء :

وعلى الرغم مما لمسناه من شدة تعلق الشاعر بقبيلته ، نجد طائفة من شعراء الجاهلية ، يخرجون أحياناً عن نطاق الجاذبية القبلية ، فيقفون جانباً من شعرهم على أغراض تنافي ما ذكرنا ، وكانت العرب لا تتكتسب بالشعر ، وكان الغالب على طباعهم الأنفة من السؤال ، وقلة التعرض به لما في أيدي الناس ، فلما نشأ النابغة مرح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكسب مالاً جسيماً ، حتى قيل : إن أكله وشربه في صحاف الذهب والفضة . فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجرًا يتجر فيه نحو البلدان⁽⁴⁾ .

1- انظر تفاصيل قصة حياته :

د. عبد القادر الرياعي : الصورة الفنية في شعر زهير بن أبي سلمى ، ص 14 وما بعدها .

2- ديوانه : 203 ، تحقيق حسن السنديobi .

البواذخ : الشواهد . ملك العراق : المنذر بن ماء السماء .

الملك الشامي : الحارث بن أبي شمر الغساني . أسد : أدفع . نشاص : سحاب مرتفع . ذو القرنين : المنذر الأكبر . أقر حشا : أدخل الطمأنينة على نفسه .

3- المفضليات : 394-397 .

الجون : فرس الحارث بن أبي شمر . تقدمه : أي في الحرب . حجوله : ما في قوائمه من بياض . السربال : القميص ، وعنى به الدرع . عقيل كل شيء : كريمه . المخدم : القاطع . الرسوب : لا ينبو . وكان الحارث يتقد بسيفين . بكشهم : بملتهم ورؤسهم ، يعني المنذر بن ماء السماء ، وقد قتله الحارث

في يوم حليمة . الخشخة : صوت الثوب الجديد .

4- ابن رشيق : العمدة ، 81-80/1 .

ونحن لا نشك أن هذه الظاهرة ليست قديمة في الشعر العربي ، وإنما عرفت في أواخر العصر الجاهلي ، وهي تمثل مرحلة من حياة الشعر العربي ، وانتقاله من طور الهوائية إلى طور الاحتراف .

ونماذج المدح في العصر الجاهلي ، كان ينطلق معظمها من قيم الفروسيّة وتصوّير البطولات الحربية ، ومن ذلك ما مدح به النابغة الذبياني الحارث بن أبي شمر الغساني⁽¹⁾ :

الهجاء

إذا كان المديح قائمًا على الإعجاب دالاً على المحبة والاحترام ، فإن الهجاء نقىض ذلك ، دليل البغض والازدراء ، واحتقار المهجو . والهجاء قديم نشأ منذ اليوم الذي سعى فيه الإنسان إلى التعبير عن سخطه ، حين اصطدم بواقع أثار فيه الحقد والكراهية ، وجعله يشمئز ، ويعلن اشمئزازه بطريقة فنية . ومن هنا كان الهجاء عملاً فنياً ، وباباً من أبواب الأدب . ولم ينشأ عبثاً ، ولم يكن نزوة من نزوات بعض الشعراء ، بل هو في أساسه ضرب من معاناة الإنسان للوجود ، وإحساس بما هو مستكره ، وتمرد على الرذيلة والخسنة والسوء . هو نقد قائم على الوعي ، فيه تبرم بالفساد ، ونفقة على النقائض التي تشوّه وجه الحياة ، وتؤدي الذوق والإحساس والخلق وتنكر لقيم الإنسان .

ويقوم الهجاء على عكس الفضائل الاجتماعية التي أقرتها الحياة⁽²⁾ العربية في الجاهلية ، كالكرم ، والسيادة ، والشجاعة ، والنجد ، والمرودة والشرف . وارتبط الهجاء الجاهلي بالحروب ، وازدهر بازدهارها ، ولم يكن جمهور هجائهم يفرد بالقصائد ، بل كانوا يسوقونه غالباً في تصاعيف حماستهم ، وإشادتهم بأمجاهم ، وانتصاراتهم الحربية⁽³⁾ .

ويبدو أن نموذج الهجاء الجاهلي قد انبثق عن ممارسة وثنية قديمة كان أصحابها يعمدون إلى استتزال نفمة الآلهة ولعناتها على خصومهم ، من خلال شعائر وطقوس نلمح امتداد آثارها إلى ظروف إنشاد قصيدة الهجاء في مرحلة متأخرة من العصر الجاهلي⁽⁴⁾ .

1- ديوانه : 2 .

غير أشائب : غير أخلاق . الضاريات : المفترسات المشغوفات باللحم والدم .

الدوا رب : المتعودات . الآخر : الذي ينظر بمؤخر عينه . ثياب المرانب : ثياب تضرب إلى السود .

2- د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، ص 201 .

3- نفسه : ص 202 .

4- انظر الطقوس التي رافق إنشاد لبيد بن ربيعة لأرجوزته في هجاء الريبع بن زياد العبسي أمام النعمان بن المنذر . الأغاني : 364/15 .

أنواع الهجاء :

1- الهجاء القبلي :

نشأ هذا اللون من الهجاء نتيجة للأحداث والصراعات التي كان يمور بها العصر الجاهلي ، وهو فن قديم " أوجده المنافسات القبلية التي أرثها السعي وراء الكلأ والماء . كما سعّرته الحروب المستمرة بين القبائل⁽¹⁾ " .

ولا يختلف الهجاء القبلي في صوره ومعانيه عن الهجاء الشخصي ، إلا أنه أوسع منه دائرة ، فكان الشاعر يحرض على أن يصيب بأذاه القبيلة المهزولة كافة ومن ثم نشأ هذا اللون من الهجاء في أعقاب الحروب .

والهجاء القبلي ضربان : ضرب منه موجه للأعداء ، وضرب منه موجه إلى القبيلة نفسها .

هجاء الأعداء :

ومن صوره :

1- تذكير الأعداء بكثرة الإيقاع بهم ، وبكثرة خسائرهم في الأرواح ، وقد فروا من المعركة مخلفين وراءهم جثث قتلواهم ، وقد مرّ علىهم وقت طويل ، فأصبحت كأنها الخشب ، فأقبل عليهم عدوهم فأعمل فيها فأسه تقطيعا ، وتمزيقا .

2- تعبير الأعداء بفرارهم من أرض المعركة تاركين وراءهم بناتهم بيد أعدائهم ، وقد شرق بنجيع الجوف من شدة الضرب ، وكانت أعلى درجات الإهانة والذلة تلخص بالفارس الذي يهرب من أرض المعركة تاركا ابنته ، أو زوجته للأعداء .

3- سلب الصفات النفسية ، وهذا أشد أنواع الهجاء أيامًا ، فمن ذلك :
أ- الصاق الغدر بالأعداء .

ب- إناطة اللؤم بهم

4- وقد يكون الهجاء القبلي هجاء دفاعيا ، أو وقائيا . فهو ليس موجها إلى قبيلة بعينها ، وإنما يطلقه الشاعر لترتدع القبائل المعادية ، ويبعث فيها الفزع

2- الهجاء الشخصي :

وهو موجه إلى شخص معين بسبب أقوال ، أو مواقف صدرت عنه ، وهذا النوع من الهجاء لا يبالي أن يخالف القيم الأخلاقية ، ولا أن يتورط في الفحش والسباب ، ويهبط إلى التبذل في المعاني والألفاظ ، لأنه يقصد إلى الإيجاع والتشهير بالمهجو بين أهل عصره⁽²⁾ .

أثره في نفوس العرب :

1- د. عفيف عبدالرحمن : الشعر وأيام العرب في العصر الجاهلي ، ص 66

2- انظر ما قاله الجميح الأستاذ ، المفضليات ص 43 ، الأبيات 14-12 .

كان أثر الهجاء قويا في النفوس ، وكثيرا ما كان يدفعهم إلى البكاء بالدموع الغزار ، وقد حفل التاريخ بأسماء الكثير من العرب من كان الهجاء سببا في بعائهم فقد بكى مخارق بن شهاب ، وعبد الله بن جدعان⁽¹⁾ ، وعلقمة بن علامة حين هجاه الأعشى قوله⁽²⁾ :

تبيتون في المشتى ملاء بطونكم وجاراتكم غرثى يبتزن خمائصا
فكان هذا البيت من أشد أبيات القصيدة ايلاما لعلقمة ، حتى لقد زعم الرواة أن
علقمة بكى حين سمعه ، وقال : " قاتله الله ، أتحن كذلك " ؟ .

الترفع عن الهجاء :

قد يترفع الشاعر الجاهلي عن الهجاء ، صونا لكرامة ، وحفظا لأواصر القربي ، ففي يوم حوزة الأول ، طلبت بنو سليم من صخر بن عمر بن الشريد السلمي أن يهجو بنى غطفان ، فرفض قائلا : ما بيني وبينهم أذى من الهجاء ، ولو لم أمسك عن هجائهم إلا صوننا لنفسى عن الخنا لفعلت ، ثم قال⁽³⁾ :

وعاذلة هبت بليل تلومني ألا لا تلومني كفى اللوم ما بيا
تقول : ألا تهجو فوارس هاشم ومالي أن أهجوهم ثم مالي
أبى الشتم أنى إن أصابوا كريمتي وأن ليس إهداء الخنا من شماليا

الغزل

يحس الشاعر بأن المرأة من مقومات وجوده ، وقد كان الدافع الرئيس في توجهه إليها ، وبوصفها الجزء المتمم له ، فكان الغزل سفيره إليها ، لاستمالة قلبها ، وكسب ودها .

والغزل هو التصابي ، والولع بمودات النساء ، وإلفهن ، والتخلق بما يوافقهن⁽⁴⁾ ، فنشأ نشأة إنسانية يصف فيه الشاعر عاطفته تجاه المرأة ، بأسلوب عذب رقيق لين

وأكثر ما يطالعنا الغزل الجاهلي في مطالع القصائد ، لأن الشاعر كان يولي المرأة الأفضلية فيمن يتحدث إليهم ، وأنها جديرة بأن يقف فنه الشعري عليها. فيعبر الشاعر من خلال قصيده عن مجموعة تجاربه في الحياة ، ولكن تجربة الغزل تبقى من التجارب الذاتية الخاصة بالشاعر ، التي تمتزج بالشكوى والحزن والألم ، بسبب طبيعة حياته غير المستقرة ، وما فيها من قرب وتواصل ، والتنقاء وافتراق ، ولهذا كانت المطالع الغزلية في الشعر العربي ، وقصائد الغزل الكثيرة تطرد فيها رنة حزينة باكية ، تبدو في بعض الأحيان مظهرا سوداويا ، يصور بعض تشوائية الشاعر في نظرته

1- الحافظ : الحيوان ، 364/1 .

2- ديوانه : 185 .

3- ابن عبد ربه : العقد الفريد ، 165/5 .

4- نقد الشعر : 123 ، والعمدة : 17/2 .

إلى المرأة والجمال ، وهنا ينبع العامل الاجتماعي والنفسي بدور كبير في خلق مفهوم الألم وتجسيده في المقدمة الغزلية⁽¹⁾.

لقد وجد الشاعر الجاهلي في المرأة الكيان الذي يودعه كل مشاعره الرقيقة، ويعبر من خلالها عن إحساسه بالجمال ، وإعجابه به ، ويكشف عن لوعته ، وذكريات شبابه ، لذا اعتبرت المرأة أشد العناية ، وحرص على أن يجعلها مثلاً . لقد كانت المرأة مولداً شعرياً لشاعرنا الفارس النبيل ، ترحالها يلهمه ، ونظرتها تنطقه ، وهي بعيدة عن تكوين الإنسان البيولوجي . فهل قرأتنا لشاعر جاهلي دون أن نحتفظ بهذه الصورة . إن المرأة ، وهي نائمة ، تنشر المسك ، والزعران ، وأصناف الطيوب كافة ، وإن الأنثى الجاهلية دائماً عطرة ، ينضح من فمها الطيب ، ودائماً ساحرة وفاتنة ... وكان خياله الرسام يمد بالكثير من الصور الخلابة المتداقة بالسحر ، والجمال ، والصفاء والطهر . فالرسوم الطبيعية التي رصف بها جسد حواء ، وجوارحها ، كانت كلها شهية الطعم ، لذينة المذاق ، محببة إلى النفس ، لوناً وشكلاً وشذى .

عنق المرأة كجيد الغزال ، وشفتها كأوراق الورد ، وعينها كعيني البقرة الوحشية ، تجمع بين سواد الليل ، ونقاء الفجر ، بسمتها تعريك دائماً باستجاء اللذة ، وحديثها يوحى إليك بطعم فمها العسلاني ، وأسنانها كأوراق الأقحوان ، وشعرها جدول من جداول الليل ، بيته فيه المشط ، ونهادها جامدان متمسكان دائماً ، وبطنها قطعة من نسيج فضي أملس ، وهي دقique الخصر أبداً ، وكان يخشى الشاعر عليها من أن تتقصّف أثناء السير . هذه هي الصورة العامة للجمال " ليست مستقاة من شاعر واحد ، بل هي مستقاة من الشعراء جميعاً ، فهي إذن تمثل الذوق العربي أدق تمثيل ، وليس غرض الفنان أن يحاكي الواقع محاكاً لا تصرف فيها ، فينقل صورة من الطبيعة ، أو من المرأة ، خلوا من عاطفته ، وخاليه ، ولكن يحاكي الطبيعة ، ويستمد منها ، ويضيف إليها ، والشاعر الذي يصف المرأة على حالها دون أن يضفي على وصفه من خياله ، وعاطفته ، مثله مثل المصور الذي يلقط الصور بالكاميرا وشتان بين المصور اللاقط ، والمصور الرسام⁽²⁾ .

أنواع الغزل :

1- الغزل الحسي :

وهو الغزل الذي ينطلق فيه الشاعر من نوازع شهوانية ، وعواطف لا تعرف التحرج ، أو التعفف ، والعلاقة بالمرأة فيه علاقة تغيير عن استمتعابها ، ووصف الجوانب الحسية منها ، أو بعبارة أدق هو الغزل الذي " يتَّأْلَفُ من أوصاف الحببية نفسها ، ومعظم هذه الأوصاف يتناول جسدها عضواً في إطاره واستقصاءه حيناً ، وايجاز وإشارة حيناً آخر ، وقليلاً ما يتناول نفس صاحبته ، وقليلاً ما من فضائلها ، أو عواطفها المجردة⁽³⁾ " .

1- د. عناد غزوan: الميراثة الغزلية في الشعر العربي ، ص 2.

2- د. احمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، ص 32 .

3- د. نجيب محمد البهبيتي : تاريخ الشعر العربي ، ص 147 .

و علاقة امرئ القيس بالمرأة لا تخرج عن هذا الإطار ، و يدل استقراء شعره على أنه كان مشغوفاً بهن ، ميلاً بطبيعته إلى تصوير جمالهن . و كأنما كان يريد أن يصنع للنساء تماثيل تظهر محاسنهن ، و تبرز مفاتنهن ، فهي في أحد تماثيله⁽¹⁾ :

مهفة بياض غير مفاضة
كبير مقاناة البياض بسفرة
ترائبها مصولة كالسنجبل
غذاها نمير الماء غير المحلل
باظرة من وحش وجرا مطفل
إذا هي نصته ولا بمعطل
أثيث كفنو النخلة المتعثكل
تضل المدارى في مثنى و مرسل
وساق كأنبوب السقى المذلل
إذا ما اسبرت بين درع ومجلول

فهي تبدو فتاة مشوقة القد ، رشيقه القوم ، في ميعه الصبا ، وريعان الشباب ،
بيضاء البشرة ، صافية الأديم ، كلها أنوثة ونضاره ، وقد نشأت في نعمة ورعد العيش ،
و صدرها يشع بالفتنة والجمال ، وتحرك خدتها الأسيل في خفة ودلال ، وعينها حوراء
واسعة ، ترسل بريقا ، كأنما تسدد سهاما تحميها وتحظها . و جيدها رائع أحاطت به
أحسن الحلي . وأثمن الجواهر ، وشعرها شديد السوداد ، طويل يغطي ظهرها ، كثيف
نظيف ، تبدو فيه العناية واضحة ، وتصنع منه أشكالا ، منها ما هو مرسل ، ومنها ما
هو معقود ، وكلها متداخل متشابك ، هذا في ذاك ، ولكن في ابداع واتقان ، وحصرها
نحيل ، قوي متمسك ، ولكن في لين ولطافه ، وساقها أبيض ممتئ بضم .

وعلى الرغم من جرأة امرئ القيس ، وما عرف عنه من الأوصاف الحسية في
تصوير جسد المرأة ، والمجاهرة بالمخاطر الغرامية ، فإن عمرو بن كلثوم كان أكثر
تكشفاً حين ركز عدسته الفنية على مفاتن جسد محبوبته ، وراح يصفها وصف من رأى
، فقال⁽²⁾ :

١- ديوانه : 149 ، تحقيق حسن السنديبو .

مهفة : خففة اللحم . غير مفاضة : غير ضخمة البطن ، ولا مسترخيه . الترائب : جمع تربة وهي
موقع الفلادة من الصدر . السنجبل : لفظة رومية ، معناها المرأة . البكر : البيضة الأولى من بيض
النعام ، وخص البيضة الأولى لأن بياضها لا يكون خالصا . المقاناة : المخالطة . النمير : العذب .
غير المحلل : لم يحل به ، ولم ينزل عليه أحد فيكر . أسيل : خذ صاف . ناظرة : عين . وحش وجرا
: يقصد بقرقوشية . مطفل : ذات طفل ، يريد أنها ليست بصغريرة دون البلوغ ، ولا بكيرة فانية . جيد
: عنق . الرئم : الضي الأبيض . ليس بفاحش : غير كريه المنظر . نصته : مدته وأبرزته . معطل : خال
من الحلي . بفرع : شعر طويل . المتن : الظهر . فاحم : شديد السوداد . الأثيث : الكثير النبات . القنو
: العذق . المتعثكل : المتداخل بعضه في بعض . العذائر : ذوات الشعر . مستشررات إلى العلا : مقوله
إلى فوق . المدارى : جمع مدرى ، أداة تسرح بها المرأة شعرها .

٢- المعلقات : معلقة عمرو بن كلثوم .

- الكاشح : المضرم العدواة في كبدہ . ترك هذه المرأة إذا أتيتها خالية وأمنت الأعداء .

- العيطل : الناقة الطويلة العنق . الأداء : البيضاء . الباكر : الفتية . الهجان : الأبيض الخالص البياض .
لم تقرأ جنينا : لم تحمل في رحمها ولدا .

وقد أمنت عيون الكاشينا
 هجان اللون لم تقرأ جنينا
 حسانا من أكف اللامسينا
 روادفعها تنوء بما ولينا
 وكشحا قد جننت به جنوننا
 وساريتني بلنط أو رخام يرن خشاش حلهما ربنا
 تريرك إذا دخلت على خلاء
 ذراعي عيطل أدماء بكر
 وثديا مثل حق العاج رخصا
 ومتني لدنة سمقت وطالت
 وأمكمة يضيق الباب عنها
 فقد رأى منها ذراعين ممتلين ، كذراعي ناقة بكر ، طولية العنق ، سمينة
 بيضاء لم تحمل ولم تلد ، وثديا مثل حق العاج أبيض مستديرا مصونا ، لم يمسه أحد
 ومتني قامة طولية لينة ، وأردافا مكتزة ثقيلة ، ووركا عظيما ممتئا ، وكشحا جميلا
 جن من حسه ، وساقين كأسطوانتين من عاج أو رخام أبيض ، فيهما الخاليل لها
 خشخة ورنين .

ولعل من أكثر ما مد بشهرة النابغة الذبياني ، في أرجاء الأدب القديم ، قصيده المطلولة ، المعروفة باسم المتجردة والتي تجراً بها ، فوصف زوج النعمان ملك الحيرة ، وهي شبه متجردة من ثيابها ، وقد تجاوز كل محظور ، وأطاع حواسه المفتونة بمعالم الروعة الأنثوية .

لقد حشد النابغة أعظم إمكاناته كمصور ، وناحت ، وتأمل ، ونظم لدرر الجمال والأنوثة ، وكمحلن يكشف أنغام الفتنة في الجسد المتجرد ، ويرسم خطوطه الموسيقية المنغمة بدقة هاوسيل .

فإذا بالمتجردة تقوم أمام الناظر ، وكأنها حقا ، دمية عاج منحوتة ، حتى أن الشاعر لم ينس أن يصور كيف رفع النهد الثوب عاليًا ، هكذا ليسقط كالهالة حول الجسد القائم وراء شفوفه .

ثم كانت انباتة الجسد من بين سجي كلة ، كالشمس يوم طوعها ، أو كدرة خرجت من الصدفة . وتأتي هذه اللوحة الحركية ، عندما يحكي الشاعر كيف سقط النصف ، دون أن تريه إسقاطه ، وكيف حاولت ان تخفي فتنتها بكفها وأنملها وكان الأنمل عنصر فتنته إضافية جديدة ، وصفه الشاعر ، فقال : إنه " يكاد من اللطافة يعقد " .

ويعرض النابغة في مقطع من مقاطع القصيدة إلى الراهب الأشmet الذي يخضع لجمالها ، دونما اكتراث لعقله ، فكان الشاعر يعطي لنفسه المبرر الأخلاقي الذي يجعله يتبع للجمال . واستمع إلى أذب الألحان التي عزفها نابغة بنى ذبيان ⁽¹⁾ :

- حسانا : مصونا . اللدن : اللين . سمقت : ارتفعت . الرادقان : فرعاً الأليتين . الولي : الحمل . وهذا تصوير مثالي لقامة المرأة وردتها .

- الماكمة : رأس الورك . الكشح : الحضر .

- البلنط : العاج . السارية : الأسطوانة .

1- ديوانه : 93-97.

- الشادن : الشاب من الظباء . مترتب : محفوظ مصون . أحوى : فيه حمرة إلى سواد . أحمر : أسود . مقاد : الذي قلد الحلي ، وزين بها .

أحوى أحمر المقلتين مقلد
ذهب توقى كالشهاب الموقد
كالشمس يوم طلوعها بالأسعد
بهج متى يرها يهل ويسجد
بنيت بأجر تشداد وقرمد
فتناولته واتفقنا باليد
عنم يكاد من اللطافة يعقد
نظر السقيم إلى وجوه العود

نظرت بمقلة شادن متربب
والنظم في سلك يزين نحرها
قامت تراءى بين سجفي كلة
أو درة صدفية غواصها
أو دمية من مرمر مرفوعة
سقط النصيف ولم ترد إسقاطه
بخضب رخص كأن بنانه
نظرت إليك حاجة لم تقضها

إلى أن يقول :
لو أنها عرضت لأشمر راهب
لرنا لبهجتها وحسن حديثها

2- الغزل العذري :

ومع أن السمة العامة للغزل الجاهلي كانت الناحية الحسية ، من وصف الجسد وتصوير المفاتن ، على نحو ما مر ، فإننا مع هذا نجد مَنْ تتبه إلى ان المرأة ليست جمالاً جسدياً فحسب ، بل هي كذلك متعة روحية ترثاح النفس إلى جمال حديثها ، وصفاتها المعنوية . ولعل هذا ما دفع الدكتور الحوفي إلى التأكيد على أن هذا الضرب من الغزل قد نشأ في العصر الجاهلي ^(١) ، وأورد على ذلك نماذج خالصة للحب الخالص ، لا شيء فيها سوى الغزل .

ويمتاز غزل هؤلاء الشعراء بروحانيته ، وعفته ، وبعده عن الاغراق في الوصف الحسي للجسد ، واحتقاله بالأشواق الملتهبة ، وتحليله للنفس وخوالجه ، وتصويره لحرقة السوق ، ولذع الحرمان .

وقد أخلص هؤلاء الشعراء المتييمون لمحبوتهم إخلاصاً شديداً ، وقضى كل واحد منهم حياته كلها ، وقلبه يخفق بحبية واحدة ، لم يتحول عنها إلى غيرها ، وتحمل في حبها أهواه أضنته ، وأذهلتـه .

- النظم : العقد الذي تلبسه . يقول : إنها زينت عنقها بعقدمن ذهب يتوجه توهج الكوكب المتوقف المتسعر .

- السجف : الستر الرقيق . الأسعد : يروج الشمس والقمر ومنازلهما .
يقول : كأن ظهورها من وسط الستر الذي يغطي الكلة كالشمس وقت طلوعها في بروجها .

- الدرة : اللؤلؤة . يهل : يرفع صوته بالتكبير .

- تشاء : ترفع بالشيد . يقول : كأنها تمثال من المرمر شيد بالأجر والخزف .

- النصيف : الخمار . العن : شجر لين الأغصان . والبيت فيه إقواء .

- الراهن : المتبعد . أشمر : أشيب . صرورة : متبنّ ، لم يرتكب ذنباً .

- رنا : أدام النظر مع سكون الطرف . يرشد : يكون في كمال العقل والصواب .

^١ د. أحمد الحوفي : الغزل في العصر الجاهلي ، 181 .

وانظر أيضاً : محمد عبد العزيز الكفراوي : الشعر العربي بين الجمود والتطور ، ص 55 وما بعدها .

ومن الشعرا الذين بدت عواطفهم تجاه المحبوبة حارة مميزة المرقش الأكير
حين باح للفن الشعري بما ي肯ه قلبه ، وبما تخفيه جوارحه ، من هيام شديد ، وحب
جارف ، ينزعان به نحو أسماء التي تيمته بهاها ، وشغلت نفسه بغرامها ، فكانت هذه
الإنطلاقـة الوجـانـية ، التي حملـتـ الحـانـ تجـربـتـهـ العـاطـفـيـةـ وـنـسـرـتـهاـ بـيـنـ أـجـوـاءـ الصـحـارـيـ
، وأنـعـثـتـ قـلـوبـ أـجيـالـ منـ فـتـيـانـ العـرـبـ - تـضـجـ لـلـحـبـ ، وـأـلمـ التـضـحـيـةـ ، وـالـحنـينـ إـلـىـ
أـرـتـوـاءـ لـنـ يـتـمـ أـبـدـاـ⁽¹⁾ :

أغالبك القلب اللجوـجـ صـبـابـةـ وـشـوقـاـ إـلـىـ أـسـمـاءـ أـمـ أـنـتـ غالـبـهـ ؟
يـهـيمـ وـلـاـ يـعـيـاـ بـأـسـمـاءـ قـلـبـهـ كـذـاكـ الـهـوـىـ إـمـرـارـهـ وـعـاقـبـهـ
أـيـلـحـىـ اـمـرـؤـ فـيـ حـبـ أـسـمـاءـ قـدـ نـائـىـ بـغـمـزـ مـنـ الـوـاـشـيـنـ وـازـورـ جـانـبـهـ
إـذـ ذـكـرـتـهاـ النـفـسـ ظـلـاتـ كـأـنـيـ يـزـعـزـ عـنـيـ قـفـقـافـ وـرـدـ وـصـالـبـهـ

وقد يصور الشاعر ما ينتابه من مشاعر عندما تعصف رياح الفرقـةـ بينـهـ وبينـ
محـبـوبـتـهـ ، كـمـاـ هوـ الشـأنـ لـدـىـ قـيـسـ بنـ الـحدـادـيـ الذـيـ فـجـأـ رـحـيلـ مـحـبـوبـتـهـ "ـنـعـمـ"
فـانـبـرـىـ يـرـسـمـ لـوـحـةـ شـعـرـيـةـ ، مـضـمـنـاـ إـيـاـهاـ ماـ شـعـرـ بـهـ مـنـ هـمـومـ وـأـحـزـانـ ، وـمـاـ تـعـاـورـ
قـلـبـهـ مـنـ لـوـعـةـ وـأـسـىـ ، وـمـاـ اـنـتـابـتـ عـيـونـهـ مـنـ عـبرـاتـ حرـىـ لـوـشـكـ الـبـيـنـ ، وـأـلمـ الفـرـاقـ ،
فـيـقـوـلـ⁽²⁾ :

وـمـاـ خـلـتـ بـيـنـ الـحـيـ حـتـىـ رـأـيـهـمـ بـبـيـنـوـنـةـ السـفـلـىـ وـهـبـتـ سـوـافـعـ
كـأـنـ فـؤـادـيـ بـيـنـ شـقـيـنـ مـنـ عـصـاـ حـذـارـ وـقـوـعـ الـبـيـنـ وـالـبـيـنـ وـاقـعـ
يـحـثـ بـهـاـ حـادـ سـرـيـعـ نـجـاؤـهـ وـمـعـرـىـ عنـ السـاقـيـنـ وـالـثـوـبـ وـاسـعـ
فـقـلـتـ لـهـاـ:ـ يـاـ نـعـمـ طـلـيـ مـلـنـاـ
فـإـنـ الـهـوـىـ ،ـ يـاـ نـعـمـ ،ـ وـالـشـمـلـ جـامـعـ
بـأـهـلـيـ بـيـنـ لـيـ مـتـىـ أـنـتـ رـاجـعـ
إـذـ أـضـمـرـتـهـ الـأـرـضـ:ـ مـاـ اللـهـ صـانـعـ
فـشـدـتـ عـلـىـ فـيـهـاـ اللـثـامـ وـأـعـرـضـتـ
وـأـمـعـنـ بـالـكـحـلـ السـحـيقـ المـدـامـعـ
وـانـيـ لـعـهـدـ الـودـ رـاعـ وـانـيـ بـوـصـلـكـ،ـ مـاـ لـمـ يـطـوـنـيـ الـمـوـتـ طـامـعـ

ويـعـدـ عـلـقـمـةـ الـفـحـلـ اـحـدـ الشـعـرـاءـ الـذـينـ اـسـطـاعـوـاـ أـنـ يـنـقـضـواـ ذـلـكـ الزـعـمـ الـقـائلـ
إـنـ الغـزلـ عـنـ شـعـرـاءـ الـجـاهـلـيـةـ هوـ غـزـلـ مـادـيـ حـسـيـ ،ـ وـهـوـ يـنـقـضـ هـذـاـ التـعـيمـ بـهـذـاـ
الـغـزلـ الرـفـيعـ ،ـ بـتـلـكـ الصـفـاتـ الـفـاضـلـةـ الـتـيـ يـضـفـيـهـاـ عـلـىـ مـحـبـوبـتـهـ .

فـهـوـ حـينـ يـتـغـزـلـ يـسـمـوـ بـهـذـاـ الغـزلـ إـلـىـ درـجـاتـ عـلـيـاـ مـنـ السـمـوـ وـالـعـافـ ،ـ وـهـوـ
بـهـذـاـ يـعـدـ أـحـدـ قـلـةـ مـمـنـ سـمـوـ بـغـزـلـهـ ،ـ وـهـوـ يـخـتـلـفـ عـنـ أـولـئـكـ الـذـينـ رـأـواـ فـيـ المـرـأـةـ أـدـاءـ
لـلـهـ وـالـمـتـعـةـ ،ـ بـلـ إـنـهـ يـرـتـقـعـ بـمـكـانـةـ الـمـرـأـةـ إـلـىـ درـجـةـ أـنـهـ لـاـ تـمـسـ ،ـ فـصـفـاتـ مـحـبـوبـتـهـ
الـتـيـ اـسـتـخـلـصـهـاـ مـنـ تـلـكـ الـقـيـمـ الـتـيـ تـعـلـوـ بـالـمـرـأـةـ ،ـ وـتـقـدـرـ لـهـاـ مـكـانـتـهاـ ،ـ تـوـحـيـ بـخـلـقـ الشـاعـرـ
الـذـيـ يـرـتـقـعـ عـنـ التـبـذـلـ ،ـ وـالتـهـنـكـ .ـ فـالـأـمـانـةـ وـالـاخـلـاصـ ،ـ وـمـكـارـمـ الـأـخـلـاقـ مـنـ عـفـةـ

1- الأـلـغـانـيـ (ـدارـ الـكـتبـ) 134/6 .

2- المـرـجـعـ السـابـقـ : 158/14 .

- بـيـنـ :ـ فـرـاقـ .ـ بـيـنـوـنـةـ :ـ مـوـضـعـ .ـ السـوـافـعـ :ـ لـوـاقـحـ السـمـوـ أوـ الـشـمـسـ .

- يـحـثـ :ـ يـسـرـعـ :ـ نـجـاؤـهـ :ـ سـرـعـةـ سـيـرـهـ .ـ مـعـرـىـ :ـ مـكـشـوـفـ .

- أـمـعـنـ المـاءـ :ـ سـالـ وـجـرـىـ .ـ السـحـيقـ :ـ الـمـسـحـوـقـ .

، وصون ، وبُعد عن الريبة هي أخلاق محبوبته ، التي يصورها علامة مكفيه لا يستطيع الوصول إليها ، لأن أهلها يمنعونها من أن تزار ، أو يتحدث إليها ، وهو بهذا يصور لنا مواقف الأسرة المحافظة التي لا تسمح لابنتها بالخروج ، ومقابلة الأغراط ، فهي ⁽¹⁾ :

منعمة لا يستطيع كلامها على بابها من أن تزار رقيب

وهي إلى جانب ذلك وفية مخلصة ، إذا غاب عنها زوجها ظلت حافظة لعهده ، لا تخونه ، ولا تهتك سره ، وإذا ما عاد إليها أرضت إياها بطاعتها وحسن معاشرتها ، فيقول ⁽²⁾ :

إذا غاب عنها البعل لم تفتش سره وترضي إياه البعل حين يؤوب
وهو يصورها دائمة محشمة ، لم تر يوماً مبتذلة ، إنما تصون جمالها وسحرها
عن العيون ، فإذا ما تراءت من خلف الأستار ، وفي غفلة من الرقيب استطاع ان
يقرب ، وينظر ، فماذا يرى ؟ انه لا يرى ما يعيّب ، ولا يحدث نفسه بذلك ، بل يرى
هاتين العينين الواسعتين ، ودموع الشوق والوجد تملؤها ، إنه يرى هذا المنظر الحنون
، ويسمع دقات قلبه المشوق ، فأي وصف أجمل وأرفع ؟ وأي نفس تلك التي تسمى ،
وتتصفو فتصدر ذلك الواقع الرقيق الصافي الذي يبهج النفس ، ويشعر بالألفة ، ويمس
شفاف القلب مسا هينا لينا ، ولنستمع إليه ⁽³⁾ :

تراة وأستار من البيت دونها إلينا وحان غفلة المتقد

بعيني مهأة يحدِّر الدمع منها بريمين شتى من دموع وإنمد
وهي دائمة وقرة محشمة ، لا تخرج منفردة وإنما تظل في حيّها ، وذلك أحظ لها ،
فيقول ⁽⁴⁾ :

وفي الحي بيضاء العوارض ثوبها إذا ما اسبكريت للشباب قشيب
فهي لا تغادر الحي ، وهو يكرر دائماً قوله : " كأنها رشا في الحي ملزوم " ولنستمع
إلى ذلك الحديث الذي دار بينه وبينها عندما التقى فجأة ، إنه حديث طاهر حيي ، لا
يسمع فيه ما يخدش الحياء ، يقول ⁽⁵⁾ :

كأن ابنة الزيدي يوم لقيتها هنيدة مكحول المدامع مرشد
تراعي خذولا ينفض المرو شادنا تتوش من الضال القذاف ونغلق
وقلت لها يوماً بوادي مبايض لا كل عان غير عانيك يعتقد
يصادف يوماً من مليك سماحة فيأخذ عرض المال أو يتصدق

1- ديوانه : ص 33.

2- نفسه : 33.

3- المهاه : بقر الوحش . بريمان أي بلونين مختلفين . الأنمد : الكحل .

4- ديوانه : 117.

5- نفسه : 127.

مرشق : من أرشقت المرأة والمهأة إذا أحدثت النظر . تراعي : تلاحظ . الخذول : ولد الطيبة الذي تخلف عنها .

الشادن : ولد الطيبة الذي قوي وطلع قرناه . المرو : ثمر الأراك . تتوش : تتناول . الضال : السدر البري . القذاف : ما أطاقت تناوله .

الرثاء ظاهرة طبيعية في آداب الأمم ، وتکاد تكون معالمه واحدة فيها ، لأنه التعبير الحقيقى عن العواطف البشرية ، وهي على أشد حالة من التوتر والتأثر . وقد حفل الأدب العربي بصورة رائعة من صور الرثاء ، رسم فيها الشعراً أحاسيسهم وبكواً من رحل من دنياهم بأفعى ما يصل إليه التعبير ، ليدلوا بذلك على عظم المصائب ، وجلاء الرزء

والرثاء يعتمد على الحالة النفسية التي يحسها الإنسان ، وهو يستقطب أشتات الحزن ، ويستجمع دواعي الرثاء ، يستكمل صورة المرثى ، ليعد منها اللوحة الفنية التي تتناسب والتجربة التي يعانيها .

ومن هذا المنطلق كانت قصائد الرثاء أصدق تعبيراً ، وأشد إحساساً من أغراض الشعر الأخرى .

إن الشعور بالفراغ الكبير الذي يتركه الفقيد بين أهله وذويه وأصحابه ، سيختلف في نفس الشاعر – وهو أكثرهم إحساساً – مكاناً لا يسدّ ، وجرحاً لا يندمل . والشاعر الجاهلي أدرك حقيقة الموت بكل أبعادها ، وأحس بقوته التي ارتدت لها فرائصه ، فبات يخشي المصير ، ويخاف النهاية ، وقد تمثل الخوف من الموت ، والتفكير فيه في الشعر الجاهلي بصورة كثيرة⁽¹⁾ ، على أن الشاعر الجاهلي لم يتلزم بهذه الظاهرة ، ويقف عندها الوقفة التي تثير في نفسه اليأس وحده ، وإنما حاول أن يعلّها بالأسباب التي تهيات له ، وهداه إليها تفكيره .

إن المتتبع لقصيدة الرثاء الجاهلية يجد أنها كانت موزعة بين اتجاهين ، يبدو أحدهما امتداداً لقصيدة المديح ، وضرباً من التعبير عن الایمان الخفي بخلود الروح . واستمرار حاجتها إلى ما كانت تحتاج إليه في حياتها الدنيوية الأولى ، أما الاتجاه الآخر فقد تمثل في ضرب من النواح المعبر عن اللوعة الحالمة ، وذلك ما كانت تتولاه النساء عادة⁽²⁾ . على أن الاتجاهين قد يمتزجان في النموذج الواحد ، لا سيما إذا ربطت الشاعر بالمرثى صلة اجتماعية قريبة⁽³⁾ . أما النماذج التي رثى الشعراً بها أنفسهم فقد بدت في أكثر الأحيان موزعة بين اتجاه النواح وبين مجرى الفروسيّة القائم على ابراز المزايا الذاتية .

اتجاهات الرثاء في القصيدة الجاهلية :

1- رثاء الفرسان :

انبثق هذا اللون من الرثاء عند الشعراً الجاهلين في مضامينه من الفخر والحماسة ، فقد كانوا يرثون أبطالهم الذين سقطوا في ساحات المعارك والبطولة ، ليثروا القبيلة كي تأخذ بالثار .

لقد أدرك الشاعر الجاهلي قيمة الفقيد ، وجسد أصالته الوفاء ، التي يمكن أن يعبر بها الشاعر لهذا الإنسان الذي قدم أغلى ما يملك ، وأعز ما يمكن أن يوجد به إنسان .

1- انظر : معلقة عمرو بن كلثوم ، ومعلقة طرفة .

2- تعد مراثي النساء نماذج ناضجة لرثاء النساء التفعي .

3- انظر نماذج من هذا النمط في ديوان بشر بن أبي خازم ص 123، 151 و 174 . والنابغة الذبياني 211 . وعامر بن الطفيلي ص 39 .

ويمتاز هذا الشعر بالعاطفة الصادقة ، والأحساس المرهفة ، لأنه يصدر عن قلب موجع ، وفؤاد ملئ بالحزن ، وخير من يمثل هذا اللون من الرثاء متمم بن نويرة اليربوعي الذي رثى أخاه مالكا⁽¹⁾

- رثاء الأمم :

اتجه الشعرا الجاهليون في بعض مضامين قصيدة الرثاء اتجاهها جديدا رائدا ، وفتحوا في هذا الفن بابا جديدا ، من خلال التأمل الذاتي الذي انبعق عن الاعطاش بالأمم البائدة ، والملوك الذين قهرهم الموت بعد ارتقاء شأنهم ، وعلو مكانتهم ، وعز سلطانهم .

فقد اتعظ الأسود بن يعفر النهشلي ، ووعظ غيره ، بمن سبقه من الملوك العظام ، والأمم القوية ، فاتعظ بالحرق (المناذرة) وبآيات ، الذين كانوا نموذجاً للعز والثراء ، والجاه والجود ، فكان ملكهم ثابتًا قويًا مستقرًا ، وبالغُرْفَ الذين كانوا رمزاً للفقرة ، مما أغنت هؤلاء قوتهم ، ولا أغنَى أولئك جاههم ، وصاروا جميعاً إلى "بلى ونفا" .

3- رثاء النفس :

ويتمثل هذا اللون من الشعر برثاء الشعرا أنفسهم ، وندبهم حياتهم ، ويلمس المرء في هذا الاتجاه إحساساً قوياً ، ويدرك عاطفة متميزة ، ولأن هذه الظاهرة متعلقة بالشاعر نفسه ، فهو صاحب المصير المحتوم ، ومن أولى برثائه منه فلا غرابة إذا وجدها العاطفة تتدفق بغزاره ، وتتبعه بقوة مجده آماله في الحياة ، مصورة نهايته التي أدرك أنه ملاقيها .

ولعل قصيدة يزيد بن الحذاق⁽¹⁾ التي أسف فيها على نفسه أول شعر قيل في هذا الباب . فقد تخيل ما سيصنع به أهله بعد الموت ، من ترجيل شعره ، وإدراجه في الكفن ، واختيار أفضل الفتياً ليتولوا دفنه في ضريحه . ولعله قد انفرد بهذا التصوير المفصل لهذه الحال بين الشعرا ، وهو لم يقف في قصidته عند هذا الموقف من ظاهرة الموت ، التي نظر إليها هذه النظرة ، وإنما حاول أن ينبعق من تجربة الحياة التي عاشها ، فنراه يقدم النصيحة للذين يستقبلون الحياة ، فهو يهون شأن المال ، لأنه سوف ينتهي إلى الوارث .

الوصف

يعد الوصف من أهم الأغراض الشعرية التي طرقها الشعرا الجاهليون ، وبرعوا فيها ، فوصفو كل ما أبصروه ، وشاهدوه وصفاً دقيقاً ، وكان شعرهم تصويراً صادقاً لكل ما وقعت عليه أعينهم⁽¹⁾ ، فقدموا لنا لوحاتٍ فنيةً منقولاتٍ بدقة وبراعة عن

1- ديوان الحماسة ، المرزوقى ، 797/2 .
1- محمد عبد المنعم خفاجي : الشعر الجاهلي ، ص 260

البيئة التي عاشوا فيها⁽²⁾ مما جعلنا وجهاً لوجه أمام معلم تلك البيئة نعيش قلبها، ولا تخيلها تخيلًا.⁽³⁾ وكان الشاعر الجاهلي يستقرئ جميع الموصوف، فلا ينفي لوحة الوصف إلا بعد أن يقدم الصورة بأبهى منظر، وأدق بيان، فبدت القصيدة الجاهلية وكأنها شريط مصور تظهر فيه معلم تلك الحياة⁽⁴⁾.

اهتم النقاد القدامى بهذا الفن، ووضعوا تعريفات عديدة له⁽⁵⁾، لكنها أهملت العلاقة بين الواصل والموصوف، أما النقاد المحدثون فقد التفت كثير منهم إلى هذه العلاقة بين الشاعر وما يصفه، وتتبهوا إلى مشاركته إياه بوجданه ومشاعره⁽⁶⁾.

ركز الشعراء الجاهليون عدساتهم الفنية على الطبيعة، فنفّلواها في أشعارهم لوحات فنية، فيها دقة في الوصف، وبراعة في التشبيه، وروعة في التعبير، حتى ليخيل إلينا أن الشاعر الجاهلي يصور لنا الموصوف، فنراه رؤيا العين، ونقل إلينا باللغة ما ينقله الرسام بالريشة، فتوجه إلى الطبيعة بحواسه، وخاليه، فوصف أطلالها، وحيوانها، ونباتها، ورياضتها، وكان هذا الجاهلي في ساعات فراغه ينطلق نحو مجالس اللهو والخمر والغناء، فوصف لنا بأسلوب راق ما كان يدور في تلك المجالس، واستطاع أن يضعنا في أجواءها.

منطلقات قصيدة الوصف الجاهلية :

1- لوحة الناقة :

اهتم الجاهليون بالناقة اهتماماً عظيماً، وملأوا مطولاً لهم بأوصافها، حتى يكاد يتولد إحساس عند المرء أن هذا الشعر هو شعر الإبل وحده⁽¹⁾. واقرأ في المخصص لإبن سيدة تجد المؤلف قد خصّ الإبل بنحو مائة وسبعين صفحة من صفحات معجمه الكبير⁽²⁾. تحدث فيها عن أسمائها وصفاتها.

والناقة سفينة البدوي في صحرائه، يقطع فيها القفار والفيافي. وهي مصدر مهم من مصادر طعامه وشرابه... وبها يقامرون، ويدفعون الديات، ويجدون في أوقات الشدائـ.

وقد فتنت هذه الناقة الشاعر الجاهلي، فوقف يتأملها، ويرد بصره فيها، وأخذ يصفها عضواً عضواً، ويصف هيئتها وطبعها، وما يداخل صدرها من أحاسيس ومشاعر، ويتحدث عن علاقتها به، كأنما هو يتغزل بها⁽³⁾، لأنه يرى فيها نواحي الجمال، وعقرية الكون التي لا يحيط بها وصف⁽⁴⁾.

2- إيليا الحاوي : فن الوصف ، ص 22

3- نفسه : ص 23

4- نفسه : ص 22

5- قدامه بن جعفر : نقد الشعر، ص 130 وابن رشيق : العمدة : 2 / 294 - 295

6- محمد النويهي : وظيفة الأدب بين الالتزام الفني والانفصام الجمالي ، ص 64

1- وهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص 63

2- ابن سيدة : المخصص ، السفر السابع ، ص 2 - 175

3- وهب رومية : الرحلة (مرجع سابق) ص 62

4- نوري حمودي القيسى : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، ص 100

ولعل من أهم ما يميز هذا الموروث الشعري الضخم الذي خلفه لنا الجاهليون في وصف الإبل :

1- خشونة اللغة وصعوبتها، فإنها تخوشن وتستغل على الفهم ، بل " يندر أن تتطق الألسنة بها إلا عند الأخصائيين⁽⁵⁾ ". وما نحسب أن هذه اللغة شديدة علينا وحدنا ، بل نظنها كانت شديدة على معاصرى الشاعر الجاهلي أيضا ، لأنه " يصور صورة قوية شديدة فيتخد لها ألفاظا تحكمها⁽¹⁾ ".

2- تقارب الصور بحيث يصعب على القارئ أن يفوز بملامح ناقة إنفرد بها هذا الشاعر ، ولم ترد عند سواه ، ويصبح من الصعب إن لم يكن من المستحيل ، " أن نفرق بين شعر هذا الشاعر ، أو ذاك في الناقة ، فأسلوبهم فيها متشابه إلى حد كبير والصور التي يلتزمونها ، والأساليب التي يجرون عليها ، تكاد تكون أنماطا ثابتة لا تتغير فيها ولا تبدل إلا في حدود ضيقة⁽²⁾ .

لقد انتهت لوحة الرحلة إلى شعراً العصر المبكرين ، وهي مستكملة لكثير من عناصرها ، ولعل أوضح تلك العناصر هذه الجسور اللفظية التي تؤدي إليها بعد إنتهاء لوحة الافتتاح ، وتتخذ غالباً صيغة "تسليمة الهم⁽³⁾" .

والناقة هي وسيلة الشاعر وأداته التي يستعين بها على بلوغ الهدف من موقف الصراع ، ولهذا فإنه قد يفرغ لوصفها الذي يستمد عمقه ، وامتداده ، من تحفته الذاتي ، واستعداده الفني لمتابعة تفاصيل مظاهرها الفنية، الذي طال تأمله له وامتزجت له في نفسه عوامل الألفة والإعجاب والمنفعة⁽⁴⁾ .

ولقد ظل الشاعر الجاهلي يتابع هذه التفاصيل التقليدية ، ويحاول أن يضيف إليها جديدا . وتنتجه الأوصاف والتفاصيل الموروثة إلى التركيز على ضخامة الناقة، وشدها ، وصلابتها ، وسرعتها ، فهي تجسر على السير ، موثقة الخلق ، محكمة ليست مما يلحف ، فلا يدر لبناها ، ولا تضعف بذلك قوتها البنية ، تشبه العير في صلابتها ، قال الأسود بن يعفر النهشلي (5) :

ولقد تلوت الطاعنين بجسرة
غيرانة سد الربيع خصاصها

وناقة علقة الفحل التي حملته إلى الحارث بن أبي شمر الغساني ناقة نشطة قوية ، صابرة على الهاجرة ، تواصل الليل بالنهار في سيرها السريع الدؤوب ، وكان صيادا يلاحقها ، على الرغم من طول الرحلة ، وبعد المسافة التي تفصله عن المدحور ، وما يحفلها من أخطار لا تواجه المسافر فقط ، بل تعرض للناقة أيضا ، فالماء الأجن المتغير الطعم ، والجيف المنتشرة التي ظهرت عظامها البيضاء لنياق ضعيفة لم تستطع

5- طه حسين : من تاريخ الأدب العربي ، 1 / 356

1- محمد النويهي : *الشعر الجاهلي منهج في دراسته و تقويمه* ، 328/1 .

2- محمد محمد حسين : *أساليب الصناعة في شعر الأعشى* ، ص 54

3- انظر النماذج التي جمعها محقق ديوان المتقب العبدى ص 165 الهاشم 3 من صيغ الانتقال التي لا تخصى فى الدواوين الجاهلية .

⁴- انظر : نوري حمودي القيسي : الطبيعة في الشعر الجاهلي 96 – 97

أحمد الحوفي : أغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي 85 - 86

220 المفضليات :

أن تكمل المسيرة ، وعلى الرغم من عظم المشاق فإن ناقته الجريئة القوية هي القادرة على أن تحمله إلى المكان الذي يريد .

ولا بد من أن تكون حذرة نشيطة حادة الذهن ، وهي في خشيتها وترقبها وسرعتها تشبه البقرة المذعورة الخائفة من صياد ألم بها يتبعها .

وقد سبقت هذه البقرة الشبوب نبال الصياديون وكلابهم ، وقد استتروا بشجرة الأرضى ليرموها .

وهي في شدة سيرها تميل إلى أفياء الظلال لشدة لفح الهاجرة ، تقطع الفلووات المخوفة . وهذه الفلووات لا تقطعها إلا ناقة قوية جلة .

وإن كان الشاعر قد عرض لموضوع تقليدي ، وهو وصف ناقته ، إلا أنه حملها من الأوصاف الدقيقة ، ما يخدم غرض القصيدة كلها ، وهو بلوغ الحارث . ذلك البلوغ العظيم الشاق ، الذي نهت له ناقة قوية ، أناخها أمام القصر .

واستمع إلى هذه الألحان التي عزفها علقة للحارث⁽¹⁾ ، واصفا الرحلة ، وما كابد فيها من مشقة ، فلم يملك الحارث ، إلا أن يبدي إعجابا شديدا ، ويقول : لقد أتعبت المطي يا ابن عبدة .

2- لوحة الثور الوحشي :

لا يكاد الشاعر الجاهلي يفرغ من وصف ناقته ، التي أطالت الوقوف عندها ، ودقق النظر في أعضائها ، حتى يعرض علينا لوحة فنية ثانية ، هي لوحة "الثور الوحشي" متتخذًا من أداة التشبيه "كأن" جسرا لفظيا يربط هاتين اللوحتين الفنيتين، فيفصل القول في المشبه به ، لدرجة أن القارئ ينسى المشبه لطول التشبيه . وقد وقف أستاذنا محمد النويهي عند هذا التشبيه الذي سماه "التشبيه الاستطرادي" ، وقال : "وهكذا نستطيع الآن أن نفهم ظاهرة من أهم الظواهر في الفن الجاهلي ، وأجدرها بالتفكير الطويل ، وهي إطالة التشبيه والاستطراد فيه إلى حد يبدو فيه مسرفا ، فهذه الظاهرة لا يمكن تعليلها تعليلا مقنعا ما دمنا نصدق إدعاء الشاعر أنه جاء بالتشبيه ليوضح المشبه ، ولم ندرك أن هذا التشبيه الطويل المستطرد ليس إلا حيلة، يحتالها الشاعر للخلاص من

1- المفضليات رقم 119 ، ص 392

- الجسра : الناقة القوية . كهمك : مثل همتك في المضاء والقوة . الرداف : كل شيء يكون خلف الراكب . الخبيب: السير السريع

- العيس : الإبل . بربيناها : أتعيناها وأضتنيناها

- الحارث الوهاب : الحارث بن أبي شمر ، وكان قد أسر أخاه شأسا، فرحل إليه يطلب خلاصه - أعمل الناقة : وجهها . الكلكل : الصدر . التصريان : الضلعان . الوجيب : خفقان القلب .

- ناجية: سريعة . ركيب : لحم وشحم . حاركتها: مقدم سنانها . تهجر: سير في الهاجرة . دؤوب : إلحاد في السير .

- جمام الماء : ما اجتمع منه . الأجن : تغير طعمه ولونه . الصبيب : شجر يختصب به ، وقيل الدم المصبور .

- غب السرى : بعد سرى الليل . مولعة : كقر الوحش فيها خطوط سود . شبوب : مسنة

موضوع يعتقد أنه وفاه حقه ، إلى موضوع آخر ، يريد أن يعطيه عنایته ، فليلتمس هذا الرابط المصطنع ، لبیرر انقاله⁽¹⁾ .

وصورة الثور الوحشي في عامة التجارب الشعرية قد تشابهت عناصرها⁽²⁾ ولا تكاد سيماؤه تختلف إلا في بعض التفاصيل ، لدرجة أن المرء قد يتوهם أحياناً وكأن أمامهم نموذجاً معداً ينسخون عنه .

والثور يواجه صراعه منفرداً ، لا يقف إلى جانبه مَنْ يلُوذ به ، أو يحتاج إلى حمايته ، وبذلك يتوجه المشهد إلى منح الشاعر فرصة الابياء بمواقف الصراع ، ذات الطابع الفردي ، ونراه في عامة التجارب يواجه صراعين : يتمثل مشهد الصراع الأول في مواجهة الثور لأهواه ليلة ، يشتد فيها المطر والريح ، وغالباً ما يكون هذا المطر من نوع الجوزاء⁽³⁾ ، فيصارع من أجل أن يحتقر لنفسه مبيتاً عند أصول شجرة أرطاة⁽⁴⁾ أو غرق⁽⁵⁾ .

وأما مشهد الصراع الثاني فيكون في مواجهاته بنذير الموت ، ممثلاً في أصوات كلاب صيد مقبلة ، وعندئذ يفرز إلى قوائمه ، فيستمد منها العزم على الهرب ، ولكن الكلاب تتکاثر عليه ، وتنهش لحمه ولكنه يتذكر كرامته ، فيكر عليها بروقية (قرنية) ليطعنها ، فيصرع هذا ، ويجرح ذاك ، وتراجع السليمة منها أنفسها ، وترى أن اليأس أولى بها ، فتعود عنه . وبتجه نحو المجهول والثور ، هو المنتصر غالباً في معركة فرضها عليه قدره ، وهيا له فيها وسائل النصر ، ما عدا قصائد الرثاء ، فقد كان الهاك فيها⁽¹⁾ .

وهذه هي الصورة العامة لهذه اللوحة الفنية في عامة التجارب الشعرية ، ولا يختلف الشعراء إلا في تفاصيل عرضها.

3- لوحة الحمار الوحشي :

إن التقاليد الشعرية العريقة لا يمكن أن نقبل بتفسيرها ساذجاً ، فنقول : إن الشاعر يريد أن يعبر عن خبرة دقيقة بأحوال الصحراء ، والشعر أعمق من أن يكون استعراضاً للمعارف ، والشاعر لا يشبه ناقته بحمار الوحش في سرعته وصلابته فقط ، لأن قصة حمار الوحش تحمل معاني أخرى غير السرعة والصلابة ، وفيها حكمة الحمار ، وسداد رأيه ، وعزيمته ، وغيرته ، وتعشقه ، ومعرفته .

والشعراء عندما يكررون هذا المشهد ، يعبرون عن حاجة ملحة في النفس ، فيختارون لها هذا الشكل الفني العريق . إن عقل الشاعر الجاهلي لا يظهر ظهوراً واضحاً في غرض من أغراض شعره - إذا استثنينا الحكمـة - كما يظهر في الحديث

1- محمد النويهي : الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، 1 / 318

2- نصرة عبد الرحمن : الصورة الفنية في الشعر الجاهلي ، ص 77

3- بشر بن أبي خازم : ديوانه ، ص 256 . وديوان النابغة : ص 18

4- ديوان الأعشى : ص 361-363 . وديوان بشر بن أبي خازم : ص 51 و 55 .

5- ديوان لبيد : ص 105 .

1- أنظر: ديوان الهمذين 4/1 ، 10 ، 15 ، 183 ، 111/2 . 117 .

عن الحيوان ، ولا سيما الثور الوحشي ، وحمار الوحش ، والظليم ، " ولعل شغف الشعراء بتصوير هذه الحيوانات تصویرا دقيقا واسعا ينكر في طائفة عظيمة من هذا الشعر ، يعكس حاجة أو رغبة بين جوانحهم للتعبير عما في نفوسهم وعقولهم " ⁽¹⁾ . وقصة حمار الوحش تبدأ عندما يشبه الشاعر ناقته بهذا الحمار ، وتکاد صور التشبيه تأخذ شكلا فنيا ثابتا.

4- لوحة بقرة الوحش

تشبه هذه اللوحة الفنية لوحة الثور الوحشي من حيث ملامحها العامة ، وتخالف عنها في بعض التفاصيل ، إذ يبرز الشعراء في هذه اللوحة عنصرين جديدين هما: " السباع التي تترخص بها (البقرة) ، والولد الذي تحرض عليه ⁽¹⁾ ".

ومن أبرز الشعراء الذين وقفوا عند هذا المشهد لبيد بن ربيعة ، الذي خرج من تشبيه استطرادي إلى تشبيه استطرادي آخر ، فبعد أن فرغ من الحديث عن ناقته ، شبهها بالحمار الوحشي ، الذي أضفى عليه مشاعر إنسانية - كما أشرنا إلى ذلك - خرج من ذلك التشبيه الطويل إلى تشبيه آخر طويل ، شبه فيه ناقته بالبقرة الوحشية ، مضيفا عليها " أصدق العواطف الإنسانية وأجملها ، عواطف الأمومة الأصلية النقية ⁽²⁾ "، مما يدل دلالة قاطعة على أن هذا المشبه به مقصود ذاته ، لا لبيان سرعة المشبه ⁽³⁾ .

وفي هذه اللوحة الفنية يصور لبيد بقرة وحشية ، ضاع منها ولدها فتختلف عن القطيع فتعافت عنه بالرعي ، وعندما امتنأ ضرعها باللبن ، استيقظت مشاعر الأمومة في قلبها ووجانها تجاه ولدتها ، فتبثت عنه ، وتتصوت في كل اتجاه ، لعله يسمعها ، وتتعرض هذه البقرة لمأساتين متلاحقتين : المأساة الأولى : يجنها الليل ، وتتهرم السماء بالمطر ، وتشتد الريح ، فتلنجأ إلى شجرة ضخمة تقضي في أصلها ليلتها ، وتعغلب على قسوة الطبيعة . وفي ساعات الصباح الباكر تعاود البحث عن ولدتها من جديد ، فتتعرض لمأساة جديدة ، إذ تستشعر صوتا حفيا ، لا تتبنّ مصدره ، إنه صوت الصياد الذي ألقى في قلبها الخوف والرعب ، فكان عليها أن تخاف بين أمرين أحلاهما مرّ : إما أن تتجوّل بنفسها ، وتختلي عن ابنها ، وإما أن تدخل في معركة مع كلاب الصياد ، ليس الفوز فيها مضمونا ...

إنه موقف ، يصعب فيه على الإنسان أن يختار ، لو وضع في الظروف نفسها فاختارت البقرة مدفوعة بغريرة الحياة ، النجا لنفسها فأخذت تعود وكلاب الصياد تعود خلفها ، حتى نال منها التعب ، وأضناها العدو ، فأحسست باليأس ، فانعطفت إلى هذه الكلاب ، ودارت بين الفريقين معركة حامية أسفرت عن سقوط قتيلين من الكلاب ، بقررت بطريقها بقرنيها.

5- لوحة الظليم

1- وهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص 127.

¹- وهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية ، 119 .

2- نفسه .

3- د. محمد النويهي : الشعر الجاهلي ، 345/1 .

طالعنا قصة الظليم في دواوين كثير من شعراء العصر الجاهلي⁽¹⁾ ، إلا أن علقة بن عبدة يتفوق عليهم جميعا ، ويبذهم . فقد جاءت هذه اللوحة الفنية عند سواه موجزة مبتسرة ، لا يكاد الواحد منهم يبتدىء بها حتى يتحول عنها مسرعا ولعل السبب في ذلك ضاللة قدرة مشهد الظليم على استيعاب الآثار النفسية لمواصف الصراع الأكثر شيوعا في الحياة الجاهلية .

أما علقة الفحل فقد دقق في أجزاء هذه الصورة الفنية ، ووقف عندها وقفه متأنيا ، ونقلها إلينا بالصوت ، واللون ، والحركة ، مما دفع ابن الأعرابي ليشهد له بالتفوق ، فقال⁽²⁾ : " ما من أحد وصف نعامة إلا احتاج إلى علقة بن عبدة " وتقع هذه اللوحة الفنية التي تأق علقة في رسماها بعد حديثه عن ناقته في قصيده التي مطلعها :

هل ما علمت وما استودعت مكتوم أم حبلاها اذ ناتك اليوم مصروم
هذه القصيدة الرائعة التي كانت واحدة من ثلاث قصائد نظمهن علقة، وقال فيهن ابن سلام : " ثلاثة روانع جيد لا يفوقهن شعر⁽³⁾ " ، وقد نال علقة برائعته التي ستفق طويلا عند لوحة الظليم فيها ، شهادة تقدير من قريش ، حينما قدم عليهم في سوق عكاظ، ووقف منشدا، فقلوا : هذه سبط الدهر⁽⁴⁾ ، وهي شهادة يحق لعلقة أن يفخر بها ، ويزهو .

وبعد أن فرغ علقة من وصف ناقته ، اتخذ من أداة التشبيه " كان " جسرا لفظيا لينقل أحاسيسه ومشاعره وعواطفه الإنسانية السامية . فهذا الظليم الذي أكل الربيع ، فاحمرت قوائمه ، وأطراف ريشه ، وكل شعره ، وأكل التنوم والحنظل ... ومن هنا تبدأ رحلة الشاعر مع الظليم ، هذا الظليم الذي لا تكاد تتبيّن فاه إلا بعد طول تأمل وجهد ، فهو كشق العصا ، في دقته وخفاته ، أما أذناه فهما صغيرتان وضيقتان ، ومما يوحي المشاعر هو تلك الألفة التي ربطت الشاعر بالظليم ، فجعلته يبدع في رسم تلك الصورة .

وقد تذكر الظليم بيضه عندما بدأت نذر العاصفة ، فهب مذعورا وأسرع في عدوه إنه حقا ، كما قال وهب روميه⁽¹⁾ : " لا يعني للركب حسب ، ولكنه ، أيضا ، يعني لهذا الظليم ، وأسرته الصغيرة ، فهذه اللوحة الإنسانية الشائقة العamerة بالحب وبnbsp; البعض الحياة ، تنقلنا من هذا الجو الخافق بال عبرات لوداع الأحبة إلى ذلك الجو العبق بود المعاشرة ، إنني أكاد أشعر بذلك الإحساس اللصيق بقلب هذا الشاعر ببؤس الحياة ، وهو ذا يصرخ في وجوهنا لنلتقي إلى عالم الحيوان ، ويقول لنا : من هنا تعلموا الحياة . فالقيم الأسرية تبرز في هذه الصورة بوضوح ، من حب وحنان ، وحرص وحسن معاشرة ، وتلطّف في المعاملة . هذا ما أراد الشاعر لفت نظرنا إليه .

1- انظر : وهب روميه . الرحلة في القصيدة الجاهلية ، ص 153 وما بعدها .

2- الأغاني : 16 / 296 .

3- المصدر نفسه : 201 / 21

4- ابن سلام : طبقات فحول الشعراء ، 1 / 139

1- وهب روميه : مرجع سابق ، ص 355

وفجأة يتذكر بيضه بعد أن هيجه يوم ملبد بالغيوم فيهب مسرعا ، ويترنّد في سرعته ، ليدرك أحديه قبل أن يفسد المطر والبرد بيضه ، وبهذا فراخه . ونجد علقة يدخل في تفاصيل حركته ، ينقل لنا بأمانة مشاهد عودته إلى أحديه ، وهو من شدة غدوه يخوض رأسه ، ويرفع ظفره لدرجة التلامس ، في حركة متواالية ، تكاد تشق مقلته ويصل إلى غايته في الوقت المناسب ، فلا يسرع بالدخول إلى أحديه ، وإنما يطوف حوله مرتين ، فعل الحريص ، ليطمئن إلى أن عدوا أو صيادا لم يدخل مسكنه في أثناء غيابه ، فيفترسه . ويدخل من ثم ، ويلتقى بفراخه ، فيأوي إليها . وما أجمل وأرق لفظة " يأوي " وكأنه في أمس الحاجة إلى هذه الفراخ الصغيرة التي لم ينبع ريش قوادها بعد .

يلتفت إلى عرسه ، فتضاجع الحياة في عروقه ، ويعلن حبه بكل ما في طاقته وقدرته على التعبير عن حالة الفرح العامر بالنشوة . "وانه لمدهش حقاً أن يتسع قلب هذا البدوي لكل هذا الحنان والتراحم والود ، وأن يرهف حسه ويستوفز إلى حد يتقمص معه حالات النفس الحيوانية في لحظات الفرح والتوجس والرضا⁽¹⁾ .

حقا إنها قصة متكاملة الفصول والمشاهد " يعني بها عنایة فائقة بوصف الصوت واللون والحركة والهيئة في القرب والبعد وفي الوقوف والعدو ، وأبدع في وصف مشاعر الظليم ، وتتبعها تتبعاً دقيقاً في كل مراحل القصة . فصورها في أمنه واضطرباته ، وحذره ، وسعادته ، وصور مشاعر النعامة ، ورسم لهذه الأسرة الصغيرة صورة يلونها الحب بلونها الزاهي ، وتضئيها البهجة ، ويظللها إحساس نقي بطمأنينة غامرة⁽²⁾ " .

الاعتذار

وفي أواخر العصر الجاهلي اتّخذ بعض الشعراء المديح وسيلة للتكسب والإرتزاق، وفتحت إمارتنا الغساسنة والمناذرة أبوابهما لكثير من الشعراء، كحسان بن ثابت، والأعشى، وعلقة، والنابغة ..

اتصل النابغة الذبياني بملوك الحيرة، وطلّت صحبته للنعمان بن المنذر فقربه، واتّخذه نديماً وصديقاً، إلا أن حبل الود لم يتصل، وإن الحياة لم تتصف له، فقد تدخل الوشاية لإفساد ما اتصل بينهما من ود، ونحوها في تشويه صورة الشاعر عند مليكه مما اضطره إلى الفرار إلى الغساسنة، منافسي المناذرة وأعدائهم، وابتدعوا مختلف الأقاويل للإمعان في الإساءة إليه، والحط من شأنه، وقد صورته الوشایات في نظر مليكه، أبي قابوس، ناكراً للعرفان، عديم المروءة، والوفاء، لا يرعوي عن خيانة مَنْ منحه الرعاية، ووهبه نعمة الإثراء، ووفر له سبل الشهرة، وبوأه مجد الشاعرية، حتى غدا يأكل في صحاف من الذهب والفضة.

وعزّ على الشاعر أن يصبح سيء الأحذوّة بين الناس، وهانت سلامته في نظره إزاء العار الذي يهدّد شرفه ، فلاذ بشاعريته لتندوّ عنّه، ولجا إلى قوة منطقة ليدفع الإفتراءات، فوفق في الإعتذار لأبي قابوس، وكانت اعتذارياته صفحة جديدة في الأدب

1- وهب رومية : مرجع سابق ، ص 355

2- المرجع نفسه ، ص 159 وما بعدها .

العربي، فتحت للشعراء خلال العصور التالية باباً مستحدثاً لم يكن لهم عهد به. وكانت هذه الاعتذاريات أروع ما دبجه الجاهليون⁽¹⁾ ، لأنها خطت بالشعر الجاهلي خطوة نحو بؤرة عميقة من العلاقات الإنسانية المتشابكة المتنازعة⁽²⁾.

1- شوقي ضيف : العصر الجاهلي 211

2- مطاع صافي وإيليا الحاوي : موسوعة الشعر العربي ، 264/2

ما قيل في اعتذارات النابغة :

اختلف الباحثون في تقويم اعتذارات النابغة وأسبابها، فمنهم من نسب هذه الإعتذارات إلى العامل النفسي الذي انطبع عليه النابغة، وهو الذل والمسكنة والصغر في طريقة استعطافه للملك النعمان⁽¹⁾ ، وفي هذه القصائد يفقد الشاعر العربي عنجهيته، ويحني هامته، ويخلع سيفه ودرعه، ليتردّي ثوب الذل، متعرضاً، مخدولاً على اعتبار القصور وبين أقدام الملوك. وقد خرج النابغة بذلك عن سياق النفسية العربية، وطبائع الفروسيّة، التي كان يضج بها الشعر القديم، يصورها الشاعر، وكأنها أعز من حياته⁽²⁾.

ومن الباحثين من أقر له بالبراعة والتقوّق⁽³⁾ ، دون أن يوفق إلى ذكر المأخذ على أسلوبه الإعتذاري. وقد فات أكثرهم، إن لم يفthem جميعاً، أن يدرسوا هذا الفن في ضوء الظروف التي كانت تحيط بالنابغة.

أسباب مفارقة النابغة للنعمان :

تعددت الروايات في سبب المفارقة⁽⁴⁾ ، وقد زعموا أنه فارق النعمان خوفاً على على حياته، فإن بعض الشعراء الذين كانوا ينافسونه في بلاط الحيرة قد صنعوا على لسانه شعراً مقدعاً في هجاء النعمان، وفي رواية ثانية أنه كان لأحدّهم سيف قاطع كثیر الجوهر، فذكر النابغة ذلك للنعمان فأخذته، فأثار ذلك حقد صاحبه على النابغة ، فوشى به إلى النعمان، وحرضه عليه . وفي رواية ثالثة أن النابغة وصف زوج النعمان المتجردة، وصفاً استقصى فيه أعضاءها، فغار منه المنخل اليشكري ، وكان يهواها، فوسوس به إلى الأمير أن هذا الوصف لا يقوله إلا مُجرب، فغضب النعمان، وعلم النابغة، فهرب إلى الغساسنة⁽⁵⁾.

وقد تكون هذه الروايات من نسج خيال الرواية، اختروعها ليفسروا اعتذارات النابغة التي تنبئ بأنه جنى جنائية عظيمة. وقد أعرض عنها كثير من المعاصرین⁽⁶⁾ ، وعزّوا أسباب المفارقة إلى وفود النابغة على الغساسنة، أعدائهم ومنافسيهم، وما صاغه فيهم من مدح، فقد رأى النعمان في هذا تحولاً في موقف الذبيانيين، وهذا ما يبدو واضحاً في قصيده البائبلية، فالنعمان قد فسر هذا التحول تفسيراً سياسياً عاماً، إذ هو التجاء إلى خصم منافس، وتقوية لشأنه، وبخاصة بعد انتصار الشام على العراق،

1- عائشة بنت الشاطئ : قيم جديدة للأدب العربي ص 52، 51.

2- موسوعة الشعر العربي ، 2/238.

3- العصر الجاهلي : 280 وما بعدها.

إيليا الحاوي : النابغة الذبياني : سياساته وفنه ونفسيته ، 164-165.

محمد زكي العشماوي : النابغة الذبياني ص 86 وما بعدها.

محمد عبد القادر أحمد : دراسات في أدب ونصوص العصر الجاهلي ، ص 206.

4- الأغاني : 11/12 ، وأنظر ترجمته في الشعر والشعراء.

5- ناقشن العشماوي هذه القصة، ورفضها بشدة.

6- د. طه حسين : من تاريخ الأدب العربي / 300.

محمد زكي العشماوي : النابغة الذبياني ص 84 وما بعدها.

أحمد الشايب : تاريخ الشعر السياسي ص 15، 16، 70، 71.

شوقي ضيف : العصر الجاهلي ص 272.

ولكن النابغة فسره تفسيرا شخصيا قريبا ، بأنه شكر على صنيع ينهض به جميع
الشعراء، فقال⁽¹⁾ :

وذلك التي أهتم منها وأنصب هراسا به
يعلى فراشي ويقشب وليس وراء الله
لمرء مذهب لمبلغك الواشي أغش
وأكتب من الأرض فيه مسترداد
ومذهب أحكم في أموالهم وأقرب
فلم تره في شكر ذلك أذنبو⁽²⁾

أتاني أبيت اللعن أنك لمتنى فبت كأن
العائدات فرشنني حلفت فلم أترك
لنفسك ريبة لئن كنت قد بُلغت عنني
خيانة ولكنني كنت امراً لي جانب
ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم كفعلك
في قوم أراك اصطفيتهم

إلى أن يقول :
ولست بمسيق أخا لا تلمه فان أك
مظلوما فبعد ظلمته
ومن بديع اعتذارياته قصيده الدالية، التي شرع يمدح فيها النعمان، بعد أن فرغ من وصف
ناقته، فقال⁽³⁾ :

ولا أحاشي من الأقوام من أحد قم في
البرية فاحدها على الفند بينون تدمر
بالصفاح والعمد كما أطاعك وادله
على الرشد تنتهي الظلوم ولا تقعد على
ضمد

ولا أرى فاعلا في الناس يشبهه إلا
سليمان إذ قال الإله له وخيس الجن
إنى قد أذنت لهم فمن أطاعك فانفعه
بطاعته ومن عصاك فعاقبه بعاقبة

1- ديوانه : 72 .
أبيت اللعن : تحية جاهلية، أي أبيت أن تأتي ما تلعن عليه. النصب : التعب. الهراس : شجر كبير
الشوك. العائدات : الزائرات في المرض. فرشنني : بسطن لي. يقشب : يخلط ويحدد. لي جانب :
متسع من الأرض. مسترداد ومذهب : إقبال وإدبار. ملوك وإخوان : هم الغسانيون الذين أكرموا وفادته
لما حل بهم.

2- يقول : إذا اصطنعت قوما فشكروك، فهل تراهم مذنبين، فهذه حالى مع هؤلاء الملوك الذين
مدحتهم.

3- ديوانه : صفحة 20 وما بعدها.
- أحاشي : أستثنى. أحدها : أحبسها. الفند : الخطأ في الرأي.
خيس : ذلل. تدمر : بلد الشام. الصفاح : حجارة عراض رفق.
العمد : السواري من الرخام. الضمد : الذل.
- فتاة الحي : قيل هي زرقاء اليمامة. شراع: مجتمعه. الثمد : الماء القليل الذي يكون في الشتاء،
ويخف في الصيف. يحفيه: يحيط به. النيق : الجبل. مثل الزجاجة : عينا صافية لم يصبها رمد، فتحتاج
إلى كحل.

فالشاعر لا يرى أحداً يفعل فعلاً كريماً يشبه فعل النعمان، ولا يستثنى من حكمه أحداً إلا سليمان، فقد شبه النعمان به، مت伝قاً من المشهد الواقعى إلى الأمور الخارقة، لقد انبرى الشاعر بالنعامان إلى ذروة المبالغة، منذ البيت الأول، إذ تفوق على سائر البشر. ويطلب النابغة من النعمان أن يكون بعيد النظر كزرقاء اليمامة، التي حذرت قومها يوماً من عدوهم ، وكانوا على مسافة بعيدة منهم، فلم يأخذوا بقولها لا عتقادهم أن اليمامة تتخيّل ذلك تخلياً، وكانت النتيجة أن داهمهم الغزارة.

واحكم حكم فتاة الحي إذ نظرت يحفه	إلى حمام شراع وارد الثمد
جانبنا نيق وتبقيه	الزجاجة لم تكحل من الرمد
هذا الحمام لنا	إلى حمامتنا
حسيبت	تسعاً وتسعين لم تنقص
فكملت مئة منها حمامتها	ونصفه ف قد
ولم تزد	وأسرعت حسبة في ذلك العدد

لقد وجد الشاعر في زرقاء اليمامة⁽¹⁾ إشعاعاً يستخدمه، ليكشف له عن حقيقة هذه التهمة التي أصقت به، وللهذا ضرب له المثل الذي يحمل الصدق الأكيد، ويستجلّي بواطن الأمور، وقد تمثلت هذه الصورة بكل أبعادها في حوادث الأسطورة (زرقاء اليمامة) التي استطاعت نظراتها أن تتفّذ، لتنكشف دقائق الأمور، وتتميز أصيلها من باطلها، وهو على هذه المسافة من البعـد، والشاعر يطلب من النعمان أن يكون دقـياً في الحكم دقة هذه المرأة، ويطلب إليه أن يكون حاد البصر حدة هذه الفتـاة، تتفـذ نظراته إلى جوهر الأمور، وتتحققـص أمورـها، وتحـرـى الدقة في الأحكـام، ومن هنا كان استخدامـ الشاعـر لهـذه الصـورة استـخداماً جـيدـاً.

وبعد النصيحة التي يقدمها للنعمان يعـدـ الشـاعـر إلى القـسـم ليـبرـى نـفـسـه ماـ اـتـهـمـ به⁽²⁾ :

فـلا لـعـمرـ الـذـي مـسـحـتـ كـعبـتـ	وـالـمـؤـمـنـ الـعـائـذـاتـ الطـيـرـ تـمسـحـهاـ
مـكـةـ بـيـنـ الـغـيـلـ وـالـسـعـدـ	إـذـاـ فـلـاـ رـفـعـتـ
سوـطـيـ إـلـيـ يـديـ	كـانـتـ مـقـالـتـهـ قـرـعاـ
عـلـىـ الـكـبـدـ	قـرـثـ بـهـ عـيـنـ مـنـ يـأـتـيـكـ
بـالـفـنـدـ	إـذـاـ فـعـاقـبـنـيـ

فالنابغة يقسم بأقدس مكان عند العرب وهو الكعبة، والأنصاب التي حولها، وقد أريقت عليها الدماء. ويقسم أيضاً بالله تعالى بأنه بريء مما نسب إليه من قول سوء. ويقول : إذا كنت قلت هذا الذي بلغك شلت يدي حتى لا أطيق بها رفع السوط على خفته ، وقد أثرت فيه مقالة الكذب حتى قرعت كبدـهـ، وهو يدعـوـ رـبـهـ بـمـعـاقـبـتـهـ مـعـاقـبـةـ تـقـرـ بـهـ عـيـنـ حـاسـدـهـ ، إنـ كـانـ مـاـ نـسـبـ إـلـيـهـ صـحـيـحاـ.

1- انظر القصة كاملة في فصل المقال ص 104

2- ديوانه : 26 وما بعدها.

هـرـيقـ : صـبـ .ـ الـأـنـصـابـ : حـجـارـةـ كـانـواـ فـيـ الـجـاهـلـيـةـ يـذـبـحـونـ عـنـدـهـاـ.ـ الجـسـدـ : الزـعـفـانـ،ـ وـهـوـ هـنـاـ الـدـمـ.

- المؤمن : الذي آمن، وهو الله. العائدات : الحديثة النتاج من الحيوان. يمسـحـهاـ : أي تمسـحـ الرـكـبـانـ عـلـيـهـاـ،ـ وـلـاـ تـهـيـجـهـاـ بـأـخـدـ.ـ الغـيـلـ : قـبـيلـ هوـ المـاءـ الجـارـيـ عـلـىـ وـجـهـ الـأـرـضـ،ـ وـقـبـيلـ الـغـيـلـ وـالـسـعـدـ أـجـمـانـ كـانـتـ بـيـنـ مـكـةـ وـمـنـيـ.

- الفـنـدـ : الـكـذـبـ.

ويكشف النابغة بعد ذلك عن عظيم حبه لملكه، هذا الحب الذي لا يتزدد معه في افتداه بما عنده من نعمة المال والبنين : ويصور نفسه ضعيفاً أمام النعمان وقوته وبطشه، ويمثله أبداً جائعاً يزار، وقد وقع منه موقع الفريسة، ويستعطف الشاعر النعمان فيجعل جميع الناس فداء له، ثم يطلب إليه أن يترفق به، فقال⁽¹⁾ :

أنبئت أن أبي قابوس أوعدنني مهلا
فداء لك الأقوام كلهم لا تقدفي
بركن لا كفاء له

ولا قرار على زار من الأسد وما
أثمر من مال ومن ولد وإن تأتك
الأعداء بالرفد

ثم ينتهي إلى المبالغة في وصف كرم النعمان حتى يقرن فيض كرمه بفيض الفرات. ويختتم القصيدة بالطلب من النعمان أن يستجيب للعفو ويقبل العذر، أو يظل حليف المؤس والشقاء :

ترمي أواذيه العرين بالزبد فيه
ركام من الينبوت والخضد
بالخيزانة بعد الأئن والنجد ولا
يحول عطاء اليوم دون غد فلم
أعرض أبيت اللعن بالصفد فإن
صاحبها مشارك النك

فما الفرات إذا هبّ الرياح له يمده
كل واد متزع لجب يظل من
خوفه الملاح معتصما يوما بأجود
منه سيب نافلة هذا الثناء فإن
تسمع به حسنا ها إن ذي عذرة إلا
تكن نعمت

1- المرجع السابق .

- أبو قابوس : كنية النعمان. أثر : أجمع. تأتك الأعداء : صاروا حولك كالأنافي . العرين : الناحيتين. الزبد : ما يطرحه الوادي إذا جاش ماؤه . متزع : مملوء. اللجب : ذو الصوت. الركام : الحطام المتكاثف. الينبوت : شجر الخشاش. الخضد : ما خضد وتكسر. الملاح : صاحب السفينة . السيب : العطاء .



الفصل الثامن:
الصلوة

مفهومها:

تدور كلمة "الصلعكة" في دائرتين⁽¹⁾ : دائرة لغوية، ودائرة اجتماعية. وتبعداً دائرتان من نقطة واحدة وهي الفقر. فأما الدائرة اللغوية فتنتهي حيث بدأت، وبينما الصلعوك فيها فقيراً، ويظل في نطاقها فقيراً، يخدم الأغنياء، أو يستجديهم فضل مالهم، ثم يموت فقيراً.

فالصلعوك في الدائرة اللغوية، هو الفقير، الذي لا مال له⁽²⁾، وقد تصلعك الرجل، إذا كان كذلك، كما يقول حاتم الطائي⁽³⁾:

فكلّا سقانا بكافيهما الدهر
عنينا زماناً بالصلعك والغنّى

أما الدائرة الاجتماعية فتنتسع، وتبعده عن نقطة البدء يبدأ الصلعوك فيها فقيراً، ثم يحاول أن يتغلب على الفقر، الذي فرضته عليه أوضاع اجتماعية، أو ظروف اقتصادية، وأن يخرج من نطاقه ليتساوی مع أفراد مجتمعه. ولكنه من أجل هذه الغاية- لا يسلك السبيل التعاوني، وإنما يدفعه " لا توافقه الاجتماعي " إلى سلوك سهل الصراع، فيتخذ من "الغزو، والإغارة، والسلب، والنهب" وسيلة يشقّ بها طريقه في الحياة، فيصطدم بمجتمعه، وتقطع الصلة بين المجتمع والصلعوك. فيتخلى مجتمعه عنه، ويُسقط عنه جنسيته القبلية، ويعيش الصلعوك خليعاً مشرداً، أو طریداً متمراً، حتى يلقى مصرعه. فأما أعداؤه فقد استراحتوا من هذا الفزع الذي كانوا يتربونه في كل حين، كما يتربّ غائباً أهله، وقد أشار عروة بن الورد إلى ذلك، في قوله⁽⁴⁾:

إذا بعدوا لا يأمنون اقترابه تشوّف أهل الغائب المنتظر⁽⁵⁾

فذلك إن يلق المنية يلْقَاه حميداً وان يستعن يوماً فأجبر

والصلعوك الذي يمثل هذه الدائرة هو الصلعوك العامل الذي يمدحه الشعراء، كما سنوضح.

فنات الصعاليك وأسباب تصعلکهم :

وكان الصعاليك ثلاث طوائف:

طائفة الخلاء والشذاذ: كانت القبائل تخلع بعضاً من أفرادها، إذا وجدت أنهم غير جديرین بالانساب إليها، ولم تسلك القبائل هذا السلوك إلا إذا اضطررت إليه اضطراراً⁽⁶⁾، ورأى أنها لم تتعذر قدرة على تحمل المسؤولية تجاه الفرد الخليع، وخاصة إذا كانت جرائره كبيرة، وتخشى أن تخوض بسببها معارك مع قبائل أخرى، لا طاقة لها بها، ويمثل هذه الفئة حاجز الأزدي، وقيس بن الحدادي، وأبو الطمحان القيني. ومعظم أولئك الخلاء اتخذوا من الصلعكة نهجاً لهم، فالنقووا بذلك مع طائفة "الأغربة"

1- د. يوسف خليف: الشعرا الصعاليك في العصر الجاهلي، ص59.

2- ابن منظور: لسان العرب، مادة "صلعك".

3- حاتم الطائي: ديوانه، ص84.

4- عروة بن الورد: ديوانه، ص69، تحقيق أسماء أبو بكر.

5- ديوان عروة. ص69. وديوان حاتم، ص112.

6- انظر الشعرا الصعاليك في العصر الجاهلي، ص90 وما بعدها.

"السود"⁽¹⁾، وهم أولئك الذين ترتفع القبائل عن إلحاقيهم ببنسبها، من جراء شائبة تعترى أصولهم، أو بسبب السواد سرى إليهم من أممأهاتهم، اللواتي غالباً ما كنّ من الإماء الحشيات، ويمثل هذه الطائفة الشنفري الأزدي، وتأبط شرّاً، والسليك بن السلكة⁽²⁾. أما الطائفة الثالثة فهي "طائفة الفقراء" الذين احترفوا الصعلكة نتيجة لعدم توازن التروات في ذلك المجتمع، مما أدى إلى وجود أغنياء متربفين وفقراء معذبين، ويمثل هذه الفئة عروة بن الورد، وصعاليك هذيل، وصعاليك فهم⁽³⁾.

لقد انتهت الأوضاع الاجتماعية والفرق الواسعة بين الطبقات في الجزيرة العربية قبل الإسلام إلى ثورة الطبقة الدنيا، وكانت هذه الثورة استجابة لإحساس طبيعي، واضح للسمات، واضح المطالب، على أن هذه الثورة، على الرغم مما صادفت في أول أمرها من نجاح ارتكتست شيئاً، بعد أن مل الناس طول الصراع في سبيل تقرير الأوضاع الجديدة التي تخضّت عنها، ولكن بقيت طائفة تتصرف نفسها حرباً على الفرق الاجتماعية الواسعة، وكانوا في ذلك يعملون فرادى بعد أن كفت الجماعات عن مظاهرتهم باليد، وإن ظلّوا يحوطونهم بالاعجاب.

ومن أجل ذلك كلّه عاشت هذه الطائفة في صراع لا ينقطع مع الجماعة الكبرى التي يعيشون بين ظهرانيهم، ولكنهم مع ذلك كانوا ينظرون إلى أنفسهم باعتبارهم أبطالاً.

أدب الصعاليك:

وأول ما يطالعنا من أدب الصعاليك موضوعاته الإنسانية، فقد كان أدبهم صورة قوية معبّرة عن المجتمع الذي كانوا يعيشون فيه، والذي كانت طبقاته تتفاوت تفاوتاً بيّناً، فكان شعرهم سلاحاً من أسلحة الصراع الطبقي، الذي كان يدور في تلك البيئة، وتتفعل به نفوسهم التي تقطّر مرارة وأسى على واقعها الأليم الذي تعيش فيه.

لقد كان الصعاليك فقراء، ولكنهم لم يكونوا عاجزين عن إدراك الغنى بالوسائل المشروعة، بيد أنّ مجتمعهم كان ظالماً لهم، فلم يهبي لهم سبل العيش الكريم، فشعرّوا بذلك الفقر شعوراً حاداً، ونقموا على المجتمع الظالم، وكانت ثورتهم اجتماعية، ينشدون من ورائها عدالة المجتمع في النظر إليهم كطائفة من الأدميين لها حقوقها الإنسانية. ولعل السبب في ذلك أن غالبية الصعاليك كانوا من العبيد، أو من أولاد الإماء الحشيات السود خاصة، مثل السليك بن السلكة، وتأبط شرّاً، وغيرهما من الذين قسا عليهم مجتمعهم، فنبذهم آباءهم ولم يلحوظ بهم وقد كان اللون الأسود عنصراً موجوداً في بعضهم، ليذكر أصحابه بعبوديتهم، فيجتمع الإحساس الحاد بذل الرق إلى الشعور

1- الأغاني: 364/20، والمزهر للسيوطى: 269/2.

2- الأغاني: 364/20.

3- د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، ص375، د. حسين عطوان: الشعراء الصعاليك، ص11-9.

العنيف بالفقر، ويشتد الإغراق في تصور ظلم المجتمع لهذه الطائفة فقد نشأ الشنفرى الأزدي مثلاً في بني سلامان بن مفرج حتى صار واحداً منهم، بل اتخذه أحد رجال القبيلة ابناً له، وفي يوم من الأيام، قال الشنفرى لابنة هذا الرجل، التي تولد الاحساس في نفسه بأنها أخت له "اغسلِي رأسي يا أخيّة" فثارت فيها عصبية الدم، وأنكرت عليه أن يكون أخاً لها، فلطمته على وجهه، وكانت هذه اللطمة بمثابة الارتداد العنيف للماضي بكل أوضاره، بل أنها جعلته يصحو من غفوة لذيدة ، ليشعر فجأة بذل مولده، وهو ان وضعي الاجتماعي. بل حاول أن يردد لنفسه بعض اعتبارها بمحاولة إقناعها بأنه لا يقل عن تلك الفتاة سموا في النسب من ناحية أبيه، أو من ناحية أمّه. ونلاحظ أنه يطلق على أمّه اسم "ابنة الأحرار" مع العلم بأنّها أمّة، فيقول⁽¹⁾:

ألا ليت شعري والتلّهف ضلّة بما ضربت كفّ الفتاة
هجينها

ولو علمت قعوس أنساب والدي ووالدها ظلت تقاصر دونها

أنا ابن خيار الحجر بيّنا ومنصبا وأمّي ابنة الأحرار لو
تعرفينها

وأبيات الشنفرى تلك هي مجرد محاولة لإقناع النفس بسمّ المثبت على الرغم من هوان المنزلة الاجتماعية.

وتتردد في أشعار الصعاليك صيحات الفقر والجوع والحرمان، وتحسّ في اعترافهم بذلك تعليلاً لثورتهم العنيفة على مجتمعهم الظالم، الذي أهزلهم وأهزل غيرهم، يقول عروة⁽²⁾:

وإني امرؤ عافي إنائي شركة
إنائك واحد

أتهزاً مني أن سمنت وأن ترى
بحسي شحوب الحقّ
والحقّ جاهد

1- الأغاني: 205/21.

2- ديوان عروة: ص61. عافي إنائك: أي يأتيني منْ يشركني فيه. الماء الفراح: الذي لا يخالطه لبن أو غيره.

أفرق جسمي في جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

فهذا القول يمثل عرضاً أولياً تلقائياً لمشكلة تعدّ من أعظم المشكلات التي تواجه الصعلوك، ومن أكبر الحواجز التي تعيق تقدّم المجتمع، فضلاً عن تعذر الاتساق والاندماج في كيانه.

فمشكلة الغذاء كانت من أبرز ما يحرّك هذه الشريحة من الشعراة الفرسان للنطّل إلى تجاوز هذا الواقع بخطوات متواصلة نحو نموذج آخر يطمحون إليه.
القيم الروحية في شعر الصعاليك:
مشكلة الحرية:

ان مشكلة الحرية في حياة الناس، كما يقول زكرياء إبراهيم: "مشكلة الوجود الإنساني في أسره"، وهي لهذا مشكلة المشاكل، وان اكتسابها لا يمكن أن يجيء إلا ثمرة لجهاد عنيف في سبيل التحرر من نير المظاهر المختلفة كالاستغلال والاستبعاد والاسترقاق، والرقيق هو إنسان حرّ، ولو كان لا يزال يرزح تحت وطأة القبود والسلسل⁽¹⁾".

والصعاليك هم جزء منبني الإنسان امتلأت نفوسهم بازدراء المجتمع لهم، وهضم حقوقهم الذاتية والقيمية والاجتماعية.
الصبر:

تنخذ ظاهرة الصبر عند الصعاليك أنماطاً متعددة: منها ما يسير في طريق المقاومة والتحدي، ومنها ما يتسامى على مطالب الجسد، ومنها ما يتعلق بمواجهة مظاهر الطبيعة، ومنها ما يتصل بمصالولة الحياة البشرية.

أهداف ثورتهم:
وما دمنا قد عرفنا دوافع ثورة الصعاليك على مجتمعهم، وشهدنا في أشعارهم أصواء الصراع الطبقي الذي خاصصوه، يحق لنا أن نتسائل: إلى أين كانت تتجه آمال الصعاليك في ثورتهم؟ وما أهدافها؟ هل كانوا يريدون الإطاحة بالمجتمع انتقاماً لأنفسهم؟ أم تراهم لا يعرفون إلى أين يتوجهون؟

من الباحثين من رأهم خارجين على قوانين القبيلة، وأعمالهم داخلة في نطاق الجرائم المعاقب عليها، فهم شذاذ خارجون على الجماعة، وإن أحيطوا أحياناً بهالة من البطولة⁽²⁾.

ومنهم من رأى أنهم لم يصدروا عن رؤية فكرية واضحة، ولم ينطلقوا وراء هدف محدد⁽³⁾.

1- د. زكرياء إبراهيم: مشكلة الحرية، ص.60.

2- د. نجيب محمد البهتي: البيئة التي نشأ فيها الشعر الجاهلي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، العدد 14، ج 1، ص.111.

3- عبد الغني زيتوني : الإنسان في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراة، جامعة دمشق، ص166.

ومنهم من رأى أنهم أضاعوا أهدافهم النبيلة أمام سرعة الغضب، فانقلبوا إلى لصوص، ابتعدوا قليلاً أو كثيراً عن غاياتهم الإنسانية السامية⁽¹⁾.
والحق أن المتأمل في أدب الصعاليك يرى أنهم كانوا في ثورتهم على مجتمعهم يهذبون إلى الإصلاح⁽²⁾، وينشدون المساواة والعدالة الاجتماعية. فالصالعاليك لم يهاجموا القوافل، أو يعيروا على القبائل لرغبتهم في الإغارة ذاتها، ولا ليفيدوا غنى وثروة وجاهاؤ يرفع من مقامهم في المجتمع الارستقراطي الذي يعيشون فيه، بل نراهم على النقيض من ذلك تماماً، يأخذون من الأغنياء ليعطوا الفقراء، ولم تَرَ واحداً منهم يصيب الغنى قط، أو كانت الثروة هدفاً له. بل ظلوا جميعاً فقراء على الرغم من كثرة مغانهم وأسلابهم من إغاراتهم. وذلك بسبب إياحتهم ما في أيديهم لأمثالهم من الفقراء.

1- مجلة المورد العراقية: المجلد الرابع، الجزء الثاني، ص60.
2- د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي، ص52.



الفصل التاسع:

البناء الفنّي للقصيدة الجاهليّة

القصيدة التي ورثناها عن العصر الشعري الجاهلي نهاية ناضجة لمحاولات أوليّة سبقتها، وأدّت إليها. وأن هذا النموذج الشعري ظل طوال العصر صورة مرتبطة برسوم وتقاليد فنية تحكم في أكثر القصائد التي استحقت الديوّع والانتشار فيما بعد، وإن تلك الرسوم غدت تقليداً لا يكاد شاعر جاهلي يتخلّى عنها إلا لضرورة فنية، أو موضوعية.

ولقد ظلّ هذا النمط الشعري بصياغاته وتراتيبه التي تداولها الشعراء مثار حيرة حقيقة سواء في فهم البواعت وتحليل الطواهر، أم في إدراك الصّلات الفنية التي تحكم في أقسامه، وتوجهها عبر البناء الشعري للقصيدة.

وقدّيماً أراد ابن قتيبة أن يحسم الأمر، فنُقل عن بعض أهل الأدب أنّ مقصد القصيدة إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدّمن والآثار، فبكى وشكّا، وخطاب الربع واستوقف الرّفيق، ليجعل ذلك سبباً لذكر أهلهما الظاعنين عنها، إذ كان نازلة العمد في الحال والظعن على خلاف ما عليه نازلة المدر، لأنّتقالهم من ماء إلى ماء، وانتجاعهم الكلا، وتتبعهم مساقط الغيث حيث كان، ثم وصل ذلك بالنسبيّ، فشكّا شدة الوجد، وألم الفراق، وفرط الصّبابة والشّوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجه، ويستدعي به إصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النّفوس، لأنّط بالقلوب، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزل.... فإذا علم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه، والاستماع له، عقب بايجاب الحقوق، فرحل في شعره، وشكّا النصب والشهر، وسرى الليل وحرّ الهجير، وإنضاء الراحلة والبعير، فإذا علم أنه قد أوجب على صاحبه حقّ الرجال، وذمامة التأمّل، وقرر عنده ما ناله من المكاره في السير، بدأ في المديح.....⁽¹⁾.

سواء أكان هذا الرأي الذي أورده ابن قتيبة يمثل خلاصة رأيه الشخصي، أم يمثل رأياً تبنّاه بعد أن سمعه من غيره، فإنه يكتسب أهمية من ناحيتين:

1- أنه نظر إلى القصيدة نظرة شاملة، وسعى إلى تفسير بنائها.

2- لم يَر في موضوعات القصيدة من طلل، ونسبيّ، ورحلة، وغرض موضوعات منفصلة متباudeة ، بل رأى فيها نوعاً من الترابط ، يمكن أن يطلق عليه "الوحدة الفنية" وإن لم تقلح تلك الروابط التي افتعلها بين أجزاء القصيدة في إظهار نوع من الوحدة، يمكن أن يسوّغ اعتبار القصيدة عملاً متكاملاً.

ويبدو أنّ هذا المذهب في فهم تطور العمل داخل أقسام القصيدة كان يمثل خلاصة اتجاه استقرائي أقرّه القدامي ، وتداولوه دون إثارة اعترافاتٍ جادةً عليه⁽²⁾.

أما المحدثون من الباحثين فقد أثاروا جملة مناقشات في محاولات جديدة لفهم بواعت الظاهرة، وتفسير أبعادها، فأشاروا إلى قصور استقصاء نص ابن قتيبة

1- ابن قتيبة: الشعر والشعراء 20/1

2- الوساطة ص48، الصناعتين ص451، العمدة 1/225.

للنماذج⁽¹⁾، وخفّة أثر تحليله النفسي لانفعال الشاعر ذاته⁽²⁾، واختلفوا بعد ذلك في اتجاهاتهم لتقسيير أبعاد النمط الشائع للقصيدة الجاهلية وبواعثه، فأشار بعضهم إلى النماذج التراثية التي استهوت الشعراء عبر العصر كله⁽³⁾، وتمسّك فريق آخر بالإشارة إلى أثر استقرار الظرف البيئي في استقرار النمط⁽⁴⁾.

وذهب فريق ثالث مذاهب تحليلية نفسية⁽⁵⁾، غلا بعض أصحابها حتى كاد الشاعر الجاهلي يبدو في تقسييرهم مفكراً وجودياً معاصرأ⁽⁶⁾. على أن من الباحثين من بني تحليله على استقراء واقع الشاعر الجاهلي. فقرر أن النموذج الشعري ظلّ موزعاً بين ذات الشاعر التي تحتلّ انفعالاتها لوحات المدخل وبين الواجبات القبلية التي تشغّل الغرض الرئيس من النموذج عادة، وانتهى من ذلك إلى أن القصيدة الجاهلية قسمان: ذاتيٍّ وغيريٍّ. وأن هذا النمط هو الذي شغل الدواوين عبر العصر كله⁽⁷⁾.

ونحن لا نريد أن نفتح باباً لمناقشة هذه الآراء، ولكننا نزعم أن تقسيير ابن قتيبة يظلّ ممثلاً لأول محاولة علمية لهم نمط القصيدة العربية، وتحليل بواعثه. أما فصور الاستقصاء فيه فإنه لا يغضّ من قيمة تحليله للعلاقة بين الشاعر، وببيته، وجمهوره عبر قدرته الإبداعية على تهيئه الجو النفسي الملائم للغرض الرئيس من قصيدة المدح. أما مذاهب المحدثين فإنّ أغلبها يمثل اجتهادات منطقة من وجهات نظر افتراضية، ظلّ فيض الشعر الجاهلي قادرًا على مدها بالشاهد الملائم على اختلاف اتجاهاتها وتباينها.

والذي نراه أنّ أهم خطوة لفهم نمط القصيدة الجاهلية تكمّن أولًا في النظر إليها على أنها تمثل وحدة عضوية، لا ينبغي التورّط في فصل مدخلها عن غرضها، ولا النظر إليها على أنها مجموعة أغراض، يربطـ أو لا يربطـ بينها جسور لفظية اصطنعت لأداء مهمة شكليـة.

لقد كان الشاعر الجاهلي خلال عمله الإبداعي مشدوداً إلى إطار نفسي يحدّد طبيعة تطور القصيدة كلها ونمائها بغض النظر عن اختلاف التفاصيل، وتعدد وجوه القول داخل كلّ قسم من أقسام الإطار الموروث ،الذي لا تمثل صيغه وموضوعاته في نظرنا غير مستلزمات فنية، كانت لها بواعثها البيئية القديمة في أولية الشعر، ثم غدت

1- وحدة الموضوع في الشعر العربي ص170-178.

2- انظر ملخص اعتراض المستشرق فالتر براونه، والدكتور عز الدين إسماعيل في مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي ص216-223.

3- انظر : تاريخ الأدب العربي (بلاشير) 234/2، أدباء العرب في الجاهلية وصدر الإسلام، ص42. فراغة ثانية لشعرنا القديم ص54، رمز المرأة في أدب أيام العرب ص75.

4- الشعر العربي بين الجمود والتطور، 28، 29.

5- فراغة ثانية لشعرنا القديم، ص55-56.

6- انظر ملخص مقالة المستشرق فالتر براونه الموسومة بـ "الوجودية في الجاهلية" في مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي، 216-218. وانظر ردّ د. محمد التويهي عليها في كتابه "الشعر الجاهلي" 150/1.

7- د. يوسف خليف: دراسات في الشعر الجاهلي ص105 وما بعدها.

نمطاً فنياً، وصنيعاً يألفها الذوق الجاهلي ويقبلها. ولهذا اتخذها الشعراء منفذًا للتعبير عن الذات في صراعها مع الحياة المضطربة، ثمّ هيأوا منها منطلقاً نفسياً ملائماً للدخول في تفاصيل الغرض.

لقد تحدّت صيغ مدخل القصيدة الجاهلية الموروثة عبر ثلات مراحل متلازمة:

الأولى- الافتتاح الذي يعالج فنون الطلل ،والظعن ، والنسيب ، والخمر ، والشيب والشكوى ، وما إلى ذلك من صور، ظلت البيئة الجاهلية تغذيها وتمدها بالتفاصيل المتتجدة، وظل الشاعر يتذمّر منفذًا تعبيرياً لحديث النفس في تأملها للماضي وأحلامه الصائعة.

الثانية- الرحلة:

وقد تختلف وجهات نظر المحدثين بعد ذلك في طبيعة الدوافع النفسية والفنية لانقال الشاعر من حديث الطلل والمرأة إلى حديث الرحلة التي تشخص الناقة فيها عنصراً مشاركاً للشاعر في خوض رحلة أسطورية تحفها المخاطر، ويكتفها المجهول. والناقة هي وسيلة الشاعر وأداته التي يستعين بها على بلوغ الهدف من موقف الصراع، ولهذا فإنه يفرغ لوصفها، الذي يستمدّ عمقه من تحفّزه الذاتي، واستعداده الفني لمتابعة تفاصيل مظهرها الذي طال تأمله له، وامتزجت له في نفسه عوامل الألفة والإعجاب والمنفعة⁽¹⁾.

ولقد ظلّ الشاعر الجاهلي يتبع هذه التفاصيل التقليدية، ويحاول أن يضيف إليها جديداً. وليس معنى الجديد هنا أن الناقة كانت تكتسب أوضاعاً مادية جديدة، وإنما كان استشراف الشاعر هو الذي يقرر الأبعاد المتتجدة لتفاصيل مظهر وسليته الخاصة في صراعه مع واقعه اليومي⁽²⁾.

أما انتهاء تفاصيل مشهد الناقة إلى تشبيهها بثور الوحش، أو حمار الوحش، أو الظليم، فإنه قد يستقطب قناعة ساذجة برغبة الشاعر في تشخيص سرعة ناقته فحسب، بيد أن الأمر يظلّ أعمق من هذا التصور في الاستيعاب والتعبير، فقصص الوحش تمثل من الناحية الفنية آثاراً لجهد واع، ومتابعة متأنية بتحول مجرى التشبيه خلالهما إلى عنابة خالصة بالمشبه، حتى يخيلُ إليك أن التشبيه مجرد جسر للصورة التي يفرغ الشاعر لمتابعتها في هذه القصص المنتشرة في الدواوين الجاهلية بشكل لافت للنظر.

ويبرز مشهد الحمار تعبيراً عن صور صراع متميزة تتخذ مجرها عبر أداء فنيٍ للتفاصيل التقليدية، فتبعد الخضراء الريبيعة والمياه التي يردها الحمار وأناته (أو أنته) أول المشهد تشخيصاً حيّاً لمرحلة ما قبل الصراع التي تتمثل في حياة الشاعر نفسه

1- الطبيعة في الشعر الجاهلي 96-97. وأغاني الطبيعة في الشعر الجاهلي: 85-86.

2- تتجه الأوصاف والتفاصيل إلى التركيز على ضخامة الناقة وشدة وصلابتها وسرعتها. فمن أوصاف الضخامة والصلابة التي ترد في الدواوين: أمون ـ موئنة الخلق، جسرة (التي تجسر على الأهوال)، جلنية (شديدة)، حرف (قوية صلبة)، عنتريس (شديدة جريئة)، غيرانة (تشبه الحمار في الصلابة)، وجنا (من الوجين، وهو الخجارة). ومن صفات السرعة: ذعلبة، ذمول، عذافرة، مرروح.....

استقراراً وسكنأً إلى مجرى حياته مع الذين تربطه بهم وشائع وجوده الاجتماعي. ولكن الموارد لا تثبت أن تجفّ، وتغدو الخضرة هشيمأً وعندئذ يواجه الحمار تحدي البحث عن مورد جديد، وتفق الأتن منتظرة، حتى ينجلِي الموقف عن ذكره عينأً نائية يصبح الرحيل إليها رمزاً للبحث عن الاطمئنان المفقود.

وتتدفق مشاهد الرحيل لتمثل صراع الحمار مع أنته النافرة، وهو يزجيها إلى هدفه، حتى إذا لاح له الماء أقبل ملهوفاً ليلاقي أكاري فيه، بعد أن تحقق الحلم بالوصول، ولكنه ما يكاد يطمئن إلى موضعه حتى ينبري له القدر في هياء صياد جائع يرسل سهماً ينذر بخطر الموت. وهنا يفزع هو وأنته إلى نجاء مجدّلاً هوادة فيه، ويكون الشاعر عند ذلك قد استوفى صور تجدد صراع الإنسان الذي لا ينتهي إلى غاية، حتى يرغمه القمر على رحيل جديد.

أما مشهد الثور فإنه يقدم صيغة فنية قد توافق صيغة الحمار من حيث قدرتها على تصوير مراحل الصراع المتعدد، ولكنها تختلفا في طبيعة التفاصيل المؤدية إلى منح المشهد مناخاً نفسياً متميزاً. فالثور يواجه صراعه منفرداً لا يقف إلى جانبه من يلوذ به، أو يحتاج إلى حمايته، وبذلك يتوجه المشهد إلى منح الشاعر فرصة الإيحاء بموافقت الصراع ذات الطابع الفردي⁽¹⁾.

ويتمثل مشهد الصراع الأول في مواجهة الثور لأهواه ليلة يشتد فيها المطر والريح وهي بداية مبادنة لما يقدمه مشهد الحمار الذي تمثلت مأساته في نضوب الماء، ولهذا فإن المشهد يتوجه إلى صورة ثور، وهو يجاهد ليحتقر لنفسه مبيتاً إلى حقف أرطة تقيه أهواه العاقفة والمطر، ولكنه ما يكاد يطمئن إلى س肯ه حتى يصبهـه الفجر بذير الموت متمثلاً في أصوات كلاب صيد مقبلة، وعندئذ يفزع إلى قوائمه يستمد منها العزم على الهرب، ولكن الكلاب تتکاثر عليه، وتنهش لحمه، فيضطر إلى أن يكرّ عليها مستخدماً قرنـه في معركة فرضها قدره عليه، وهـيا له فيها وسائل النصر، فيصرع هذا ويجرح ذاك، وتراجع الكلاب السليمة أنفسها ، وترى أن اليأس أولـي بها، وترجع إلى مولاها دون غنيمة. أما الثور فإنه يولي هارباً نحو المجهول، مخلفاً وراءه عموداً من النقع.

والشاعر الجاهلي عامـة، خلال ذلك كـله يطرح صورة الصراع الإنساني المتميز بالدور الفردي، ويأبـي إلا أن يكون ثوره منتصراً - وقد يكون الـهـالـكـ في شـعـرـ الـهـذـلـيـنـ -

1- اهتم الدارسون بقصة الثور الوحشي، ففهمـهمـ من رأـيـ فيـ قـصـةـ ذـكـ الثـورـ ضـربـاـ منـ التـفـسـيرـ التـحـلـيليـ القـائمـ عـلـىـ رـبـطـ بـعـضـ تـفـاصـيلـهـ بـاثـارـ مـيـتوـلـوجـيـةـ.ـ انـظـرـ :

- د. علي البطل: الصورة في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني.
- د. نصرة عبد الرحمن: الصورة الفنية في الشعر الجاهلي، ص.77.
- د. عبد الجبار المطابي: موقف في الأدب والنقد، ص63 وما بعدها.
- د. عادل جاسم البياتي: أيام العرب، 202/1.

ومن الدارسين من رأـيـ قـصـةـ رـمـزيـةـ، وـرـاحـ بـيـحـثـ عـمـاـ تـرـمـزـ إـلـيـهـ.ـ انـظـرـ : - وهـبـ روـمـيـةـ: الرـحـلـةـ فيـ القـصـيـدةـ الجـاهـلـيـةـ، ص204.

- نـجيبـ الـبـهـيـتـيـ: تاريخـ الشـعـرـ العـرـبـيـ حتـىـ آخرـ القرـنـ الثـالـثـ.ـ ص96.

ليكون في هذا الانتصار انتصاراً لفردية الشاعر على أعدائه بمنأى عن القبيلة، مخففاً بهذا من قيود الالتزام القبلي.

وقد ينفتح الشاعر في لوحة الرحلة على تشبّه استطرادي⁽¹⁾، فيشبّه ناقته بظليم، ينفّق الحنظل والخطبان في مرعى ناءٍ خصيب، وفجأة يتذكّر بيضه بعد أن هيّجه يوم ملبد بالغيموم، فيسرع بالعودة إلى بيته، ويترزّد في سرعته ليدرك أحديه قبل أن يُفسد المطر والبرد بيضه. وينجح في الوصول إلى بيته قبل أن يتم اختفاء قرص الشمس في غروبها وراء الأفق، ثم يطوف بالبيت مرتين يتقرّس في الأرض المحيطة به، ليمرّى هل بها أثر لدخول اقتحّم بيته في غيابه. فإذا ما اطمأن إلى أن لا خطر يختئ له في بيته دخله مشتكاً متلهفاً وتهالك على بيضاته المركمومة، وأوى إليه أفراخه الصغار الضعاف، وأخذ ينaggi زوجته السعيدة بعودته، وتتجاهله في انفعال شديد.

ذلك هي حدود أطر لوحة الرحلة التقليدية، وهي حدود ظلت تتبع للشاعر فرص انتقاء تستمد اتجاهها من طبيعة تركيبه النفسي وقدرته الفنية، ومدى عمق وجوه الصراع الفردي والاجتماعي الذي يخوضه، على أن طبيعة المناخ الموضوعي للتجربة الآتية التي يتجه الشاعر إلى معالجة آثارها في لوحة الغرض قد تحكم في الانتقاء وفي تناول التفاصيل، حتى أن النهاية التقليدية المرسومة لنجاها الحيوان من قبضة الصياد تتخذ اتجاهًا نقضاً في قصيدة الرثاء التي بنتها المشهد فيها بسقوط الحيوان تمهدًا لمعالجة مشكلة الموت، التي تمثل نهاية الصراع الإنساني⁽²⁾.

ويشير الاستقراء إلى أن النموذج الفقي لم يخضع لالتزام مطلق بتقاليد لوحة الرحلة التي حددنا أبعادها التراثية الكاملة، فقد رأينا أن ثمة نماذج يتخلّى أصحابها عن لوحة الرحلة كلّها، ويكتفون بلوحات الافتتاح على الغرض بشكل مباشر يوحّي بظرف قول لا يعني معه الشاعر بتشخيص صور الصراع الإنساني بداع من عوامل نفسية أو فنية تتعلق بحالة الشاعر، أو الغرض الرئيس. فضلاً عن احتمال ضياع بعض اللوحات.

لوحة الغرض:

يبدو أن طبيعة النظام الجاهلي الذي تحكم في إذابة الشخصية الفردية في كيان القبيلة الاجتماعي أدى إلى أن تصبح التجربة القبلية مدار أغراض الشعر وفنونه بوجه عام، ومن هنا صَحَّ أن يقال: إن الشعر كان سجل الحياة الاجتماعية وتاريخها الإنساني، على أن ذلك كله لا ينبغي أن يؤدي إلى الأخذ بالنصوص الشعرية على أنها مسلمات تاريخية خالصة، ذلك أن مهمة الشاعر تظل مختلفة عن مهمة المؤرخ من حيث الأساس⁽³⁾.

ونحن لا نذكر أنّ ثمة قوانين ومعايير اجتماعية ظلت تحكم في حياة المجتمع الجاهلي، وتحدد تقاليده ومثله العليا، وإن الشعر ظل مقيداً بتلك القوانين والمعايير، في شتى وجوه القول، ولكننا نزعم أن الشاعر رغم قيوده الاجتماعية الصارمة ظل يمثل

1- انظر: محمد النوبهني: الشعر الجاهلي 1/345 وما بعدها.

2- وهب رومية: الرحلة في القصيدة الجاهلية 355.

3- انظر ديوان الهنلينين: ج 1 ص 4، 10، 15، 183. ج 2 ص 111 و 117.

د. أحمد كمال زكي: الشعر والتاريخ، مقالة، مصر، 1969.

طموح العبرية إلى التغيير من خلال الموازنة الوعائية بين صدى الواقع المفروض وبين الصورة المثلثي لآفاق المستقبل الذي يحدده التأمل والاستشراف الذاتي.

من هذا المنطلق ينبغي أن نمضي في دراستنا لأغراض القصيدة الجاهلية التي ظلت مسخة للتعبير عن آثار هذه التجارب المقيدة بطبيعة الالتزام القبلي، والمهيبة لقبول صور استشراف الشاعر الذاتي من جهة أخرى. على أن ذلك كله ينبغي الآليقوننا إلى الغضّ من قيمة التجارب الفردية التي ظلت تجد طريقها إلى عدد لا يستهان به من النماذج الجاهلية الموروثة⁽¹⁾.

لقد تحددت أغراض القصيدة الجاهلية منذ بداية العصر. واستقرت على نمط ظل يتحكم في النماذج الفنية، فكان المديح والرثاء والهجاء والفخر والتهديد وما إلى ذلك من أغراض، ميادين تعبر عن آثار هذه الحياة القاسية المضطربة بمتناها العليا، وقوانينها الاجتماعية الصارمة من جهة وعن طبيعة حياة الشاعر ونمط تجاربه الاجتماعية والذاتية من جهة أخرى.

لقد تحكم العرف في طبيعة معالجة كل غرض من أغراض النموذج الجاهلي، وفي توجيهه تفاصيله أحياناً، فكانت قصيدة المديح ميدان التعبير عن الإعجاب الاجتماعي بصور الفضائل التي تبهر النفس، وتدفعها إلى تخليد المأثر المقيدة بالمثل العليا القائمة على تقدير سمات القوة والكرم والشجاعة، وحفظ العهد، وحماية الجار، ورعاية الضعيف.... ومن هنا تشابهت مجريات نماذج المديح.

ويبدو أن الدافع القبلي ظل مداراً أصيلاً لنماذج المديح خلال العصر كله. على أن بروز المنفعة الذاتية في بعض النماذج ينبغي الآليغريينا بتفسير جديد. أما قصيدة الرثاء الجاهلية فقد ظلت موزعة بين اتجاهين يبدو أحدهماً امتداداً لقصيدة المديح. وأما الآخر فقد تمثل في ضرب من النواح⁽²⁾. على أن الاتجاهين قد يمتزجان في النموذج الواحد، لا سيما إذا ربطت الشاعر بالمرثي صلة اجتماعية قريبة⁽³⁾.

أما النماذج التي رثى الشعراً بها أنفسهم فقد بدت في أكثر الأحيان موزعة بين اتجاه النواح وبين مجرى الفروسية القائم على إبراز المزايا الذاتية⁽⁴⁾.

أما نموذج الهجاء فقد أشار إلى عمق استخدام الصورة الهجائية في الأمور القبلية والاجتماعية، حتى بدا أن بواعتها لا تختلف كثيراً عن بواعث قصيدة المديح من حيث الأساس، وأن ناقضتها في اتجاهها إلى تجريد الخصم من الحد الأدنى للمثل العليا والقيم الاجتماعية الإنسانية.

1- تشير بعض الحقائق إلى أن الحياة الجاهلية لم تخلُ من محاولات الاستقلال بالذات والتخلص من هذا الذوبان الكلّي في كيان القبيلة، وهذا ما يبدو جلياً عند الشعراء الصعياليك.

2- وهذا ما كانت تتولاّه النساء.

3- انظر نماذج من هذا النمط في ديوان كل من: بشر بن أبي خازم ص123 و151، 174. النابغة الذبياني، ص211، لبيد بن ربيعة، ص156، 158، 164.

4- انظر في ديوان كل من: المتنمس، ص256، وأفون التغلبي، المفضليات ص260، عبد يغوث بن وفاص الحارثي: المفضليات، ص155، وعدي بن زيد، ص96، وفيس بن الخطيم، ص148.

وقد يشير استقراء الدواوين الجاهلية إلى أن الاختصار والتخلّي عن التمهيد الفني هو الطابع الغالب على قصائد الهاجاء⁽¹⁾، وتلك ظاهرة ينبغي أن نتلمّس بواعتها في طبيعة الدوافع النفسية التي تتمثل عادة في فورة غضب سريعة الانقضاض لا تستدعي تأملاً ذاتياً إلا في حالات نادرة، قد تبدو واضحة في بعض النقائض التي تبادلها بعض الشعراة في مرحلة متأخرة من العصر الجاهلي⁽²⁾.

وينطلق نموذج الفخر من القيم والمعايير التي تتطاول منها نماذج المديح عادة، إلا أن الاتجاه الفني في نموذج الفخر يبقى متميّزاً بإخضاع تفاصيله لاستشراف المثل العليا في ذات الشاعر الفردية أو القبلية.

1- ابن قتيبة: الشعر والشعراء 1/76. ابن رشيق: العمدة: 157/2.

2- انظر القصيدة التي ترد في ديوان قيس بن الخطيم ص24، ونقِيضتها في ديوان حسان بن ثابت 25/1

وحدة الجو النفسي في القصيدة الجاهلية

يحس بنا أن نحدّد بُداعه المعنى المقصود بـ "وحدة القصيدة"، لأن هذا المصطلح ليس موضع اتفاق عند الباحثين، لذا جاءت أحكامهم على وحدة القصيدة الجاهلية متباعدة⁽¹⁾، لأنهم يخلطون بين مصطلحات مختلفة، مما دفع مُحمداً النويهي إلى القول : إنَّ الكثرين لا يفهمون المقصود، ففيظنُّون أنَّ مدلولها -وحدة القصيدة- هو اقتصار القصيدة على تجربة واحدة، أو عاطفة واحدة، ولكن الوحدة المطلوبة لا تحجز الشاعر عن تعدد التجارب والعواطف في قصidته، إنما يشترط أن تكون جميعها متجانسة المغزى هادفة بتعدها إلى استجلاء وحدة في الوجود، أو في موقف النفس البشرية منه⁽²⁾.

فمعنى وحدة القصيدة "أن يكون بين موضوعاتها انسجام في العاطفة المسيطرة والشاعر يحقق هذه الوحدة في بنائه لقصيدته بأن يرتب موضوعاته ترتيباً يقوم على النمو المطرد، بحيث ينشأ أحدهما عن سابقه نشوءاً عضوياً مقعنأً، ويقود إلى لاحقه بنفس الطريقة، وبحيث تتكامل أجزاء القصيدة في توضيح عاطفتها المسيطرة، واتجاهها المركزي، حتى إذاقرأنا القصيدة ازدادنا بالتدريج دخولاً في عاطفتها، وبصراً باتجاهها"⁽³⁾.

وقد لحظ هذا الرابط، أيضاً، د. طه حسين، في أثناء حديثه عن معلقة لبيد، وقال: "إنها بناء متقنٌ مُحكم، لا تستطيع أنْ تقدم فيه وتؤخر، أو تضع بيته مكان بيت دون أن تفسد القصيدة ، وتشوه جمالها، ودون أن تفسد البناء كله وتتقشه نقضها"⁽⁴⁾.

فوحدة القصيدة تتحقق من خلال الجو النفسي العام⁽⁵⁾، الذي يشدّ أجزاء القصيدة بعضها ببعض، وأنَّ هذه الوحدة "لا تثبتُ بالقراءة المتuelleة والنظرية الخاطفة، فهي ظاهرة خفية يحتاج إدراكها واستيعابها وشرحها وتفسيرها إلى دراسة متأنية للقصائد، ومعرفةٍ كافية بالأحوال المؤثرة فيها، والأهداف المتواحة منها"⁽⁶⁾.

وقد أحسن طه حسين هذه الوحدة في القصيدة الطويلة، وقال⁽⁷⁾: إنها وحدة متقدة متممة إنماً لا شاكَّ فيه ولا غبار عليه. وقال: إن أجزاء القصيدة جاءت ملائمة الأجزاء، قد نسقت أحسن تنسيق وأجمله وأشدّ ملائمة للموسيقى، وعزّا الخلل والتفكك والانقطاع في بعض القصائد إلى قصور ذاكرة الرواة.

1- د. شوفي ضيف: العصر الجاهلي، 224. يحيى الجبوري: الشعر الجاهلي 268-267.

2- د. محمد النويهي: الشعر الجاهلي: 2/ 442.

3- نفسه: 436/2.

4- د. طه حسين: حديث الأربعاء: 30/1.

5- أسماءها النويهي الوحدة الحيوية، الشعر الجاهلي 2/ 435. وأسماءها فؤاد أفرام البستانى الوحدة الشعورية، الروائع ص30. انظر ناصر الدين الأسد: الشعر الحديث في فلسطين والأردن: 129. وسمها صلاح عبد الحافظ "الوحدة الزمانية". انظر : كتابه الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره : 6/2.

6- د. حسين عطوان: مقالات في الشعر ونقده، ص11.

7- طه حسين حديث الأربعاء، 30، 1، 30.

وقد أحسّ بهذا الرابط، أيضاً، المستشرق جوستاف جرينباوم، فقال⁽¹⁾: "إن هناك نوعاً من رابطة نفسية بين الفرز الاستطرادي من موضوع إلى موضوع بين هذه الانتقالات العاجلة من حال إلى حال، ومن انتباه إلى آخر".

والشاعر عند نظمه لقصيدة ما تراوده فكرتها الأساسية التي عاشت في مخيلته، وهو يعاني التجربة التي صدر عنها، فيتفاعل معها، ويهتز لها، ويتفتق لسانه بها، فيرتلها لحناً شعرياً خالداً، متلائماً بالخيال⁽²⁾، ليثير في المتألق ما ثار في نفسه ساعة نظمها. وقد يفتح القصيدة بلوحة الطلل، أو الغزل، أو الشيب، ثم ينفتح على لوحة الرحلة، ومنها ينفتح على لوحة الغرض.

والقصيدة الجاهلية بلوحاتها المختلفةـ التي تحدثنا عنهاـ أشبه ما تكون بالعقد الذي يتتألف من مجموعة من الجوادر الثمينة ذات الألوان المختلفةـ التي ينظمها خيط واحدـ، تسلّك فيهـ، وهذا الخيط الذي تسلّك فيه أجزاء القصيدة الجاهلية هو الخيط العاطفي الذي يشدّ تلك الأجزاء بعضها ببعضـ.

وتبدو الوحدة النفسية واضحة جليةً في كثير من القصائد الجاهليةـ.

تحامل المحدثين على القصيدة القديمة:

إن القول بضعف هندسة القصيدة العربية القديمة، وخلوها خلوأً تماماً من الوحدة العضوية أضحي في حاجة إلى تعديل وتصحيحـ. ومن العجيبـ أن أصحاب هذه الأحكام أنفسهمـ لا يدركون معنى الوحدة جيداً⁽³⁾ـ.

وليس بصحيحـ ما قاله نزار قبانيـ: "إن القصيدة العربية ليس لها مخططـ، والشاعر العربي هو صياد مصادفات من الطراز الأولـ، فهو ينتقل من وصف سيفه إلى ثغر حبيبهـ، ويقفـ من سرج حصانه إلى حصن الخليفة بخفة بهلوانـ، وما دامت القافية مواتيةـ والمتنبر مريحاًـ، فكلـ موضوعـ هوـ موضوعـهـ، وكلـ ميدانـ هوـ فارسهـ⁽⁴⁾ـ. ويقولـ أيضاًـ: "إنـ القصيدة التقليديةـ كماـ ورثـناـهاـ بأـغـراضـهاـ المعـروـفةـ، وأـبـياتـهاـ الـمـلـتصـقةـ صـفـيـاًـ كـقـطـعـ الـفـسـيـفـسـاءـ، هيـ إـلـىـ الزـخـرـفـ وـالـنـفـشـ أـقـرـبـ مـنـهاـ إـلـىـ الـعـلـمـ الـأـدـبـيـ الـمـتـمـاسـكـ الـمـلـتـحـمـ كـقطـعةـ النـسـيجـ، كـمـاـ أـنـ أـسـلـوبـ بـنـائـهاـ يـشـبـهـ بـنـاءـ الـفـلـاعـ فـيـ الـقـرـونـ الـوـسـطـىـ ...ـ القـصـيـدةـ التـقـلـيـدـيـةـ لـوـنـ مـنـ (ـالـرـيـبـورـتـاجـ)ـ السـرـيعـ يـجـمـعـ فـيـةـ الشـاعـرـ كـلـ مـاـ يـخـطـرـ بـبـالـهـ مـنـ شـؤـونـ الـحـبـ وـالـحـيـاةـ وـالـمـوـتـ وـالـسـيـاسـةـ وـالـحـكـمـةـ الـأـخـلـاقـ وـالـدـيـنـ ...ـ القـصـيـدةـ التـقـلـيـدـيـةـ مـجـمـوعـةـ أـحـجـارـ مـلـوـنـةـ مـرـمـيـةـ عـلـىـ بـسـاطـ تـسـتـطـيـعـ أـنـ تـرـحـزـ أـيـ حـجـرـ مـنـهاـ إـلـىـ أـيـةـ جـهـةـ تـرـيدـ، وـمـعـ ذـلـكـ تـبـقـيـ الـأـحـجـارـ أـحـجـارـاـ وـالـقـصـيـدةـ قـصـيـدةـ⁽⁵⁾ـ.

وإذا كان نزار قد هاجمـ القـصـيـدةـ الـقـدـيمـةـ عـامـةـ، فإنـ شـوـقـيـ ضـيـفـ قدـ شـنـ حـرـباـ عـنـيفـةـ عـلـىـ الـقـصـيـدةـ الـجـاهـلـيـةـ تحـدـيدـاـ، فـرأـهاـ⁽⁶⁾ـ "ـتـجـمـعـ طـائـفةـ مـنـ الـمـوـضـوـعـاتـ وـالـعـواـطـفـ لـاـ تـظـهـرـ بـيـنـهـاـ صـلـةـ وـلـاـ رـابـطـةـ وـاضـحـةـ، وـكـانـهـاـ مـجـمـوعـةـ مـنـ الـخـواـطـرـ يـجـمـعـ

1- جوستاف جرينباوم: دراسات في الأدب العربي، ترجمة إحسان عباس، ص.42.

2- د. نوري حمودي الفيسي: وحدة الموضوع في القصيدة الجاهلية، ص.6-7.

3- د. يوسف بكار: بناء القصيدة في النقد العربي القديم، 280 وما بعدها.

4- نزار قباني: الشعر قنديل أخضر، 23.

5- المرجع السابق : 32-31.

6- د. شوقي ضيف: العصر الجاهلي، 224.

بينها الوزن والقافية، وتلك هي روابطها ، أما بعد ذلك فهي مفككة لأن صاحبها لا يطيل المكث عند عاطفة بعينها ، أو عند موضوع بعينه ... ما أشبه القصيدة عندهم (الجاهليين) بفضائهم الواسع الذي يضمّ أشياء متباude لا تلائق، فهذا الفضاء الرّحبُ الطليق المترامي من حولهم في غير حدود هو الذي أملى عليهم صورة قصيدهم فتوالت الموضوعات فيها جنباً إلى جنب بدون نسق ولا نظام ولا محاولة لتوجيه فكري"

ومن الغريب حقاً أن يكون في المعاصرين من يخلط في هذه القضية، ويحاول أن ينكر حتى وجود وحدة الموضوع في الشعر العربي القديم، يقول محمد مندور¹: "والناظر في الشعر العربي القديم لا يلبث أن يلاحظ أنَّ وحدة القصيدة العربية لم تكن تمثل إلاً في اتحاد الوزن والقافية. وأما الغرض فقلما نراه موحداً في القصيدة العربية القديمة ... وهكذا تكونت القصيدة العربية ذات الأغراض المتباينة المتتابعة، وأصبحت هذه الظاهرة تقليداً شعرياً ثابتاً عند العرب".

وأما وحدة الموضوع في الشعر العربي القديم فهي واضحة في شعرنا الذي عرفها منذ عهد مبكر عند أمثال الصعاليك⁽²⁾ ، والهذليين في الجاهلية والإسلام⁽³⁾ وعند غيرهم من أصحاب المراثي التي يطول الحديث عنها لو أردنا الاستقصاء.

1- د. محمد مندور: الشعر المصري بعد شوقي، 19-20.

2- د. يوسف خليف: الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي 263-264.

3- د. أحمد كمال زكي: شعر الهذليين، 346-350.



الفصل العاشر:
خصائص الشعر الجاهلي

الشّعر الجاهليّ هو حجر الأساس في بناء الشّعر العربي كُلّه ، وعلى خطوطه سار الشّعر العربيّ بعد ذلك ، وقام هذا الهيكلُ الضخم الذي ترکزتْ فيه مجهودات العصور التالية ، وانبسّطت فيه مشاعرهم .

وبعد مرور ما يزيد على ستة عشر قرناً ، قد يسأل المرء : كيف استطاع راعي الشّياه ، وحادي العيس ، والباحث عن أسباب البقاء - أن يُحوّل الوجود إلى لغة ؟ وإذا كان لكلّ شعب من شعوب هذا الكوكب طريقته الخاصة في التعبير عن وجوده في مجالات الفن ، فيكون الإنسان العربي قد اهتدى إلى مسلاته الساحرة عن طريق الأبجدية ، وإذا استطاع علماء الأنثروبولوجيا أن يكتشفوا خصائص الشعوب ، ويدرجوها كلاً إلى فصيلاته من حيث التعبير عن وجوده وتطور ذاته فإنهم لن يتبعوا طويلاً ليكتشفوا أنّ من أعظم الخصائص التي امتاز بها إنساناً العربي إيجاده واحدةً من أهم المعدلات الكبرى ، وهي لغة الشّعر ، الذي امتاز بخصائص ، نذكر منها :

١- الحسيّة :

كانت تلك المحاولة الإنسانية الخالدة - الشّعر - لدى إنساناً جاهليّ تدور في فَكَ المحسوس والملموس من عالمه متراحمي الأطراف .

وفي رُدّنا على بِيَغائية بعض المحققين من مستشرقين وعرب حول ضيق خيال الإنسان العربي^(١) والتصاقه بالأرض ، مقارنة بما أوجده إنسان الإغريق مثلًا من مخلوقات أسطورية شاركت في صُنْع الغيب وصُنْع الواقع ، أرى أن المفاضلة بين الشعوب لا تقاس بالمقارنة ، بل بما أبدع كلّ شعب على حدة ، مع التأكيد على الطبيعة الجغرافية التي وُجد هذا الشعب في أحضانها ، والتي كانت العلة الأولى لميلاد الخصائص البيئية من سلوك فكريٍ وسلوك عمليٍ لدى كلّ شعب .

أجل إنّ الشّعر العربيّ الجاهليّ ، الذي قرأناه ، يدور في فَكَ المحسوس والملموس انت克拉ً من بساطة الحياة الصحراوية الجافة ...

وإذا ما رجعنا إلى الموضوعات التي عالجها الشّعر الجاهليّ نجد لها حسيّة ، فالحديث عن كلّ منها يدور حول التّواهي الحسيّة ، حتى ما كان منها معنوياً نجده قد أصبح محسّاً كأنما تراه بعينيك .

ولعلّ ذلك راجع إلى الظروف التي كانت تحيط بهم في تلك البيئة ، فقد كانت قاحلة ، فانتشر فيها الفقرُ والبؤسُ . والإنسان في البيئة الفقيرة إنّما يتجه أوّلاً إلى التّواهي الماديّة التي تعود عليه بالنفع الماديّ ، فهو لا يفكّر إلاّ في الفائد الحسيّة التي تقيم أوّدَه ، وتحفظ حياته أوّلًا . أمّا ما وراء ذلك من المعنويات الأعلى شأنًا من ذلك ، فلا تجيء إلاّ بعد الاطمئنان على ما يمكنه أن يعيش عليه .

يضاف إلى ذلك أنّ حظّ الجميع من النّاحية الثقافية كان قليلاً ، والثقافة إذا ما تهيأت للإنسان بقدرٍ كافٍ ، وسّعت آفاقه ، ومجال إدراكه وتفكيره ، فحملته إلى آفاق أرحب ، أعلى من النّاحية الماديّة .

1 - أحمد أمين : فجر الإسلام ، 64 .

وكانت علاقاتهم الاجتماعية - في أكثر أحوالها - بسيطة ، وما كانوا يعرفون من ثقافات غيرهم كثيراً ، فلم تهتم بهم ظروفهم الثقافية الواسعة التي تفتح القلوب على آفاق روحية ومعنوية . وقد لاحظ جورج غورفيتش أن ثمة تناسبًا عكسيًا بين المعرفة الحسية والثقافة ، فهي تقل في المجتمعات المتقدمة ، وتستفح في المجتمعات الأمية⁽¹⁾ . وهذا الأمر الطبيعي بالنسبة إلى الإنسان الذي يفقر إلى المفردات المعنوية التي ترتبط بالمضمون التفافي النظري ، وبالنسبة إلى الإنسان الذي يواجه قضايا مادية محددة ، ولم يتوفّر له بعد وضع حضاري ترفّ لكي يميل معه إلى الكليات المجردة .

2- الصناعة الخفية :

إنّك تقرأ الشعر الجاهلي وتعلم أن بعضه حوليٌّ مُحَكَّ ، وأنّ نظر الشاعر قد عاد إليه المرّة تلو المرّة لتنقيحه وإحكامه ، ومع ذلك لا تشعر بتكلّف صوره ، ولا بأثر الجهد المبذول فيه .

وفي أسماء شعرائهم وألقابهم ما يدلّ على البراعة في هذا التنقيح ، فقد لقبوا أمراً القيس بن ربيعة التغلبي بالمهلهل ، لأنّه أول من هلهل ألفاظ الشعر وأرقّها . ولقبوا عمرق بن سعد شاعر قيس بن ثعلبة بالمرقس الأكبر لتحسينه شعره وتنميته ، ولقبوا ابن أخيه ربيعة بن سفيان بالمرقس الأصغر ، كما لقبوا الطفيلي الغنوبي بالمحبر لتزيينه شعره ، ولقبوا علقة بالغفل لجودة أشعاره⁽²⁾ ...

فهؤلاء وسواهم شعراً اكتسبوا هذه الأسماء ، لأنّهم عرّفوا بتنقيحهم شعرهم وطوي نظرهم فيه . فقد كانوا يعودون إلى القصيدة بعد أن يقولوها ، أو يكتبواها ، ليشذّبواها ويهدّبواها . وكان زهير بن أبي سلمى يُسمى كبرى قصائد الحوليات للسبب ذاته .

ولو نظرنا إلى المعلقات - على سبيل المثال لا الحصر - لألفينا الشاعر الجاهلي يصنع معلقته صناعة محكمة ترفرف في آفاق الجمال الشعري ، حتى لتكاد العين تغفل عن إدراك أثر هذه الصناعة ، وبينهم عليها "فيض من الإحساس بجمال الشعر ، دون تنبه إلى الوجوه المسببة لهذا الإحساس"⁽³⁾ .

وقد خفيت وجوه هذه الصناعة حتى ليظنّ أنها غير موجودة . ولعلّ أبيات الحارث بن حلزة تصلح شاهداً على روعة العمل الفني محكم الصنّع ، خفي الصناعة ، فأنت ترى فيه ذلك الاستقصاء الممعن لأبعاد الصورة التي يرسم جوانبها ، وذلك التنبه الذكي للعلاقات بين الناقة والنعامنة⁽⁴⁾ :

1 - د. أحمد محمود خليل : في النقد الجمالي ، ص 176 .

2 - د. شوقي ضيف : العصر الجاهلي ، 227 .

3 - د. نجيب محمد البهبيتي : تاريخ الشعر العربي ، ص 60 .

4 - شرح القصائد العشر : 373-375 .

الثوي والثاوي : المقيم . التجاء : الإسراع في السير . الزفوف : الثعامة المسربعة في سيرها ، وهنا يزيد الناقة . المهللة: النعامنة . الرئال : جمع رآل ، وهو ولد النعامنة . الذوية : نسبة إلى الذو ، وهي المفازة . سقفاء : طولية مع انحناء . الثباة: الصوت الخفي يسمعه الإنسان ، أو يتخيّله . الفتاصل :

غِيرَ أَنِّي أَسْتَعِينُ عَلَى الْهَمِّ
بِرَفْوَفٍ كَأَنَّهُ مَا هِفْلَةً
أَنْسَثْ نَبَأَهُ وَأَفْزَعَهُ مَا الْقُـ
فَتَرَى خَلْفَهَا مِنَ الرِّجْمِ وَالْوَقْـ
وَطِراقاً مِنْ خَلْفِهِنَّ طِرَاقِـ

مَ إِذَا حَفَّ بِالثُّوَيِّ النَّجَاءُ
رِئَالْ دَوِيَّةُ سَقْفَاءُ
عَصْرًا وَقَدْ دَنَا الْإِمْسَاءُ
كَانَهُ اهْبَاءُ
سَاقِطَاتٍ تُلْوِي
بِهَا الصَّحْرَاءُ

إنَّ فَهْمَ المعاني المباشرة لهذه الأبيات ليس منتهى قصتنا . ولا بدَّ حتى نتدوَّقُ هذا الشعر وما فيه من صُورٍ وأحِيلَةٍ وموسيقاً من أن نعيَّدُ فيه النظرة تلْوُ النظرة لِنستطيع الوقوف على أسرار الجمال والقوَّة فيه . وقد بدأ الشاعر في هذه الأبيات المتنزعة من معلقته يخبرنا أنه يسعين على همَّ المقيم الذي تحدَّث عنه في أبيات سابقة بِرُكوب ناقته ... وهو يريد أن يصف لنا هذه الناقَة السريعة بأسلوب غير مباشر ، فيشَبَّهُها بالثَّعامة . وحتى تكتمل لنا أوصافُ ناقته ، يصوَّرُ الثَّعامة ، وهي في أقصى حالاتها من السرعة والاهتمام والانفعال بفكرة الوصول إلى الغرض ... فهي أمُّ تبتغي صيداً لصغارها ، فتسمع نباءً - والثَّعام طائر جَفْلٍ - ولا يكفي ذلك - فالصَّيادون يطاردونها . ويمضي الشاعر في استقصاء صور المطاردة بما فيها من غبار وايقاع ، ليقول لنا بصورة غير مباشرة ، وبأسلوب فنيٍّ راقٍ : إنَّ هذه الناقَة سريعةً جداً . هل قال الشاعر هذه الأبيات عفوَ الخاطر ؟ ومن بديهيَّة حاضرة فحسب ؟ أمَّ لعلَّه خططَ أو لاً كالرسام الذي يضع الخطوط الأولى للوحته ، ثم يعود لمليئها بالألوان والتفصيات الدقيقة المعبرة عن فكره وشعوره ؟ إنَّ البصر الناذف يستطيع أن يلمس أثر الصننَة في هذه الدرجة العالية من الإتقان دون أن يفسد ذلك شاعرية الشاعر^(١) . وأبرز ملامح هذه الصننَة تلمسها في هذا الإيقاع الموسيقي المنسجم من ايقاع خُفيٍّ ناقَة الشاعر ، وهي منطقة تعدُّو ، والمنسجم مع الإيقاع النفسي والتناغم الذي تستشعره لوجود الثَّعامة في مفترتها ، وهي أمُّ صغار وذات طول وانحناء ... ثم العودة إلى الإيقاع الموسيقي ليصوَّر به حركة العَدُو واضطراب الأعضاء وارتظامها في أرض الصحراء ، وحركة كلِّ جزء من أحذاء اللَّوْحة : الثَّعامة تعدد ، والصَّيادون ، واعها حادِّون ، والغبار متطبَّب

-3 الواقعة:

ونقصد بالواقعية تعلق القصيدة الجاهلية بالواقع والحياة الجاهلية والبيئة الصحراوية وانبثاقها عنها ، وتصوير حالها تصويراً أصيلاً ، وهذا لا يعني أن شعرهم خالٍ من الخيال ، ينقل نقاًلاً حرفياً مشاهدات الحياة والطبيعة ، وإلا لغداً الشاعر جغرافياً ومورخاً . بل إنه خيال قوي ، ولكنه محدود بإطار الواقع . فحواس الشاعر تستقبل ما يُرى ، وما يُسمع ، وما يُلمس ، وما يُتذوق ، وما يُشّم ، ويختزن هذه المرئيات والمسموعات، والملموسات، والمشمومات، وتنتقل في داخله تقاعلاً خاصاً مع ما يحب وما يكره ومع هاجسه الوجودي، وينحنا شعراً نكاد من صدق صوره، وأصلة

الصيادون . المنين : الغبار . الأهباء : جمع هباء ، والأهباء إثارته . الطّراق : يريد بها إطباقي نعلها .
ألوى الشيء : أفقاه .

1 - للإستزاد : ينصح القارئ العزيز بالعودة إلى كتاب د. محمد النويهي : **الشعر الجاهلي** منهجه في دراسته وتقويمه، إذ حلل المؤلف كثيراً من القصائد الجاهلية ، التي تعدّ من عيون الشعر العربي ، ودرس هذه القضية دراسة متأنية.

وأقيمته أن نظن أن الشاعر كأنما يحمل آلة تصوير، وأنه يصور لنا بأمانة. غير أن واقع الحال غير ذلك . فالشعر الجاهلي قد بلغ في فنيته شأواً من الكمال والنضج . وهو قد صور لا ما هو كائن ، بل ما يمكن أن يكون . وتوارى ما يُسمى بالصدق الفني الذي يجعل القارئ أو السامع يكاد يرى الأشياء ماثلة أمامه كما أراد لها الشاعر .
وكان الجاحظ يعجب إعجاباً شديداً بوصف عنترة لبعض الرياض ، وتصوирه للذباب وحركة جناحيه حين يسقط ، إذ يقول ⁽¹⁾ :

فتركُنْ كُلَّ حِدْقَةً كَالدَّرْهَم هَرَجَأَ كَفَعْلِ الشَّارِبِ المُتَرَنِّم فَعْلَ الْمَكْبَ عَلَى الرِّنَادِ الْأَجْذَم	جَادَتْ عَلَيْهِ كُلَّ عَيْنٍ ثَرَّةً فَتَرَى الدَّبَابَ بِهَا يَغْنِي وَحْدَهُ غَرَدَأً يَحْكُ ذَرَاعَهُ بِذَرَاعِهِ
--	---

إن الشاعر في هذه الصورة الرائعة لا يجنب خيالاً ، بل يتلزم بالواقع 000 ولكن أيّ وافع ؟ إنّه قد "صور خلوة الذباب بالروضة ، وأسمّعنا طنينه فيها" ، وأبى إلا أن يفيض عليه من جمال نفسه هو ، فجعله غناء ، ولم يجعله أيّ غناء ، ولكنه غناء سكران يترنّح ، ثم صور حركة هذا الذباب تصويراً لا يخرج عن الطبيعة أقلّ خروج ، وهي حركة يعرفها من راقب الهوام في حركاتها حول المياه في الرياض ، فخرج الوصف أميناً واقعياً يتصل بالحقيقة ، ثم إنّ هذه الصورة في الواقع تعبر جليل عن ذلك القدر من الانفعال والطرب يأخذ بنفسه من خلا في مثل هذه الروضة وبقلبه من الشاعرية الفيّاضة بعض ما أودعه الله بقلب عنترة ⁽²⁾ .

وقد يتساءل المرء : ولكنّ صورة الذباب ليست الصورة المحببة على أية حال 000 فكيف تأتي لعنترة - وهو الشاعر المجيد - أن يرسم لنا هذه اللوحة البريئة ، التي أراد بها أن يشبّه ثغر المحبوبة ، الذي وصفه بقوله :

إِذْ تَسْتَبِيكَ بِذِي غُرُوبٍ وَاضِحٍ سَبَقْتُ عَوَارِضَهَا إِلَيْكَ مِنْ الْفَمِ	عَذْبٌ مُقَبَّلٌ لِذِي الْمَطْعَمِ وَكَانَ فَارَةً تَاجِرَ بِقَسِيمَةٍ
---	---

وهنا لا بدّ أن نشير إلى أنّ العربي الجاهلي لم يكن يأنف من هامة من هوام الأرض ، ولا من حيوان من حيوانها ، ولا ما يتصل بهذا الحيوان . وكانت صلته بالطبيعة من حوله صلة تكاد تكون عضوية من شدة التحامه بها ، وكأنه هو امتداد لهذه الطبيعة في قسوتها إذا قسا ، وفي رقتها إذا رقّ .

وقد يكون مناسباً أن يعود المرء إلى درس الحيوان في الشعر الجاهلي ليستشعر تلك العاطفة الحميمة التي تربطه به أو إلى ذلك الاحترام الذي يشعر به نحوه ⁽³⁾ ، حتى

1 - الجاحظ : الحيوان ، 312/3 .

2 - د. نجيب محمد البهيتى : تاريخ الشعر العربى ، 66 .

3 - أنظر :

- د. محمد التويهي : الشعر الجاهلي منهج في دراسته وتقويمه ، ج 1 ، 328 ، 318 .

- د. نوري حمودي القيسى : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، 100 .

- د. أنور أبو سويلم : الأبل في الشعر الجاهلي ، 171/1 وما بعدها .

لو كان صيداً أشرع في نحره سهماً قاتلاً . ومن الأمثلة على ما نقول أنّ امرأ القيس عندما وقف في ديار محبوبته المهجورة ، ورأى ما يدلّ على أن المكان قد أصبح مسكنًا لحيوان الصحراء لم يأنف من أن يشبّه بعر الظباء بحبّ الفلفل :
تري بعر الأرام في عَرَصاتها
وقيعانها كأنه حبُّ فَلْفِلٍ

4- المثالية :

ونقصد بها ذلك الطلب الدّوّوب لصور الكمال الأمثل في كلّ موصوف ومتحدث عنه . فالشّاعر الجاهليّ عندما يتحدث عن الجبيبة يتخيّر لها أكمل الصّفات وأشرفها ، ولم تكن حواءُ بين يديه إلا ملّاكاً كريماً في محراب الشّعر ، ولم يتناولها في ريشته السّاحرة الشّاعرة كما هي قطّ . المرأة لديه ملاذ ، وبداية رحلة ، وحضن دائئ ، وتمثال مرمر يمدوّس ، ومستودع ذكريات . لم يصوّر لنا الجاهليون امرأة شرسّة نكدة ، ولم يوصلوها إلى جناح الشّعر متقلّة بوطائفها العضوية - إلا في حالات الهجاء القليلة . وفي الغالب الأعم كانت مولداً شعرياً لشاعرنا الفارس النّبيل : ترحالها يلهمه ، ونظرتها تتطّقه ، وهي بعيدة جداً عن تكوين الإنسان البيولوجي . فهل قرأتنا لشاعر جاهليّ دون أن تحفظ بهذه الصّورة . إن المرأة ، وهي نائمة تنشر المسك والزّغافان ، وكافة أنواع الطّيب ، ودائماً ساحرة وفتانة ، وكان الشّاعر ألبسها غلالة مسحورة ، لا يزيد أن يراها إلا من خلالها . وكان خياله الرّسام يمدّ بالكثير من الصّور الخلابة المتذقة بالسحر ، والجمال ، والصفاء ، والطّهر . فالرسوم الطبيعية المنتزعة من البيئة الجاهلية ، والتي رصفت بها جسد حواء وجوارحها ، كانت كلّها شهية الطّعم ، لذيدة المذاق ، محبيّة إلى النفس : لوناً ، وشكلاً ، وشذى .

عنق المرأة كجيد الغزال ، وشفاتها كأوراق الورد ، وعيانها كعيني البقرة الوحشية . بسمتها تغريك باستجاء اللذة ، وحديثها يوحى إليك بطعم فمهما العسليّ ، وأسنانها كأوراق الأقحوان ، وشعرها جدول من جداول الليل يتباهي المشط فيه ، ونهادها جامدان متماسكان دائماً . وبطنها قطعة من نسيج فضيّ أملس ، وهي دقّيقه الخصر أبداً ، حتى لكانها قطعتان التحمتا بعنق دقيق . وكان يخشى الشّاعر عليها من أن تنقصّف أثناء السّير . ولرقّتها لا تكاد قدمها تلامس الأرض ، بل تكاد ترقص كالجمل . ويرقّ أمرؤ القيس فيدعى أنّ التّملة الصّغيرة لو سارت على بشرتها لأدتها أو جرحتها . وأخشن ما عليها أن تستر به هذا الجمال وهذه الرقة المفرطة الخرّ .

أما السوار والدّملج والقرط فقد بثّها الشّاعر الروح ونفح فيها فإذا هي تتحسّس مواضع الجمال من هذا الجسد المثير . وإذا اعتصر الشّاعر ثوباً لامس جسمها قطرّ منه المسّك والكافور والطّيب . والأثر الأوحد الذي تفرزه جوارح المرأة هو دمعها ، ولم يدخل الشّاعر على هذا الأثر فأكسبه الكثير من الرّونق .

- د . نجيب محمد البهبيتي : تاريخ الشعر العربي : 96-97 .
- وهب رومية : الرّحلة في القصيدة الجاهلية : 62-63 ، 81 ، 84 ، 136 ، 119 ، 127 .

والمرأة لا تبرح ذهن الشاعر الجاهلي ، ولا تفارق خياله . ونحن نحسن الان أنّ الجاهلي كان ينظر إلى هذا المخلوق الساحر - المرأة - نظرة فيها الكثير من التقديس ، والتألية ، والعطاء ، والخير . فهو إذا فرد ذكريات الأمس يدخل حتى إلى ذاكرته من خلال حواء ، وأثار أقدامها ، وصورة هودجها ، ووسوسة حلّيها ، ومن وراء نظراتها الدّابلة الهدائة . وكان التجربة الشعرية الجاهلية مرتبطة بالتكوين الأنثوي الذي يذكر شاعرنا الجاهلي بسرّ مغلق من أسرار التوالد والبقاء . وعنصر الأنوثة كان لديه ، أو في غمرة شاعريته الفيّاضة الأنبوّب الذي يتذبذب منه جدول الشّعر . وتركيزنا على هذه الخاصة جاء من الالتحام الوثيق الذي كان بين الصبيدة وحواء . فريد بن الصمة يرثي أخاه متوجّعاً متوجّعاً ، ولكنّه يصل إلى أحزانه من خلال "أم معبد" . وزهير بن أبي سلمي ينشر حكمة التي حملت مثالية المجتمع الجاهلي ، ويطرق باب الحكمـة في معلقه بيد "أم أوفى" . وقيس بن الخطيم يسرد تاريخ حرب بين الأوس والخرزج - وهي الحرب المعروفة بيوم حاطب - وقبل وصوله إلى صليل السيف ، وقراء الكتائب ، والجيش الذي رأه موجاً آتياً متراكباً ، وقبل الفخر في ذاته التي تُقدم طائعة على الحرب والسلم ، والحياة والموت جميعاً ، قبل كل ذلك يتقدّم من بين يدي الحبيبة التي عرفها صغيرة غرّاً ذات ذوائب ، إلى أن نَمَتْ ورأها تُحجّ وتتشّر الفتنة في البيت الحرام . وليس هذا فحسب ، بل هي من الرقة والرهافة والوضاءة بحيث لو بدا نصف وجهها فقط تبدّلت لقيس كنصف الشمس . ونصفها الثاني تعشّث سحابة .

وإذا ما وصف الشاعر ناقته فإنه يسلك - في ذلك الوصف - مسلك التركيز على الإشارات الدقيقة المشحونة بالإيحاء النفسي للخروج بصورة ناقة سريعة وافرة النشاط تبذل من جهدها ما يبهر الشاعر .

وقد أشرنا في أثناء حديثنا عن ناقة كعب⁽¹⁾ ، كيف يحاول الشاعر أن يلملم لنا صورة مادية متكاملة للنّاقة ، وهي صورة لا توجد في ناقة واحدة في وقت واحد ، ولكن عناصرها تقع في الحياة متفرقة ، والشاعر الجاهلي عموماً يرتكب من أحسن هذه العناصر صورة واقعية في أصولها مثالية في نهايتها⁽²⁾ .

وعندما يصف الجاهلي جواده فإنه ينحت له من الخلق والخلق ما هو جدير بمثل أعلى ، قادر على طلب الوحش ، فلا يستطيع أشدّها عذراً أن يفلت منه لقدرته على الإحاطة بها ، فكانه قيد لها⁽³⁾ .

1 - أنظر باب الوصف من هذا الكتاب ، ص304-309.

2 - أنظر في ذلك - على سبيل المثال لا الحصر -

- طرفة : المعلقة ، الآيات 39-11 .

- المتّقب العبدى : المفضليات ، ق76 ص290-292 ، الآيات 40-20 .

- الشّمّاخ بن ضرار النّبّياني ، ديوانه ، ق14 ، الآيات 16-4 .

- أوس بن حجر : ديوانه ، ق30 ، ص64-67 .

3 - أنظر في ذلك :

- موازنة أم جنبد بين علامة الفحل وزوجها امرئ القيس في قصیدتيهما البائيتين .

الأغاني : 203/202 ، والشعر والشعراء : 145 ، والموشح : 32 ، والعمدة : 203/1 .

- المفضليات :

ويعد امرؤ القيس - وهو يصف عناصر جسد فرسه الرئيسة - إلى مقارنة تشبيهية منتزعة من حيوانات أخرى تفوقه في بعض حركاتها وأوصافها. ففيه من الظبي خاصرته ، ومن التعامنة ساقها ، أما عدوه فيشبهه الذئب في إرخائه ، ووليد الثعلب في تقريبه . " وإذا ما نظرت إلى مؤخرته رأيته عظيم الأضلاع ، يسد ما بين ساقيه بذنب مستقيم . ولعل تخصيصه لمدى تدللي الذئب بلفظة "فويق" وهي تصغير "فوق" يدل على عنایة هذا الفارس بالدقائق والجزئيات والمحاكاة بين الواقع الشعري والواقع الحسي⁽¹⁾ .

ويستمر الشاعر في عرض صوره ، كأنها شريط سينمائي تمرّ الصورة تلو الصورة ، فتؤثر في المتألفي ، إنه يشبه انلناس ظهر جواهه واكتناره بالحجر الذي تسحق العروس عليه الطيب ، أو الحجر الذي يكسر عليه الحنظل . ثم يعود للحديث عن سرعة عدوه فيقول : "إنه يدرك مقدمة الطرائد الهازبة ويقيدها، فما تطعن طريدة حتى يصفع نحره بدمائها ، فيظهر شعره الملطخ بدماء الهاديات ، كأنه شعر مسرح أشيب ، صبغ بعصاره الحناء⁽²⁾ " :

وإرخاء سرحانٍ وتقريبٌ تُقلِّ
بضافٍ فُويقَ الأرض ليس بأشدِّ
مَدَاكَ عروسٍ أوْ صلَايَةَ حنظلٍ
عُصارَةُ حناءٍ بشيبٍ مُرَجِّلٍ⁽³⁾

له أَيْطلاً ظبي وساقاً نعامة
ضلِيعٌ إذا استدررتَهُ سدَّ فرجه
كأنَّ على المَتَّنِينَ منه إذا انتهى
كأنَّ دماءَ الهدَياتِ بنحره

وإذا ما افترخ الجاهلي فإنه ينتقي لنفسه ولقومه من الشيم العربية ما يكاد يجعلهم فوق العالمين ، على نحو ما يطالعنا هذا في قول عمرو بن كلثوم⁽⁴⁾ :
لنا الدُّنيا ومَنْ أَضْحَى عَلَيْها
وَنَبْطَشُ حِينَ نَبْطَشُ قَادِرِينَا وَظَهَرَ
مَلَأَنَا الْبَرَّ حَتَّى ضَاقَ عَنَا

فيختيّل للقارئ أنّ بني تغلب كانوا إمبراطورية عظمى في ذلك الزمان.
ولا ننكر أنّ قبيلة تغلب كانت قوة مفرزة في العراق ، قوية الشكيمة ، يرهبها أعداؤها حتى قيل : "لو أبطأ الإسلام قليلاً لأكلت بني تغلب الناس⁽⁵⁾ " .

ق 12 ، الأبيات 14-11 . ق 22 ، الأبيات 12-11 . ق 40 ، الأبيات 25-29 . ق 44 ، الأبيات 32-33

1 - د . قصيّ الحسين : انثروبولوجيا الصورة والشعر العربي قبل الإسلام ، 256 .
2 - نفسه .
3 - ديوانه : ص الأيطل : الخاصرة . الإرخاء : ضرب من عدو الذئب . السرحان : الذئب ، التقريب : وضع الرجالين موضع الديدين في العدو . التقل : ولد الثعلب . الضلِيع : العظيم الأضلاع . الأعزل : الذي يميل عزم ذنبه إلى أحد الشقيين . الانتحاء : الاعتماد . المدَاك : الحجر الذي يسحق به الطيب . الصلَايَة : الحجر الملمس . الهدَيات : المتقَّمات والأوائل .

4 - نفسه ، 366-365 .
5 - نفسه : 318 .

لكن أن تكون الدنيا كلّها ، بما فيها امبراطوريتا فارس والروم ، ملكاً لبني تغلب ، إحدى القبائل فأمر فيه نظر .

ولعل السبب في ذلك نفسيّ ، إذ يرفض العربيّ أن يكون فردياً ، " فهو يرفض أن يتحدث عن نفسه كفرد متميّز ، ولكنه يوحّد فرده بالذات الإنسانية الكلية ، كما يتصرّفها نموذجياً ، فتعامل العربيّ فكريّاً مع النموذج والمثل ، وهي التي تجعله ، عندما يصبح شاعراً ، يعبر عن الفارس من خلال طراز واحد من السلوك والصفات ، وعن المرأة من خلال طراز واحد كذلك من الجمال والأخلاق والتصرفات ، وهو الطراز المقيم على أنه النموذج الأعلى⁽¹⁾". فالجاهليّ لم يكن يصوّر ما يرى ، بل كان يصوّر الجمال المطلق والمثل الأعلى.

5- الصورة الفنية :

عني النقاد المحدثون بالصورة الفنية وأثرها في الإبداع الفني ، وأفردوا لها الكتب والبحوث ، فدرسوا طرق تشكيلها ، وأنواعها ، ووظائفها .

والصورة وسيلة راقية يستعين بها الشاعر في إظهار معانيه ، وتجسيد عواطفه ، وتقريب أفكاره ، ففضلاً عنها تشخص المعانى المجردة ، وتصبّ في صورة مرئية محسوسة ، وبذلك تكتسب قوة ونصوعاً⁽²⁾ ، وهي "الشكل الفنيّ الذي تتخذه الألفاظ والعبارات بعد أن ينظمها الشاعر في سياق بياني خالص ليعبر عن جانب من جانب التجربة الشعرية الكافية في القصيدة مستخدماً طاقات اللغة وإمكاناتها في الدلالة ، والتركيب ، والإيقاع ، والمجاز ، والترادف ، والتضاد ، والمقابلة ، والتجانس ، وغيرها من وسائل التعبير الفنيّ⁽³⁾" .

والتصوير هو "التعبير بالصورة المحسّنة المتخيّلة عن المعنى الذهني والحالة النفسيّة ، وعن الحادث المحسوس ، والمشهد المنظور ، وعن النموذج الإنساني ، والطبيعة البشرية ، ثمّ يرتقي بالصورة التي يرسمها ، فيمنحها الحياة الشائخة أو الحركة المتجمدة . فإذا المعنى الذهني هيئه أو حرّكة ، وإذا الحالة النفسيّة لوحة أو مشهد ، وإذا النموذج الإنساني شاخص حيّ ، وإذا الطبيعة البشرية مجسمة مرئية ، فأمّا الحوادث والمشاهد 000 فيردها شائخة حاضرة فيها الحياة ، وفيها الحركة ، فإذا أضاف إليها المواد فقد استوت لها كلّ عناصر التخييل⁽⁴⁾" .

والصورة الشعريّة ذات دلالة نفسية ، وهي "كلّ تعبير عن تجربة حسيّة تنقل خلال السمع أو البصر ، أو غيرهما من الحواس إلى الذهن ، فتنطبع فيه ، أي إنّ هذه الحواس كلّها ، أو بعضها تدرك عناصر التجربة الخارجية ، فينقّلها الذهن إلى الشعور ، ثم يعيد إحياءها ، أو استرجاعها بعد غياب المنبه الحسيّ بطريقه من شأنها أن تثير الإحساس الأصيل في صدق وحيوية⁽⁵⁾" . فالذهن يحتاج في كثير من اعمالياته إلى

1 - مطاع صافي وايليا حاوي : موسوعة الشعر الجاهلي ، 43/1 .

2 - د. علي الجندي : شعر الحرب في العصر الجاهلي ، 348 .

3 - د. عبد القادر القط : الاتجاه الوجاهي في الشعر العربي المعاصر ، 435 .

4 - سيد قطب : التصوير الفني في القرآن ، 34 .

5 - د. نعيم اليافي : مقدمة لدراسة الصورة الفنية ، 45 .

الحواسّ لترجمة تلك الاعتمادات ، ف تكون الحواسّ أهم وسائل الذهن في الاستقبال
والبث⁽¹⁾ .

ويعد التصوير أهم ركن في الشعر ، بل لعله الشّعر كله ، فيه الجمال والبهاء⁽²⁾ ، ولا بدّ أن يثير فينا إحساسات جماليةً ، وانفعالات وجاذبية تعبّر عن التجربة بصورة حيّة ونابضة بالأحاسيس ، قادرة على نقل الحالة النفسية التي اعترت الشّاعر ، وسيطرت عليه لحظة إبداعه الفني ، بحيث يوحى للقارئ "أنه ينادي نفسه ، لا أنه يقرأ قطعة لشاعر⁽³⁾" .

فهل استوت للشّاعر الجاهلي كلّ عناصر التخييل ؟ وهل استطاع أن يبعث الحركة في الجوامد ويمنحها الحياة الشّخصية ؟ وهل استطاع أن يجسم لنا مشاهد الطبيعة ؟ وهل استطاع أن ينقل ما يعتمل بنفسه وخارطه نقلًا دقيقًا إلى غيره بحيث يتّأكّد أن غيره أصبح على دراية بتجاربه ، وكأنه يرى ويسمع ويحس كما رأى الشّاعر وسمع وأحس ؟

لقد أجاب أستاذنا محمد النويهي عن كثير من الأسئلة التي أثرناها وانتهى إلى "أنهم - الجاهليين - يحاولون في شعرهم أن يجعلونا نبصر الشيء الموصوف وذلك بواسطة هذه الأدوات - الأدوات البنيانية - فامرؤ القيس يبدأ وصفه لل العاصفة الممطرة في ملقطه بقوله :

أصحاب ترى برقاً أريك وميشه
كلمـعـ الـيدـيـنـ فـيـ حـبـيـ مـكـلـلـ

يستغلّ التشبيه ، ويصرّح بعرضه الفنيّ بجلاء لا جلاء بعده 000 فهو يخاطب كلّ من يسمع شعره قائلاً : أنت (ترى) هذا البرق ، الذي سأتحدث عنه ، وأصفه لك ، ثم لا يكتفي بهذا الفعل (ترى) بل يضيف إليك (أريك) زيادة في تأكيد غرضه ، كأنّه يريد أن يقول : أنت تراه رؤية سطحية ، أو عادية لكنّي سأريك إياه رؤية أعمق وأدق ، ثم يمضي في إعطاء تشبيهات حسيّة متواالية ، يحاول بها أن يجعل سامعه (يرى) ما يصف هذه الرؤية العميقـةـ الدقيقةـ الـواـفـيـةـ⁽⁴⁾

وقال علقة في وصف إبريق الخمر⁽⁵⁾ :

كـأنـ إـبـرـيقـهـمـ ظـبـيـ عـلـىـ شـرـفـ
مـقـدـمـ بـسـباـ الكـتـانـ مـفـدـوـمـ
أـبـيـضـ أـبـرـزـهـ لـلـضـحـ رـاقـبـهـ
إـنـهـ صـورـةـ مـزـدـوجـةـ ، فـتـشـبـيـهـ الشـاعـرـ لـمـ يـتـرـكـ كـلـاـ مـنـ الـمـنـظـرـيـنـ قـائـمـاـ بـمـفـرـدـهـ ،
بـلـ هـوـ قـدـ طـبـعـ أـحـدـهـماـ عـلـىـ الـآـخـرـ ، حـتـىـ ذـاـبـ أـحـدـهـماـ فـيـ الـآـخـرـ ، وـتـكـوـنـتـ مـنـهـماـ
صـورـةـ مـوـحـدـةـ عـجـيـبـةـ ، لـاـ تـدـرـيـ أـيـهـماـ الـظـبـيـ ، وـأـيـهـماـ إـبـرـيقـ...ـ
فـالـذـيـ فـعـلـهـ هـذـاـ التـشـبـيـهـ هـوـ أـنـهـ خـلـعـ عـلـىـ إـبـرـيقـ صـفـاتـ الـرـشـاقـةـ وـالـخـفـةـ وـالـظـرـفـ
الـتـيـ نـقـرـنـهـاـ بـالـظـبـيـ ، لـكـنـ هـذـهـ الصـفـاتـ لـمـ تـبـقـ مـجـرـدـ أـوـصـافـ حـسـيـةـ لـأـحـجـامـ وـنـسـبـ

1 - د. عبد الله الصائغ : الصورة الشعرية معياراً نقدياً ، 406.

2 - د. أحمد كمال زكي : شعر الهنلبيين في العصرتين الجاهلي والإسلامي ، 403.

3 - د. عبد الله الصائغ : الصورة الفنية ، 125.

4 - د. محمد النويهي : الشعر الجاهلي ، 108/1 وما بعدها.

5 - المفضليات : ق 120 ، ص 402.

ومواقف مادية ، بل لفتتك فجأة إلى ما في جسم الإبريق جيد الصناعة من صفات حسية يراها الفنان الأصيل ويقتصر بوجودها اقتناع الآخرين بالصفات المادية التي تلمس وتحس⁽¹⁾ .

- التشخيص :

وهو ظاهرة فنية ، ذات شأو رفيع في الشعر الجاهلي ، اتخاذها الشعرا وسيلة تعبيرية مرنة ، يرسمون بها لوحاتهم الفنية ، ويضمّنونها الأحاسيس والقيم الجمالية التي عنها يصدرون .

والتشخيص أرقى مستويات التصوير في الشعر الجاهلي ، وعن طريقه تكتَّن المادة عن أن تكون جامدة ، وتكتَن الحيوانات عن أن تكون بكماء ، وتكتَن المعاني عن أن تكون ذهنية مجردة خيالية . وإنما تغدو كلها ملائِي بالحياة ، مترفة بالحركة ، وتكتسب خصائص البشر ، فإذا بها تحسّ ، وتنظر ، وتقرب ، وتوقف مواقف معينة⁽²⁾ . لقد ركَّز الشاعر الجاهلي عدسته الفنية على الطبيعة ، فالنقط صوراً مختلفة لحيوانها ، من ناقه ، وثور ، وحمار ، وبقرة وحشية ، وظليم . وأدرك الشاعر الجاهلي أن رسالته ليست مخصوصة بالفكر وحده ، وإنما هي رسالة مزدوجة : في الفكر والفن معاً ، فأراد أن يُدخل المتعة الفنية إلى قلوب مستمعيه ، فقدم لهم - ولنا - نماذج عُلياً في الفن ، خلع عليها من أحاسيسه ، وعواطفه ، ومشاعره الإنسانية ، ما أبهَر مستمعيه وفُرِّاءه ، مما جعل تلك اللوحات الفنية خالدةً ، استطاعت أن تثبت ديمومتها أمام العصور ، فتتبعث مع كل زمان بحقيقة جديدة .

ولعل من أبرز الأمثلة التي تصور ما ذهبنا إليه قول المثقب العبدِي في ناقته⁽³⁾ :

إذا ما قمت أرحلها بليلٍ
تأوهَ آهَةَ الرَّجُلِ الْحَزِينِ
تقولُ ، إذا درأْت لها وضيني !
أهذا دينُهُ أبداً ودينِي ؟!
أَكُلَّ الدَّهْرَ حَلْ وَارتحالٌ ؟!
أما يبقي علىِّ وما يقيني ؟!

وأول ما يلفت النظر في هذه الأبيات لجوء الشاعر إلى إضفاء المشاعر الإنسانية على ناقته ، وذلك في تأوهها . ولا شك في أن "تأوه آهَةَ" كلمتان فيهما عمق انفعالي ينسجم مع حالة الشاعر .

إن حديث الشاعر مع الناقة لا يرد كثيراً في الشعر الجاهلي ، لأن عناية معظم الشعراء كانت منصبة على الناحية الجسدية للناقة . وليس هناك غرابة إذا ما خطر ببال الدارس أن يكون "الرجل الحزين" هو الشاعر نفسه ، فهو يتأوه في رحلته مع الحياة ، كما أن الناقة تتأنَّه في رحلتها أيضاً .

والشاعر يتعب ناقته ، ويجهدها لأنَّه فلق متعب ، فزجها في مسالك صعبة 000 ووجد في ناقته خليلاً وأليفاً ، يستريح على أنفاسه ، فتقاسمها شطراً من العذاب والعتاب ، وبذلك يدخل الشاعر في تلامِح عضوي مع ناقته ، بصورة لم نعهد لها في شعرنا ،

1 - د. محمد النويهي : الشعر الجاهلي ، 1/113-117.

2 - راجع باب الوصف في هذا الكتاب : وصف الحمار ، والبقرة ، والظليم ، ص317-329 .

3 - المفضليات : ق 76 ، ص292 ، الأبيات 35-37 .

العربي إلا قليلاً ، ويكون المثقب العبد "قد هدم جدار العجمة العالي بينه وبين ناقته ، وقد منها لنا - من غير زيف أو مكر - صديقاً حمياً ، ثقله الحزن والمكروه ، وشق عليه الصديق ، فحار في أمره وأمر سواه، يصبر على باطله ، ويدفع حزنه بالعتاب والشكوى بين يديه ، فلمست القلوب منا جميعاً ، ولادت بالصدور⁽¹⁾" .

ولعل هذا ما دفع طه حسين إلى إظهار إعجابه بهذه الأبيات قائلاً: إن هذه الأبيات خلقة بأعظم الإعجاب ، وهي من أروع ما قال الناس ، لا في اللغة العربية وحدها ، بل في غيرها من اللغات أيضاً⁽²⁾" .

ومن الجدير بالذكر أن حديث الناقة مع الشاعر لم يكن أمراً مألوفاً عند بعض النقاد القدماء ، ولذلك وقفوا من هذه القضية موقفاً سلبياً ، فقد قال ابن طباطبا : "من الخطابات المغلفة والإشارات البعيدة قول المثقب في وصف ناقته 000 فهذه الحكاية كلها عن ناقته من المجاز المباعد للحقيقة ، وإنما أراد الشاعر أن الناقة لو تكلمت لأعربت عن شكوكها بمثل هذا القول⁽³⁾" .

إن النظرة الأولى للنص تتفى أن يكون هذا الرأي صائباً ، لأن الناقد علق على هذه الأبيات دون أن يربطها بالسياق العام للقصيدة . ولو عاين القصيدة معاينة كاملة ، وانتبه إلى الناحية النفسية لما ذهب إلى مثل هذا الرأي، "فنحن أمام درجة من درجات تفاعل الذات الشاعرة مع موضوعها ، فالشاعر لا يسقط مشاعره على ناقته ، ويخلع عليها حزنه العميق من قدره فحسب ، بل نحن أمام ذات تحاول أن تعني نفسها من خلال تأملها لموضوعها⁽⁴⁾" .

إن تفاعل الشاعر مع موضوعه هو السبب الرئيس الذي جعله يستنطق الناقة ، فهو يتوحد مع ناقته في لحظات المشقة والكلال والتعب والشكوى من الزمن "أكل الدهر حل وارتحال" ، فكان الشاعر والناقة التي يتوحد معها يقان من الزمن موقف المتذمر ، فالزمن يشكل لها هما ، لأنه لا يمنحهما الراحة والطمأنينة ، بل هو ذلك القضاء المقدر عليهما ، وبذلك يتساوى الشاعر مع ناقته بالإحساس أن الحياة فضاء متناهٍ ، وأن الإنسان عليه أن يدور في تلك هذا الفضاء حتى النهاية .

ولا يقل ما قاله سعيد بن الخطيم التيمي في ناقته عما قاله المثقب ، فقد ترك وصفها والحديث عنها عما عليها من رحمل أو متاع ، ليصور لنا أحاسيسه تجاه أحاسيسها ، وكأن بينهما مناجاة حزينةً ، فهي تحن وتمنعن في الحنين ، وكأن صدرها مزامير لا نقتا تزمر ، وتصوت ، فيشقق عليها تارة ، ويزجرها تارة أخرى ، فتستعيض عن الحنين الاجترار والصرير بآنيابها ، لأنها لم تستطع أن تكلمه ، ثم تنهال عبراتها ، فيقع في روع الشاعر أنها ضائقه بزجره إليها⁽⁵⁾ .

1 - وهب رومية : الرحلة في القصيدة الجاهلية ، 84 .

2 - طه حسين : من تاريخ الأدب العربي ، 1 / 457-456 .

3 - ابن طباطبا : عيار الشعر ، 20 .

4 - العسكري ، أبو هلال : الصناعتين ، 130 .

5 - المفضليات : ق 112 ، ص 372 ، الأبيات 1-5 . وانظر : الكتاب ، ص 310 .

ويظهر فن التشخيص - بشكل جليّ - في لوحة الحصان ، الذي شكا إلى عنترة ضراوة الحرب⁽¹⁾ :

ولبانه حتى تسريل بالدم
وشكا إلى بعبرة وتحمم
ولكان لو علم الكلام مكلمي

ما زلت أرميه بعرة نحره
فازور من وقع القنا بلبانه
لو كان يدرى: ما المحاوره اشتكي

فالصورة يبدو فيها عنترة يدفع حصانه ، ليخترق صفوف الأعداء ، الذين كانت رماحهم تنهال على الحصان حتى تمزق جسده ، واكتسى سرباً من الدم ، فاللقت بوجهه إلى عنترة ، وكأنما يستعطفه أن ينظر إليه ، وشكا إليه بعبرة انحدرت على جبينه ، وزفرات مكتومة من صدره .

لقد أضفى عنترة على حصانه مشاعر إنسانية ، فهو يتالم متلما يتالم الإنسان ، ويشكو متلما يشكو الإنسان ، ويستعطف متلما يستعطف الإنسان ، لعل ذلك الفارس ، ذا القلب الكبير ، يرق له ، فيتراجع إلى الوراء ليخفف انهيال الرماح عليه . فدهش لعظمة هذا الحصان الذي خرج من عجمته الحيوانية إلى مخلوق إنساني يمارس كل الأفعال التي تسمح له بارتقاء المدارج التي تفصل بين الحيوان والإنسان ويقف على تخوم النطق الإنساني فيشرح معاناته ويشكو حاله المتآزم من غير كلام .

وهذه القوة الفنية في التصوير امتاز بها الشاعر الجاهلي ، ويستطيع القارئ العزيز أن يجد نظائر كثيرة لهذه الأمثلة التي ضربناها في باب الوصف ، وبخاصة وصف الحيوان . وهذا ما يشجعنا على أن ننتهي إلى القول : إن الشاعر الجاهلي كان فناناً موهوباً ، استطاع أن يقدم لمجتمعه فكراً وفناً ، أبدع فيه صوراً حية ، تتحرك ، وتتحدث ، فاكتسبت تلك الروائع الفنية الديمومة والخلود . وكانت تلك النماذج خلقةً بأن تجذب الإنسان للاستمتاع الجمالي بذلك الحيوان ، تقر العين برؤيته البهية ، وطلعته الغراء ، وتهداً النفس لتصرفاته وسلوكه ، يقول ابن جُزِي الكلبي : "إذا نظرت في شأن الفرس ، وجدت له من قوة الإدراك ، وحدة القلب ، وذكاء الذهن ، وصحة الميَّز ، وعزّة النفس ، وكرم الطبع ، ما يقتصر عنه كثير من جنس العقلاه ، ويعجز عنه كثير من الناطقين الآباء ..."⁽²⁾.

7- المعاناة :

الإنسان الجاهلي سائر ، أو قل : هو يدور في مزالق الصحراء ، لا يكاد يستقر . وقراءة واعية للآثار الشعرية الجاهلية تطلعنا على أن الرؤية الشعرية للجاهليين ، بما فيها من حركة ونمو هي ترجمة هذا الإنسان إلى شعر . والشعر لدى الجاهلي هو الإنسان نفسه . وإذا وجد في هذا العصر من يصف الحضارة الجاهلية بأنها حضارة لغة ، فإنه يحق لنا أن نفخر بهذه الخاصة ... وحركة الإنسان الدائبة في الصحراء عكستها لغته بشكل تصورها حركات الإعراب نفسها . ولا يبدأ كلام العربي بساكن ، ولا يلتقى

1- شرح القصائد العشر : 311 .

2- أبو عبيدة ، معمرا بن المثنى ، كتاب الخيل ، 40-39 .

في اللغة ساكنان ، ومعظم القصائد الجاهلية - التي وصلتنا - تبدأ بفعل : "فَقَانِبَكْ" و "وَدَعْ هَرِيرَةً" ، و "سَائِلْ مَعْدَّاً" و "بَانِتْ سَعَادْ" ...

معظم القصائد الجاهلية تبدأ هذه البدايات ، التي تنم عن الحركة ، والمسير ، والرّغبة في الاستمرار . وما تبقى من القصائد - وهي قليلة - لا تبدأ بفعل ، وإنما تبدأ بأحرف استفهام : من ؟ لمن ؟ أين ؟ هل ؟ أو تنبية : ألا ، آآ ، أو نداء ...

ونتساءل بعد هذا الكشف عن أحد جوانب التجربة الشعرية الجاهلية : هل جاءت الحركة إلى مطلع القصيدة مصادفة دون اختيار من الشاعر الجاهلي ؟ وهل كانت حواء التي احتلت مدخل التجربة الشعرية حلية أو زخرفاً في القصيدة ؟ وهل أقحم الشاعر الجاهلي الدّمن والأطلال في قصيده بلا معنى ؟

إن الحركة ، والمرأة ، والطّل كثالوث مقدس في الشعر الجاهلي ، يعكس لنا بشكل خفي طبيعة المعاناة وتشخيص الصدق في العمل الإنساني الخالد.

إن هذا الثالوث ترجمة للفعل والحب والتعلق بالأرض ، كوجه خلفي لشكل الإنسان العربي الذي كشف ذاته في لغته ، ومنحها ما يريد أن تمنحه إياه الطبيعة من طول وعمق وحركة واستمرار ، مما يدعونا إلى التأكيد على أن الشعر الجاهلي كان معاناة من إنسان ذلك العصر لرسم إنسانيته فيه . وعندما نصف هذا القدر الذي وصل إلينا من ذلك العصر بأنه ديوانهم ، ومراة وجودهم ، وحامل حركتهم ، والمعبر عن وجودهم في هذه البقعة من العالم ، علينا أن نضيف لكل ذلك أن الشعر الجاهلي بما حمل من فخر ذاتي ، وقوة انتماء قبلي ، ووصف حي للطبيعة والحياة ، ورسم دقيق لم ينس خطأ واحداً من خطوط الحياة العربية في فترة ما من التاريخ . كان هو الإنسان الجاهلي نفسه بمعاناته وتركيبه النفسي والفكري ، ونزعه تطلعه ، أو ملكة تشبّه في الحياة ، ومواجهة همومها ، أو بتعبير وجودي كان يختار مصيره وينقله بالشعر ، وإذا كانت كل "حقيقة لا تكون إلا بفعل عاملين : عامل البيئة ، وعامل الذاتية الإنسانية" كما قال سارتر ، فالشاعر الجاهلي هو الآخر الذي حمل في طياته هذه المعادلة بكل صدق .

فنجد في لغته الجزلة المنسوجة على نُؤلِّ الجمال العقري الباذخ روح ذلك الإنسان وموافقه من الحياة والآخرين ، متغلّلاً في البيئة ، ومتغلّلاً في البيئة ، كأكمل ما يكون التداخل والالتحام ، حتى كان القاريء في كثير جداً من هذه القصائد لا يستطيع أن يسأل عن مفردة لا لزوم لها في الشعر . أي ، إنه شعر ليس فيه حشو ، تلك الخاصة التي انزاقت إلى الشعر - فيما بعد - وشوّهت الكثير من معالمه .

كانت التجربة الشعرية الجاهلية - كما نفهمها - تجربة ، خاصتها الإنسان الجاهلي مختاراً شكلها ، وأرضها ، وخلفيتها ، وعمقها . فمن حيث اللغة كان الشاعر حرّاً في اختيار ألفاظه بما يتلاءم مع مستوى الفكري ، ومظاهر حياته ، وخصائص بيئته . ومن حيث الموسيقا فقد ظلت الفترة الزمنية التي وصل إلينا جزءاً من نتاجها الشعري فترة مخاضات إيقاعية ، ولادات موسيقية ، لم تحصرها القوانين .

وأبرز من هذا كله أنّ البيئة الجاهلية بكل ما فيها ، وذاتية الإنسان الجاهلي بكل ما فيها ، كانتا ميدان الشعر الفسيح ، ومسرح تجارب الشاعر الخلقة . البكاء على الأطلال كان واقعاً ملماساً ، ولم يكن زخرفاً جماليّاً في الشعر . والمطلع الغزلي كان الشحنة الأولى التي تتفجر من ورائها مخزونات النفس الشاعرة . والرحيل على الناقة

والجمل ، والصيد والرعي ، ونصب الخيام ، وصليل السيوف ، وكروع الخمر ، والانتماء القبلي ، والإشادة بعظمة القبيلة ... كانت هذه المظاهر - التي عرفناها - ميداناً للشعر . كانت جزءاً أو أجزاءً من صميم تكوين الإنسان الجاهليّ . وقراءة المعلقات بوصفها عنصراً بارزاً من عناصر هذا الشّعر مع الاطلاع على حياة أصحابها ، تقدم لنا الدليل على أن الشّاعر الجاهليّ لم يكن زائفاً في انتقاء مسرحه الشّعري بقدر ما كان ممارساً لهذا الانتقاء .

وقد يسأل سائل ، ونحن نتعقب جذور الكمال في **الشعر الجاهلي** ، سؤالين :

- ## ١- أين وَحدة العمل في القصيدة الجاهلية؟

- 2- لماذا طغى عنصر الوصف على هذا الشعر حتى كاد يستهلكه؟

ولا أظن أن السؤالين خطراً للشاعر الجاهليّ نفسه . أي أنا نسألهما من خلال إحساسنا بقيمة الشعر وتنوعه واتساع حدوده وأفائه ، ونحن في القرن العشرين ، بزمان غير الزمان ، مكان إن لم يكن قد تغير ، فلا شكّ أنه قد طرأ عليه الكثير من التعديل والتبدل . وبالتالي هل من المنطق أن نسأل الشاعر الجاهليّ أن يكون ترجماناً أميناً لذاتية الإنسان في القرن العشرين ؟ بل المنطق أن نعيش قدرة ذلك الإنسان وتكوينه العقلي ، ثم نعكف على دراسة منجزاته ، فإن تفوق الإنجاز على إمكانية متابعة للمنجز ، نقول على الفور : إنّه تجاوز عصره . وإن تفوقت إمكاناته المتاحة على حجم إنجازه ونوعه اتهمنا بالجمود . وهذا ما لا يوافق مفكر أو مثقف على إصاقبه بالإنسان الشاعر في ذلك العصر .

قلت في سطور سابقة: إن الحركة الناجحة عن سرعة التنقل هي التي طبعت الجاهلين بطابعها ، وانعكسَتْ هذه الحركة على لغته وشعره فكلامه يبدأ بمحرك كأنما اللغة تتململ لتنطلق في رحاب العالم غير المنظور تكتشفه . وشعره في الغالب يبدأ بالفعل الذي يعبر عن تلك الحركة، وأسبغ هذه الخاصّة نفسها على كل ظاهرة تبرز له في ثنايا رحلته الحياتية ... أسبغ على كثير من الأسماء صفات تحول هذه الأشياء إلى أساطير ... الى شحنات تتفحّص طاقات الشعر منها جمِيعاً ...

وهل من العدل ، ونحن نقرأ التاريخ والأدب والفلسفة وعلم النفس ، أن نقيم الشعر الجاهلي بنفسية إنساناً المعاصر ؟ وهل من المنطق أن نطالب شاعرنا الجاهلي بأن يكتب قصيدة وحدة البناء ، الذي - أصبحنا الآن نفهمه - إذا ما تهدم بيت منها تنهار ؟

في واقع الأمر إن القصيدة الجاهلية لم تعتمد البناء الكلبي المتسق بحيث لا تخللها الزيادة ولا النقصان . ولكن طبيعة البيئة الجاهلية المتحركة - والتي كانت التجربة الشعرية نقلًا مثاليًّا لها - فرضت على الإنسان الجاهلي النسق الشعري الخاص ، محمولاً في شحنة وجاذبية تغلي وتنتصب قطعاً كأنها جمال القافلة ، أو خراف القطيع ، ولم تكن القافية الرنانة إلا الخيط الذي يربط البيت والبيت . وكان من اختيارات الجاهلي لفنه - وربما عن تصميم - أن تكون كل شحنة شعرية مستقلة ببنائها المحكم المتقن ، بحيث إذا ضاع من القافلة جمل فلا تضيع القافلة ، وإذا ضاع من القطيع حمل فلا يضيع القطيع .

وقراءة متأنية للقصائد الجياد الجاهليات ترينا أن الأبيات لو زادت أو نقصت
تظلّ بين أيدينا روح الشاعر ، وجوّ الصبيدة ، وقسط وفير من الخصائص الفنية التي
عاني شاعرنا الجاهلي وجاهد في سبيل خلقها .

أضيف إلى هذا التحليل أمراً، ربما لم يتتبه له كثيرون، هو فقدان النهاية في العمل الشعري الجاهلي. وحيث ينتهي الشاعر الجاهلي من إنشاد قصيده، يدفعنا لتساؤل: وبعد؟ القصيدة ذات مطلع بالتأكيد، حتماً عليه الشاعر أن يكون مدخلاً إلى محراب شعره. ولكن الباب الثاني لهذا المحراب المقدس يظل مفتوحاً على مصراعيه، حتى لتحسّ بأن الشاعر الجاهلي عائد إليك، يستأنف رحيله الشعري مرة أخرى. فهل نضيف هذه الخصيصة إلى طبيعة الحركة؟ طبيعة الرحيل؟ طبيعة السير الذي أراده لنفسه؟

ثم لماذا طغى الوصف على تجربة الشعر الجاهلي؟ أليس هذا هو السؤال الثاني الذي طرحته؟ أجل. قلت: إن الإنسان الجاهلي يسير، وكل ما بين يديه من مقومات حياته سائر، فالحبيبة تنزلق من أمام ناظريه، ولا يراها إلا محمولة في هودج على ناقة في قافلة تبحث عن الكلأ... والبيوت التي تقيه حرارة الشمس ووجهها هي الأخرى تسير... تترحل... تتنقل مع القبيلة، أو مع فخذ من أخاذها... الخرفان ترکض... والظباء التي افتتن بها وسرق منها العين الساحرة هي الأخرى لا تقف أمام عينيه في مكان ما... فحياته إذن رحلة... مسيرة لا وقفة بعده... ترحل مستمر... أما كان ذلك الإنسان يحن لاستجمام أشياء لا تستقر بها أرض، ولا ينعم بها نظر طويلاً؟ في ذاكرته على الأقل... وفي وجданه المرهف... وفي فؤاده الذكي... الشاعر الجاهلي رسّام... لم تسعفه العين المجردة على رسم صوره فاستعان بعين خياله، لينفذ منها شعاع سحري أنيق، ويحيل حياته إلى لوحة بارعة لها مطلع وليس لها نهاية، ذات الأوان ليس قوس قزح أطلق منها.

الإنسان الجاهلي شاعر عانى الحياة، التي كانت رحلة بلا توقف ... هو على صهوة جواده الذي أحبه، وكان له صديقاً وفيأً، فأقسم أن يخلد فمنحه الكثير. وأمامه ناقته الذلول وبعيره السفينة يتهدّجأن على شوك البدية، أو رمال الصحراء. الآيسا صديقه في رحلته؟ ويمزّ أمام ناظريه ظبّي فقد أقرانه، اللّهفة ملء قفزاته، والحنان ملء نظراته، أليس جديراً بهذا الشّاعر أن يلتقط له صوراً عديدة في طريقه، يعيد النّظر فيها، ويمنّحها بالشعر حياة أخرى؟ كان الشّاعر الجاهلي في رحلته سابحاً فوق المحسوسات والموصفات، يحطّ حيناً، ويحلق حيناً آخر. يخطف مشهداً حيناً، ويقف وقفاتٍ قصاراً ليتفحّص المشهد الذي ينفله حيناً آخر. ويلتّخ بين الحين والحين على التعمّق في خطوط المشهد وجزئياته، حتى إذا نقله وفرده بین يدي حبيبته الملهمة، لا يترك لها مجالاً لسؤال عن جزئية من أجزاءه .

كانت الصورة في قصيّته صورتين: صورة المشبه، وصورة المشبه به. وكثيراً ما كان يمحو الفرق الزماني والمكاني بين المشبه والمشبه به ليحتل الاثنان حيزين متكافئين في قصيّته، مضيفاً عليهما لمساتٍ من روحه الشفافة وخياله . وقليلًا ما كان يلجأ إلى تصوير غير المرئي ، لأنّ ذاكرته في رحلته كانت وعاءً حُشرت فيه أشتات

من الصور . ولم يَبْقَ فيها مكان إلَّا لما يوحيه قلب العاشق ، وتصور الفارس لباسه وشجاعته وكرمه وعفته وحافظاً على مثله العليا بالنسبة إلى مجتمعه القبلي . وكثيراً ما كانت صور الشاعر الجاهلي ملتقة بذكرياته الماضية قريباً وبعدها ، وأثناء التصوير يعنّ له أن يسرد قصة من قصصه الماضية ، كرحلة صيد ، أو مغامرة مع الإنسان المعبود حواء . فالوصف إذن من طبيعة التركيب الأصيل للتجربة الشعرية في الصحراء .

وبعد :

فإن المعاناة والجهد المبذول في إخراج تلك الروائع الفنية يدفع عانني إلى أن أقف مشدوهاً مبهوتاً أمام قول الجاحظ : " وكل شيء للعرب بديهية وارتجال⁽¹⁾ ، وكأنه إلهام وليس هناك معاناة ولا مكابدة ، ولا إجلاله فكر" ، بما في ذلك الشعر ، ولم يكلف الجاحظ نفسه عناء البحث والتمحیص في أعماق العصر الجاهلي فعدّ الشعر حديث الميلاد صغير السن ، أول من نهج سبيله ، وسهل الطريق إليه أمرؤ القيس بن حجر الكندي ، ومهلل بن ربيعة⁽²⁾ .

إن هذه الأقوال التي ارتجلها الجاحظ لا تستقيم مع طبيعة الشعر ، بوصفه فناً صعباً ، ولا تستقيم مع طبيعة الفن من حيث نشأته وطفولته والمراحل التي مرّ بها حتى وصل إلى هذه الدرجة المدهشة عند من قرأنا لهم من فحول الشعراء الجاهليين .

1 - الجاحظ : البيان والتبيين ، 28/3 .

2 - الجاحظ : الحيوان ، 74/1 .